المشكلات الاجتماعية

الدكتورة
دلال ملحس استيتية
جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا

الدكتور
عمر موسى سرحان
جامعة البلقاء التطبيقية





الطبعة الاولى
2012

المشكلات الاجتماعية

الأستاذة الدكتورة
دلال ملحس استيتيه
جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا

الدكتور
عمر موسى سرحان
جامعة البلقاء التطبيقية



الطبعة الأولى
2012

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (2011/8/3035)
استيتيه ، دلال ملحس
المشكلات الاجتماعية / دلال ملحس استيتيه ، عمر موسى سرحان.
– عمان: دار وائل للنشر والتوزيع ، 2011 .
(318) ص
ر.إ. : (2011/8/3035)
الواصفات: المشاكل الاجتماعية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

****

رقم التصنيف العشري / ديوي : 362
(ردمك) ISBN 978-9957-11-971-3

* المشكلات الاجتماعيـــة
* أ. د. دلال استيتيه – د. عمر سرحان
* الطبعـــة الأولى 2012



دار وائـــل للنشر والتوزيع

* الأردن – عمان – شارع الجمعية العلمية الملكية – مبنى الجامعة الاردنية الاستثماري رقم (2) الطابق الثاني
هـاتف : 5338410-6-00962 – فاكس : 5331661-6-00962 - ص. ب (1615 – الجبيهة)
* الأردن – عمـان – وسـط البـلد – مجمـع الفحيص التجـاري- هـاتف: 4627627-6-00962
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com

الإهـــداء ...

إلى روح زوجي الطاهرة

الدكتور اكرم مصطفى استيتيه رحمه الله

إلى أمي لحبها ودعمها رحمها الله

إلى أبني سائد وأبنتي ديمه

إلى احفادي زينة وزيد وليان وكرمه وياسمينه

المؤلف
أ. د. دلال ملحس استيتيه



إلى روح أعز الناس أمس واليوم وإلى الأبد

زينة حياتي وريحانه عمري ورفيقة دربي

زوجتي الغالية رحمها الله واسكنها فسيح جنانه

إلى إبنيّ موسى وزيد

المؤلف
د. عمر موسى سرحان

مقدمة الكتاب

يمثل علم الباثولوجي في الطب علم المشكلات الاجتماعية أو علـم العلـل الاجتماعية في علم الاجتماع الذي يقوم بتشخيص الأمـراض الاجتماعيـة الناجمـة عن التغيرات الاجتماعية التي تحصل دائماً وبشكل مستمر داخل المجتمع سواء كان ذلك بتأثيرات خارجية أو بتأثيرات داخلية أو نقيض التغيرات الاجتماعية.

هذا التخصص الحقلي يحمل تسمية (علم) لأنه يدرس العلـل الاجتماعيـة الذي يضم علم الاجرام وعلم النفس الاجتماعي ويغذي علم الاجتماع الحضري والصناعي وعلم السكان بتحليل علمي للمشكلات التي تظهر في حقول دراساتهم لأن مواضيع الجنوح والانحراف والعنـف والعـدوان والتحيـز والإسـاءة للأطفـال والانتحار والاكتئاب والتي يتناولها هذا العلم.

قسّم المؤلفان الكتاب إلى ستة أبواب: يتناول **الباب الأول** المدخل النظـري من حيث تعريف المشكلات الاجتماعية وتحديدها ومحكاتها والإطار المرجعي لهـا. وأما **الباب الثاني** من الكتاب فيدور حول المشكلات النفسية الاجتماعية وأهمهـا: مشكلة الإساءة للأطفال والعنف ومشكلة الفقر والانتحار والاكتئاب والجنوح.

يناقش **الباب الثالث** مشكلة تلوث البيئة وأنواعهاظ وكيفيـة المحافظـة علـى البيئة، وأما **الباب الرابع** تناول المجتمع والمشكلات الاجتماعية مـن حيـث تعريـف المجتمع، عناصر المجتمع، أشكال المجتمع وتركيبه وأخيراً أنواع المجتمعات.

يدور **الباب الخامس** حول الأسس الاجتماعية للتربية من حيث التربية عملية تطبيع اجتماعي ومفهوم التفاعل الاجتماعي وتكوين الاتجاهات واهمية المعايير والأدوار الاجتماعية.

أما **الباب السادس** والأخير فناقش عن الرؤى المستقبلية من حيث الأسرة والشباب والقيم.

المؤلفان

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

تعريف المشكلات الاجتماعية

الباب الثاني

المشكلات النفسية الاجتماعية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

مشكلة تلوث البيئة

الباب الرابع

المجتمع والمشكلات الاجتماعية

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

الأسس الاجتماعية للتربية

الموضوع	الصفحة

الباب السادس

الرؤى المستقبلية

الباب الأول

تعريف المشكلات الاجتماعية

مفاهيم الدراسة

المشكلات الاجتماعية

يقدم الدكتور أحمد زكي بدوي في معجمه "معجم العلوم الاجتماعية" تعريفاً للمشكلات الاجتماعية ينص على أن "المشكلات الاجتماعية هي المفارقات بين المستويات المرغوبة والظروف الواقعية، فهي مشكلات بمعنى أنها تمثل اضطراباً وتعطيلاً لسير الأمور بطريقة مرغوبة ... وتتصل المشكلات الاجتماعية بالمسائل ذات الصفة الجمعية التي تشمل عدداً من أفراد المجتمع بحيث تحول دون قيامهم بأدوارهم الاجتماعية وفق الإطار العام المتفق عليه والذي يتمشى مع المستويات المألوفة للجماعة" (بدوي، 1986: 393). ويشير الحديثي إلى أن "المشكلة الاجتماعية هي كل صعوبة تواجه أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية القويمة، والتي تعترض طريق عدد من أفراد المجتمع وتحول دون قيامهم بأدوارهم الاجتماعية" (الحديثي، 1995: 192). وفي الدراسة الحالية تعرف المشكلات الاجتماعية على أنها مجموعة الصعوبات والعوائق السلوكية التي يمكن أن تنسب إلى البيئة الاجتماعية، والتي بدورها تحول دون تحقيق إعادة توافق المتعافى من الإدمان مع مجتمعه.

إن تغير مواقف الحياة الاجتماعية، وتبدل ظروف المجتمع وتنظيماته، كـثيراً ما يؤديان إلى حالة من عدم التوافق أو عدم التنظيم. وهـذه الحالـة تـرتبط بـشكل أساسي بطبيعة تكون المجتمع، وآلياته الوظيفية، وعلاقاته التفاعلية، وتظهر أعراض هذه الحالة فيما يسمى أحياناً مشكلة اجتماعية.

إن تكرار ظهور المشكلات الاجتماعية لا يعني وجود ظاهرة غـير صـحية، وذلك لأن سلامة المجتمع ليست في خلوّه تماماً مـن الأمـراض، وإنما في مقاومتـه المرض تلو المرض والانتصار عليه. وليس عجيباً ظهور مشكلات كـثيرة اليـوم في عالم تتغير قيمه ومعاييره بسرعة، مما يستدعي إعادة التنظيم والبناء عنـد ظهـور أيـة مواقف جديدة، بقصد مواجهتها وتكييف السلوك بمقتضاها، خاصـة وان المـشكلة كثيراً ما تنشأ عن صراع بين موقف متغير متجدد والمعايير والقيم التي يـتعين أو لا يتعين مواجهته في إطارها أكثر من كونها سلوكاً غير مرغوب فيه كالجريمة، وجنوح الأحداث، والفقر، والبطالة، وحوادث السيارات، التي تتطلب حلاً جماعياً بدلاً من أن تكون مستعصية على الحل وكأنها شرّ لا بد منه.

وهكذا يذهب بعض البـاحثين إلى أن المـشكلة الاجتماعيـة هـي مُـسألة أو قضية تتعلق بنشوء اتجاه أو ميل أو موقف مـن المواقـف الإنـسانية يهـم جماعـة أو أكثر. فهي صعوبة اجتماعيـة تـستدعي الانتبـاه والمناقـشة والجـدل وربمـا تقتـضي الإثارة والبحـث واتخـاذ القـرار، كمـا تـؤدي إلى فعـل إصـلاحي أو تعويـضي أو تكيفي.

ومن الواضح أن هذا التعريف يضم تسعة عناصر دالـة تؤهلـه لأن يكـون واحداً من أكمل التعريفات الموضحة للمشكلة الاجتماعية؛ فالمـشكلة الاجتماعيـة

هي: (1) مسألة أو قضية (2) تتعلق بنشأة ظرف أو ميل أو موقف شخص أو جماعة (3) ينظر إليها (4) على أنها صعوبة اجتماعية (5) من جانب جماعة أو أكثر (6) توجه لها انتباهاً خاصاً (7) بعمليات المناقشة والبحث واتخاذ القرار، وربما الإثارة أيضاً (8) مع القيام أو عدم القيام (9) باتخاذ فعل إصلاحي أو تعويضي أو تكيفي.

ولقد جاء هذا التعريف لإكمال تعريف سابق قدمه كليرانس مارش سنة 1924م حين عرف المشكلة الاجتماعية بأنها "موقف اجتماعي يجذب انتباه عدد لا بأس به من الملاحظين المختصين داخل المجتمع، ويسترعي اهتمامهم بما يتطلب إعادة التوافق أو العلاج بعمل جماعي من نوع أو آخر".

أما روبرت ميرتون Robert Merton فيذهب إلى أن "وجود مشكلة اجتماعية معينة يتطلب أن يكون هناك تعارض مرئي بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون" (4)، ويفرق بين نوعين من المشكلات الاجتماعية: المشكلات الظاهرة Manifest، وهي الحالات التي تدركها المجتمعات على نطاق واسع باعتبارها مؤذية وتحتاج إلى حلول كالجريمة أو النزعة العرقية، ثم المشكلات الكامنة Latent، وهي الحالات المتعارضة مع القيم والمصالح السائدة، ولكنها غير مدركة من قبل الجمهور.

ومن زاوية أخرى، يرى رودني ستارك Rodney Stark أن "الحالة تصبح مشكلة اجتماعية عندما يعرفها عدد كبير من الناس أو عدد من الأقوياء منهم، حتى ولو كان ذلك مجافياً للحقيقة" (5). ويضيف ستارك أن مجرد وجود حالة

مؤذية جداً في المجتمع لا يشكل مشكلة اجتماعية؛ إذ لا بد من أخذ الطريقة التي يلاحظ فيها الناس حالات موضوعية بعين الاعتبار.

وهكذا، طالما أن المشكلة تتطلب إدراك عدد من الناس أو عدد من الأقوياء منهم، فلا بد أن يكون لها تأثير مباشر أو غير مباشر عليهم، وإلا كيف يهتمون بها وكيف يشعرون بثقلها؟ لقد أجاب البعض عن هذا السؤال حين ذكروا أن 'المشكلة الاجتماعية حالة تؤثر على عدد هام من الناس بطرق تعتبر غير مرغوبة، ويشعرون بأن بالإمكان القيام بشيء ما حيالها من خلال الفعل الاجتماعي الجمعي'.

هذا التعريف الأخير يتضمن أربع أفكار متميزة هي أنّ :

1- الحالة تؤثر على عدد كبير من الناس.

2- هذا التأثير يتم بطرق غير مرغوبة.

3- هؤلاء الناس يشعرون بأن بالإمكان القيام بشيء ما حيالها.

4- هذا يتم من خلال الفعل الجماعي.

ولقد اقترب بعض الباحثين من ربط المشكلات بقيم الجماعة ومعاييرها أكثر فأكثر. فقد ذهب دنتلر إلى أن 'المشكلة الاجتماعية حالة تعرفها جماعات هامة من السكان بأنها انحراف عن المقاييس أو تعطل لبعض المعايير التي تعتقد هذه الجماعات أنه يجب تدعيمها، إذا أريد أن تستمر الحياة الإنسانية أو نظام النشاطات والأحداث التي تعطي الحياة معنى وتحفظها'.

وفي هذا التعريف تبدو النزعة المحافظة التي تربط بين جمال الحياة وبين المحافظة على المعايير والمقاييس الاجتماعية. ويستشف من التعريف أيضاً أن المشكلات إنما هي "قضايا مربكة حول المجتمع البشري تتطلب حلاً". ولكن هذا الحل لا يأتي عن طريق إحداث تغييرات مقصودة أو منع الانحرافات والوقوف أمامها وجهاً لوجه بقدر ما هو محافظة على ما هو قائم وموجود من معايير متفق عليها. وفي هذا يلتقي التعريف السابق مع التعريف الذي قدمته موسوعة العلوم الاجتماعية كما عرضه ايزنشتادت.

أما جوزيف جوليان Joseph Juliane فيربط بين وجود المشكلة وبين الحاجة إلى معالجتها حين يقول إنّ "المشكلات الاجتماعية هي حالات تعتبر على نطاق واسع بحاجة إلى تحسين أو معالجة". وفي كتابه المعنون "مشكلات اجتماعية" نجده ينطلق في دراسته لهذه المشكلات من فرضيات أربع تشكل محوراً لدراستها وتحليلها، وهذه الفرضيات هي:

أولاً: "إن المشكلات الاجتماعية هي، إلى حد ما، نتيجة لتأثيرات غير مباشرة وغير متوقعة لأنماط سلوكية مقبولة"، ويضرب جوليان مثلاً على ذلك ظاهرة الانفجار السكاني حين يقول:

"لقد كان إنجاب الكثير من الأطفال عملاً ذا قيمة كبيرة في أماكن عديدة ولزمن طويل، وكان في تلك الفترة ضرورة ملحة. وعبر التاريخ، مات معظم الأطفال. أما الآن فالأمر مختلف، وذلك نظراً لاكتشاف طرق أفضل للمحافظة على حياة الإنسان".

ثانياً: "إن بناءً اجتماعيـاً معينـاً وثقافـة معينـة يـدفعان معظـم النـاس إلى الاتـساق، ولكنهما يدفعان بعض الناس إلى الانحراف أيضاً".

ثالثاً: "إن كل بناء اجتماعي أو مجتمع يتألف من جماعات متباينة من الناس يمتلكـون في كل منها مستويات متشابهة من الـدخل، والتعلـيم، والخلفيـة العرقيـة، والمهـن. هذه الجماعات المتنوعة تشكل شرائح المجتمع أو طبقاته، ويعـيش أفـراد كـل منهـا المشكلات نفسها بشكل مختلف، ويحتمل كذلك أن يفهموها بشكل مختلف".

رابعاً: "الناس في الشرائح الاجتماعية المختلفة يقترحون حلولاً مختلفـة للمـشكلات الاجتماعيـة. ولـما كانـت هـذه الحلـول عـادة متفقـة مـع مـصالحهم الخاصـة وقيمهم ومعاييرهم واتجاهاتهم، فإنه يصعب الوصول، غالباً، إلى اتفاق يحقـق حـلاً لمشكلة ما".

وهكذا، يؤكد الباحثون المشار إلـيهم آنفـاً "أن المـشكلة الاجتماعيـة توجـد عندما يدرك عدد كبير من الناس أو عدد من ذوي الشأن منهم حالة على أنها غير مرغوبة أو على أنها متعارضة مع قـيمهم الاجتماعيـة ومعـاييرهم". وفي هـذا فهـم يتفقون مع كثير ممن أوردنا تعريفات لهم، ولكنهم يضيفون إلى ذلك "أنه يمكن – بل ويجب – تغيير تلك الحالات". وهذا هو عنصر التجديد الذي أشرنا إليه.

ومع أن هذا التعريف لا يحدد المسؤول عن التغيير، فإن جوليان الـذي مـر ذكره يوجب هذا التغيير في صـورة إزاحـة للمـشكلة، أو حلـها، أو معالجتهـا مـن "خلال الفعل الجمعي"، ولكنه يشترط لحصول ذلك أن يوافق عدد كبير مـن النـاس

عامة، أو من ذوي الشأن منهم، على أن الحالة الراهنة للمشكلة تنتهك قيمة مقبولة أو معياراً مقبولاً.

ويمكن القول إن بعض التعريفات الواردة في عدد من الكتب المقررة لطلبة الجامعات الأمريكية في السنتين الماضيتين، كانت أكثر شمولاً، حيث ذهب أحدها إلى أن المشكلة الاجتماعية حالة اجتماعية مؤذية للفرد وللرفاه الاجتماعي، وأنها حالة متأصلة في السلوك الاجتماعي، برهنت على أنها ذات نتائج ضارة. وهكذا، يؤكد هذا التعريف أن المشكلة ليست مؤذية للأفراد فحسب، ولكنها مؤذية للرفاه الاجتماعي مفسدة له. كما يؤكد التعريف أن المشكلات متأصلة في السلوك الاجتماعي؛ بمعنى أنها نابعة منه مما يجعلها ظاهرة سليمة لا تخلو منها المجتمعات.

كما تعرف المشكلات الاجتماعية بأنها الأوضاع والأحوال التي يهتم المجتمع بها، باعتبارها تهديدات للطرق المنتظمة أو لوجوده في حالة جيدة، والتي تحتاج لأن يواجهها المجتمع. وقد ذهب لورانس فرانك Lawrence Frank في مقالة له بعنوان "المشكلات الاجتماعية" نشرت في المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع إلى تعريف المشكلات الاجتماعية بأنها أية صعوبة أو سلوك سيء لعدد كبير من الأشخاص نرغب في إزالته أو تصحيحه. كما ذهب بول هورتون Paul Horten وجيرالد لزلي Gerald Leslie في مقالة لهما بعنوان "سوسيولوجية المشكلات الاجتماعية" إلى تعريف المشكلات الاجتماعية بأنها "الأحوال المؤثرة على عدد من الناس بطرق تعتبر غير مرغوبة والتي نشعر بإمكانية عمل شيء ما نحوها من خلال العمل الاجتماعي الجماعي".

والواقع أن لكل مجتمع مواقفه الخاصة به التي ينظر إليها في ضوء معاييره السائدة وكذلك في ضوء الفروق الخاصة بمدى تسامحه أو عدم تسامحه مع حالات الخروج على تلك المعايير. وذلك ما أكد عليه بوضوح مارشال كالينارد Marshal Clinard في مقالته بعنوان إسهامات علم الاجتماع في فهم السلوك المنحرف.

تحديد المشكلة الاجتماعية:

المشكلة الاجتماعية هي الحالة الاجتماعية التي تعكس انتهاكاً لقيم الأفراد أو تناقض أحكامهم عليها ما هم معتادون عليه، مما يجعلهم يحكمون عليها بأنها تشكل مشكلة لهم؛ بمعنى آخر هي شعور الأفراد أن إحدى قيمهم قد انتهكت من قبل البعض فخلقوا لهم مشكلة اجتماعية تحتاج إلى حل.

إذا أردنا تحليل هذا التحديد، يتبين لنا من أساسيات تحديد المشكلة أنها تكون واقعية وحادثة فعلاً في حياة الناس وليس من نسيج الخيال أو التصور (وهذا يعد شرطاً موضوعياً). ثم يتوجب شعور الناس بها أو إدراكهم لها (وهذا تحديد ذاتي)، ولكن دائماً يشعر الناس بالشرط أو الظرف الموضوعي وعند غياب هذا الشعور ينعدم اعتبار الحالة الإشكالية مشكلة. فمثلاً إذا عد الناس الفقر قدراً محتوماً عليهم لا مفر منه، فإن هذا الاعتبار يعني عدم الشعور بوجود مشكلة تعترض حياة الناس. فالفقر هنا لا يمكن عده مشكلة اجتماعية لهؤلاء الناس؛ ذلك أن التحديد الذاتي منعدم. وهذا يوضح أن أحد أطراف التعريف الأساسي للمشكلة الاجتماعية غير وارد لذا فإنه يكون مبتوراً ولا يعبر عن حالة وجود مشكلة اجتماعية. من ناحية أخرى، إذا كانت إحدى الشرائح الاجتماعية أو

إحدى الجماعات العرقية لا تحمل موقفاً متعصباً أو متحيزاً ضد جماعة عرقية معينة فإنها لا تشعر بالتعصب وبذا لا تكون لديها مشكلة عنصرية.

في ضوء ذلك، فإن التحديد الذاتي يستجيب للظرف الموضوعي في تعريف وجود مشكلة اجتماعية. لأنه يمثل المرواز (البارومتر) لتحديد ماهية الظروف الموضوعية، حيث يدفع الشاعرين بالظروف الموضوعية أو المدركين لها إلى أن يحكموا عليها على أنها سبب لحدوث المشكل لهم أم لا.

هاك مثالاً على ذلك فيما يخص تحديد الظروف الموضوعية من خلال إدراك الأفراد لها مشكلة تلوث الهواء في المدن جراء احتراق وقود العربات الذي يؤدي إلى اختناق أبناء الحضر وتلوث هواء مدينتهم. وإن أبناء الحواضر يشعرون بهذه الحالة ويدركونها جيداً، لكنهم على الرغم من ذلك يؤيدون زيادة إنتاج العربات كل عام. هذا المثال البسيط يوضح شعور الناس ومعرفتهم بالظروف الموضوعية (تلوث الهواء)، لكنهم يتغافلون عن موت بعض أبناء الحواضر بسبب تلوث البيئة، فيؤيدون زيادة إنتاج السيارات واستخدامها داخل المدن. فضلاً عن ذلك، فإن الحكومة الأمريكية – مثلاً- تعرف هذه الحقيقة جيداً لكنها تطالب مصانع العربات بوضع بعض الضمانات التكنولوجية لحماية سائق العربة (مثل استخدام نوع خاص من الوقود لا ينتج غازات سامة أو استخدام زيت خاص ...). لكنها لا تعالج مشكلات الناس التي تسببها العربة ولا تعالج المشكلات الاجتماعية الناجمة عن إنتاج العربة على الرغم من إدراكها ذلك. وبناءً على هذا التحليل، تبرز أمامنا ثلاثة محاور أساسية في تعريف المشكلات الاجتماعية هي: الظرف الموضوعي الذي يخلق التحديد الذاتي وهو بدوره يبلور

حكماً على الظرف الموضوعي معبراً عن وجود إشكالية للفرد. وهذا يجعلنا نقول أن هناك مشكلة اجتماعية. وفقدان أحد هذه المحاور يعني غياب المشكلة أو عدم وجودها في الواقع. فقد وجدنا الحكومة الأمريكية - على الرغم من إدراكها التلوث هواء المدينة- لم تحكم على الحالة التي سببتها قيادة العربة داخل شوارع المدينة بأنها مشكلة يجب معالجتها (غياب الحكم). ووجدنا غياب الشعور بأثر الظرف الموضوعي عند الفقراء حين عدّوا قدراً محتوماً، الأمر الذي لم يبلور عندهم حكماً على أن الفقر الذي يعيشونه يعد مشكلة على الرغم من وجود الظرف الموضوعي (الفقر) إلا أنه غير مدرك (بسبب المعتقد الغيبي أو عدم الوعي أو الظلم الذي يعيشون تحته) لذلك لم تعد هذه الحالة مشكلة اجتماعية.

هذا من جانب. ومن جانب آخر فإن تباين القاعدة الثقافية في استعدادها لقبول الشروط الموضوعية أو رفضها يؤثر على قبول الناس للظرف الموضوعي؛ إذ إن سيادة التقنية والتقدم العلمي في المجتمع تجعل قبول الناس للظروف الموضوعية يأخذ السياق بعين الاعتبار ويعمل على تبرير آثار المشكلات الاجتماعية، فضلاً عن ان استجابة الناس لإدراك الحالة الإشكالية تختلف من جماعة اجتماعية لأخرى حسب مصالحها الذاتية ومستواها الثقافي ومواقفها الاجتماعية التي لا تمثل حالة واحدة في استجابتها أو مستواها الإدراكي تجاه الظرف الموضوعي.

لا مناص من القول إن التحديد الذاتي لا يمكن استعماله كمعيار ناضج أو مكتمل ومعتمد عليه في كل الحالات لتحديد المشكلة الاجتماعية لأنه منفعل بالمصلحة والموقع والتحصيل التربوي فهو قد يشعر الفرد بالظرف الموضوعي لكنه لا يقره بسبب مصلحته الذاتية الظرفية أو بسبب موقعه التنظيمي الذي يحول دون

الإفصاح عن حقيقة الظرف الموضوعي أو بسبب معتقده الديني. وهكذا فإن التحديد الذاتي يعد معياراً زئبقياً تؤثر فيه العديد من العوامل والمتغيرات، ويكفي القول إنه ذاتي لتوضيح عدم ثبوته وغياب صدقه من حيث استجابته للظرف الموضوعي.

هاك مثالاً على ذلك الموظف الإداري الذي يستخدم الواسطة في تسهيل معاملات الناس. إنه يدرك أن هذا التصرف غير قانوني (شعور ذاتي) ويعرف أيضاً أن عوزه المالي وطموحه الموقعي- التنظيمي دفعاه إلى مثل هذا التصرف لأنه غير كفء أو لا يمتلك جميع مستلزمات الهدف الذي يرومه (ظرف موضوعي). لكنه لا يحكم على تصرفه بأنه مخالف للقانون وخارج عن المألوف الشرعي والطبيعي. وهذا يعني أن أحد أطراف المعادلة الخاصة بتحديد المشكلة الاجتماعية قد سقط؛ فهل يُعد هذا الفعل مشكلة اجتماعية يمكن وضعها تحت باب الفساد الإداري؛ لا سيما وان المنفعلين بظرفه لا يعدونه مشكلة اجتماعية بل يبررونه منطقياً وواقعياً لحماية مصلحتهم الذاتية وموقعهم الإداري.

هاك مثالاً آخر على ذلك الفرد الذي يسطو على أحد المنازل ويسرق أشياء نفيسة منه. هل يحكم هذا الفرد على نفسه بأنه مجرم؟ قد يشعر بأن سلوكه السطوي مخالف للقانون، وقد يكون سبب سطوه عوزه المالي، لكنه لا يحكم على سلوكه بأنه إجرامي، بل من المحتمل أن يندفع نحو عمليات أخرى مخالفة للقانون، فهل نعد هذا الفعل (تحت هذا التحديد للمشكلة الاجتماعية) يمثل مشكلة اجتماعية؟ هذا المثال ينسحب على المومس والقاتل والجانح والمدمن على المخدرات وغيرهم من ذوي السلوكيات المنحرفة. اقول اننا غير مقتنعين بنضج

هذا التحديد ورصانته لأنه قـد ينطبـق علـى الفقـراء والمتـسولين والعـاطلين عـن العمل، لكنه لا ينطبق على غيرها من الحالات الإشكالية. ولكـن في تقـديرنا يعـد هذا التحديد النظـري تحديـداً أوليـاً ظهـر في بدايـة الاهتمـام بدراسـة المـشكلات الاجتماعية في علم الاجتماع.

هناك تحديد ثانٍ للمشكلة الاجتماعية مشابه للتحديد السابق مفاده "النظـرة الموحدة لعدد كبير من الأفراد للظروف التي يعيشونها ويعدونها غير مرغوب فيهـا ويحكمون عليها بأنها مصدر مشكلاتهم الاجتماعية" (هـذا التحديـد طرحـه ديفيـد دريسلر). وعلى الرغم من غياب حكم الأفراد علـى الظـرف الموضـوعي في هـذا التحديد، يبرز سؤال مفاده: كم هو "عدد الأفراد" اللازم لكي يحددوا الظـروف غـير المرغوب فيها؟ هل يقصد بهم الأفراد الذين يحتلون مواقـع اعتباريـة عاليـة داخـل المجتمع؟ أم يتوجب تحديد نسبة مئوية في المجتمع تمثل الأغلبية لتقرر تلـك الظـروف غير المرغوب فيها؟ أم إنّ أصحاب القرار ورجال السلطة هم الذين يجلبـون انتبـاه عامة الناس للظروف غير المرغوب فيها؟

ويعين ذلك أن هذا التحديد يوضح فقط أنّ الظروف غـير المرغـوب فيهـا هي مصدر مشكلات الناس. لكن الواضح والثابـت في هـذا التحديـد هـو اتفـاق الأفراد حول الظروف غير المرغوب فيهـا واتفـاقهم علـى أن هـذه الظـروف هـي مصدر مشكلاتهم غير أن الهنة في هـذا التحديـد هـي: كـم عـدد الأفـراد، وكيـف حصل اتفاق في نظرتهم أو توحـدها تجـاه المـشكلة؟ فـضلاً عـن ذلـك، فـإن هـذا التحديـد أغفـل القـانون الرسمـي؛ اذ إن خـرق القـوانين الرسميـة يعـد مـشكلة اجتماعية لأن وجود القوانين في خدمة المجتمع وحمايته لا يحـصل اتفـاق عليـه مـن

قبل عدد من الناس بل هو موضوع من قبل الهيئة الحاكمة لحماية المجتمع من العناصر المؤذية له أو التي تحاول تخريبه من الداخل. فمثلاً، فإن بعض المشكلات المعاصرة في المجتمع العربي - وبالذات في المجتمعات المصري والسوداني والعراقي والأردني - مثل تجارة الشنطة التي تعني التجارة التي لا تخضع لضوابط القانون واللوائح التي تنظم حركة الاستيراد في تحايل وخروج عن القانون التجاري قد ازدهرت هذه التجارة في العقد التاسع من القرن العشرين لاستيراد شتى أنواع السلع بدءاً من الأحذية وانتهاء بقطع غيار السيارات، وهي تشكل في غالبيتها بضائع محظورة. وتاجر الشنطة هو المسافر لعدة سفريات تصل إلى عشرين مرة سنوياً في المتوسط ويستورد عدة أصناف من البضائع حسب حاجة السوق. وينتمي تجار الشنطة إلى عدة فئات مثل الطلاب الذين يدرسون في الدول العربية وتركيا وإنجلترا وغيرها، فضلاً عن الكثير من المواطنين الذين نزحوا من مناطق الإنتاج بعد الكوارث والجفاف والتصحر (في السودان) والحرب بين العراق وإيران والحصار الاقتصادي على العراق. وهذه الظاهرة قديمة ترجع إلى سنوات خلت عندما عجزت الدولة عن تمويل استيراد السلع الضرورية وما صاحب ذلك من اختلال في ميزانها التجاري، وتتركز تجارة الشنطة في المحطات والموانئ في أغلب الأحيان.

وهناك تعريف آخر حول المشكلة الاجتماعية يصفها بأنها حالة تعبر عن عدم استقرار (أو اضطراب) في نمط العلاقات الاجتماعية يهدد وجود إحدى قيم المجتمع أو إحدى مؤسساته لجعلها غير ملائمة داخل مجتمعها، الأمر الذي يدفع الأفراد إلى المطالبة بإعادة استقرار النمط المهدد أو ردع مسببات الاضطراب. هذا التعريف يوضح شعور الأفراد بتهديد أحد الضوابط الاجتماعية (قيمة أو مؤسسة)

التي يعيشون معها بحيث يطالبون بإعادة نمط علاقاتهم إلى حالته السوية الطبيعية لا سيما وان تغير تلك العلاقات يعني وضعها في حالة غير مرغوب فيها لعدم خدمتها لوجودهم أو لمصالحهم الاجتماعية، وهذا يسبب لهم مشكلة اجتماعية أو سلسلة مشكلات متتابعة.

نستنتج من هذا التعريف أن الأفراد يميلون للتشبث والتمسك بما يضبط حياتهم الاجتماعية لكي لا تضطرب أو تختلّ؛ بمعنى أنهم يميلون للاستمرار في ثوابت حياتهم (قيم أو مؤسسات) على الرغم من ميلهم نحو تغيير بعض أنماط حياتهم على نحوٍ لا يسبب لهم الاضطرابات الاجتماعية أو يخلق لهم مشكلات تتطلب المعالجة.

من هنا يأتي الدور المهم والريادي للباحث الاجتماعي في رصده للمشكلات الاجتماعية ودراستها وتحليلها وطرح آثارها على المجتمع. والجدير بالذكر أن الباحث الاجتماعي الذي لا يستطيع القيام بذلك لا يمكن عده باحثاً اجتماعياً حتى لو امتلك ناصية العلم وآليات البحث الاجتماعي، لأن المتطلب الجوهري لكل باحث هو امتلاك الحس والملاحظة الثاقبة والطليعية بشأن المشكلات الاجتماعية التي يعيشها مجتمعه وهي في بدايتها قبل أن تتحول إلى مشكلة اجتماعية ظاهرة أو علنية يطلب العامة معالجتها أو قبل تحولها إلى معضلة أو إلى ظاهرة اجتماعية منتشرة.

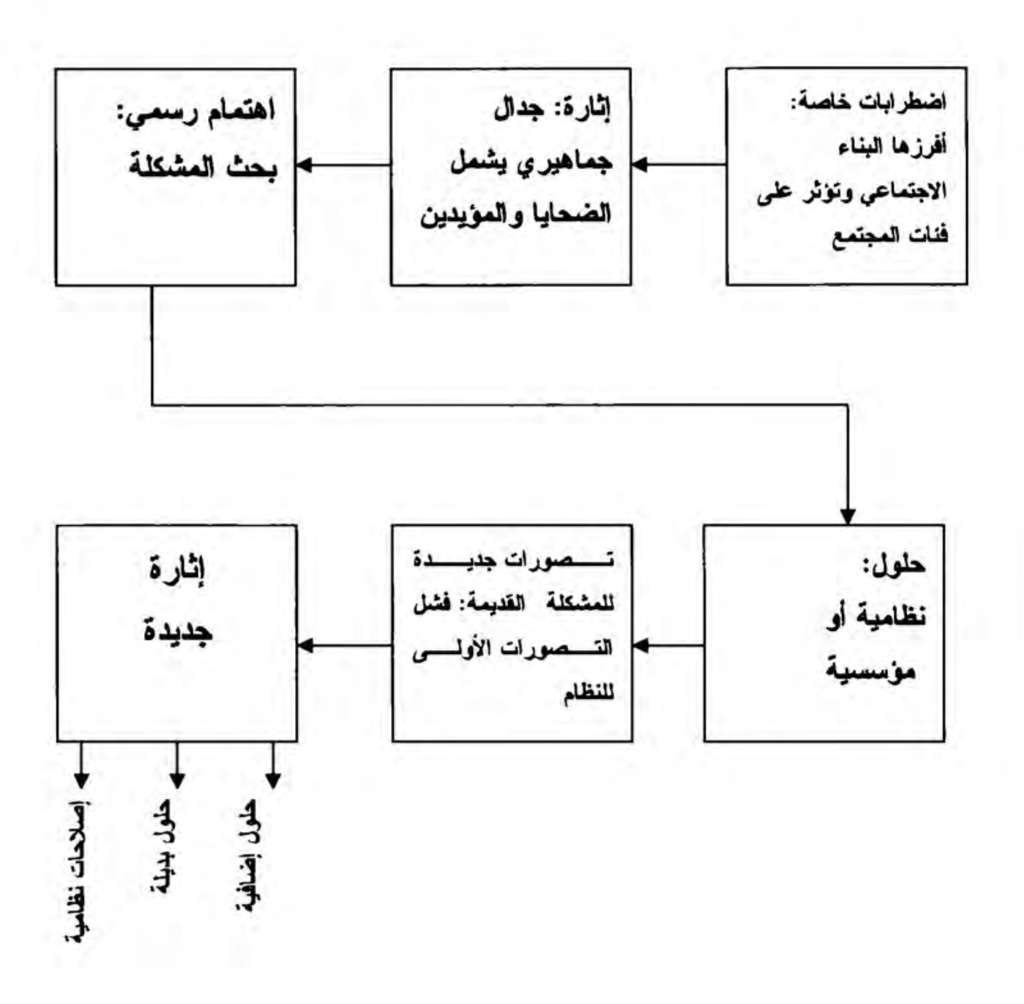
إن التعريفات السابقة قد أغنت الصورة الكلية لمفهوم المشكلة الاجتماعية، لما تضمنته من عناصر وأبعاد توضح هذا المفهوم وتسبر غوره وتحلل دلالاته. إلا أننا نشعر، مع ذلك، بأن بالإمكان قبول تعريف آخر موجز للمشكلة الاجتماعية

يصفها بأنها أية حالة اجتماعية تعتبرها نسبة كبيرة من المجتمع أو قطاعات مهمة فيه غير مرغوب فيها، وتعتبر أنها بحاجة إلى اهتمام ومعالجة، لخطورتها على الأفراد والجماهير والمجتمع. فهذا التعريف يتضمن عدة عناصر.

وينبغي النظر إلى المشكلات الاجتماعية على أنها قابلة للحل من خلال الفعل الجمعي.

وهناك من يرون إن الحالة الاجتماعية التي يعتقد أنها غير قابلة للحل لا تعتبر مشكلة اجتماعية. أن كل المجتمعات تمر بحالات أو أوضاع اجتماعية يدرك الناس أنها غير مرغوبة، مثل الحرب، والبطالة، والمجاعات ... إلخ. ولكن هذه الحالات لا تعتبر مشكلات اجتماعية إلا عندما يعتقد الناس أن لديهم القدرة على القيام بعمل ما حيالها. وإذا عرفت الحالات بأنها جزء من النظام الطبيعي أو من عمل الله أو نتيجة حتمية للطبيعة الوحشية للإنسان، فعندئذ لا تعتبر مشكلات اجتماعية ولا يقوم الناس بأي عمل جماعي لتغييرها.

ومن أجل توضيح المسيرة التي تمر بها المشكلات الاجتماعية يمكن التمثيل بالرسم التالي.


اضطرابات خاصة:
أفرزها البناء
الاجتماعي وتؤثر على
فئات المجتمع
إثارة: جدال
جماهيري يشمل
الضحايا والمؤيدين
اهتمام رسمي:
بحث المشكلة
حلول:
نظامية أو
مؤسسية
تـــصورات جديـــدة
للمشكلة القديمة: فشل
التـــصورات الأولـــى
للنظام
إثارة
جديدة
حلول إضافية
حلول بديلة
إصلاحات نظامية

محكات المشكلات الاجتماعية

أشرنا في الصفحات السالفة إلى تعابير الناس وأحكامهم على فعل من الأفعال بأنه مزعج أو بغيض أو شنيع للدلالة على عدم ارتياحهم له ويسبب إزعاجاً وإشكالية لهم. والآن نطرح بعض المحكات الاجتماعية التي تحدد معالم المشكلة الاجتماعية بعيداً عن كلام الناس وأحكامهم الذاتية، وهي: الدين، والقانون، والصحافة، والآداب الفنية.

1- الدين

يحدد الدين مثلاً المحرمات والمسموحات في السلوك والعلاقات الاجتماعية والجنسية؛ أي يوضح ما هو محلل وما هو محرم. وبذلك فإن الدين يمثل المصفاة التي تصفى فيها الأفعال المسموحة والممنوعة، وكل فرد يخترق الممنوعات تتسبب له مشكلة اجتماعية أمام مجتمعه ودينه، هذا فضلاً عن دعم الدين للشعور الجمعي لأنه هو (الدين) الذي يقرر ما هو خير وما هو شر، ما هو رباني وما هو غير رباني، ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، ما يمثل الخطيئة وما يمثل الإحسان، وما تقره السماء وما لا تقره.

لذلك، إذا حاول الفرد القيام بأعمال محرمة في الدين فإنه يخلق لنفسه مشكلة اجتماعية لأنه خالف تعاليم دينه. وهذا يعني أن التعاليم الدينية تقدم للفرد ما يمكنه من التمييز بين ما هو مشكلة وخلافها، بمعنى أنه يتم تحديد المشكلة من خلال معايير وأقيسة دينية، فما يعد منحرفاً حسب المعايير الدينية يعني خروج الفرد عن تلك المعايير أو اختراقها وحدوث مشكلة حددت من قبل المعايير الدينية

واعتبرت خطيئة أو عملاً ضد قدسية المعيار لأن الله لا يرضاها ولا تقرها حكمة السماء، الأمر الذي يعني أن عقابه نار جهنم والعذاب في الآخرة.

2- القانون

غالباً ما يستمد القانون بعضاً من بنوده من الدين السائد في المجتمع؛ إذ يعمل على منع وقوع الخروقات القانونية أكثر من كونه قانوناً عقابياً. وهو يمنع الناس من الانحراف أو الوقوع في تجاوزات وجرائم يعاقب عليها القانون؛ بمعنى أنه يعزز النظام الأخلاقي والأدبي في المجتمع.

3- الصحف

تكشف الصحف اليومية والأسبوعية العديد من المشكلات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع سواء كان ذلك على شكل رسوم كاريكاتيرية أو عرض وتحليل أحداث اجتماعية تكشف الفساد الأخلاقي أو تلفت أنظار الناس إلى حالات الفقراء والعاطلين عن العمل والذين يعيشون في مناطق موبوءة بالجريمة والأحياء السكنية الفقيرة والبغاء وجنوح الأحداث والانحرافات السلوكية لإبراز معاناة الناس وهمومهم وشجونهم والمطالبة بمعالجتها وإيقاع العقوبات على المسببين لها. إنه محك إعلامي لا عقابي، هدفه توجيه أنظار الناس نحو المشكلات الاجتماعية في المجتمع.

4- الأدب الفني

يتمثل في الرسوم والمسرحيات الدرامية والشعر والنثر للتعبير مثلاً عن الظلم وغياب العدالة الاجتماعية وفقدان المساواة بين فئات الناس. ففي القرن

الثامن عشر مثلاً كان يعبر عن معاناة الطبقة الفقيرة التي أفرزتها الثورة الصناعية من خلال كتابات مثل كتابات إميل زولا وتشارلز ديكنز والسيدة جاسكل وتشارلز كناكزلي لإطلاع القراء على ما يقع من مشكلات اجتماعية عند الفقراء. ثم جاء فيما بعد هينرك إبسن وويلز وصموئيل تبلر وجورج برنارشو وجو جالوتي لجلب الانتباه حول المشكلات الأخلاقية والتقرحات الاجتماعية في أوروبا.

وهنا لعب الأدب الاجتماعي والقصصي والمسرحيات الاجتماعية دوراً فاعلاً في هذا المجال من أجل لفت أنظار الناس إلى التقرحات الاجتماعية المنتشرة في أحشاء المجتمع لتوضيح المعاناة الإنسانية عند البغايا وأسر المجرمين والفقراء والعاطلين عن العمل والمنحرفين والمدمنين على المسكرات والمختلين عقلياً والذين يعانون من التمييز العرقي وسواهم من أصحاب المشكلات، بالإضافة إلى كشف الجوانب التعيسة من حياة البؤساء والمحرومين والأشقياء المقتلعين اجتماعياً. وحتى الغناء والموسيقى اتجها بهذا الاتجاه (التعبير عن البؤس والحرمان أكثر من التعبير عن الجانب العاطفي والرومانسي). وهذا ما اتجهت إليه فرقة البيتلز الغنائية في بريطانيا لتوجيه أحاسيس الناس إلى الجانب الإنساني المزري. هذا المحك لا يهدف إلى التماثل مع النسق الأخلاقي أو قوانين المجتمع مثل المحك الديني والمحك القانوني بل إلى جلب انتباه الناس للمعاناة التي يعيشها أبناء المشكلات المتقرحة في الجسم الاجتماعي. ويعني ذلك أنه جانب إنساني أكثر من كونه جانباً عقابياً أو علاجياً. إنه محك ساهم ويساهم في توعية الناس بآلام وشقاء المحرومين والبؤساء والفقراء

والمنحرفين . مثل هذا المحك نجده في بعض القصص والمسلسلات العربية التي تعرض على شاشة التلفاز.

الإطار المرجعي للمشكلات الاجتماعية

يمثل التغير الاجتماعي إطاراً مرجعياً لمعظم المشكلات التي تحدث داخل المجتمع، لأنه سنة الحياة؛ فهو لا يتوقف أو ينقطع. والتحولات والتطورات التي تحدث في سياق التغير الاجتماعي تحدث تدريجياً لدرجة لا يستطيع معها المرء أن يلاحظ ما يحصل فيه من تحولات ونقلات. وهناك تغير يحصل في بعض الأحيان بشكل مبرمج ومخطط له سلفاً، ولكن في أغلب الأحيان يقع – التغير – ويأخذ مساره واتجاهه دون تخطيط مسبق. وعندما يتغير فعل الإنسان فإنه يكون مختلفاً في شكله عما كان عليه في المرحلة السابقة. وحتى إذا تعارض الفعل الفردي – لا شعورياً – مع أهداف التغير، فإن الأخير لا يقف بل يستمر دون تلكؤ.

ثمة حقيقة تستدعي التركيز عليها، وهي أنه ليس أقسام المجتمع كافة تتغير بنفس السرعة والدرجة والنوع وبنفس الاتجاه. فالقسم المادي من الثقافة الاجتماعية يتغير أسرع من القسم المعنوي. وهذا ما يسميه وليم أوكبرن التخلف الثقافي، لأن التطور التقني يتطلب من الجانب المعنوي أن يقوم ببعض التحويرات والتكيفات لكي تتساوق مع التطور المادي. وهذا التفاوت يخلق مشكلات عديدة قبل أن تحدث التكيفات الاجتماعية، ويشير أيضاً إلى أن الإطار المرجعي لمعظم المشكلات الاجتماعية هو التغير الاجتماعي.

لا مندوحة من الإشارة إلى أن الثقافة نسبية وليست مطلقة؛ إذ لكل ثقافة سماتها الخاصة بها التي لا معنى لها بذاتها أو بوضعها المستقل، وإنما تتضمن معناها الكامل فقط في حيزها الثقافي. فالشيء الجيد لا تعرف جودته إلا في حيزه الثقافي، والشيء السيئ لا يعرف جوهره إلا في حيزه الثقافي.

ويعني ذلك أن الجيد يكون جيداً إذا كان منسجماً مع جوانب الثقافة ويقوم بوظائفها بشكل منسجم والشيء السيئ يكون سيئاً عندما يصطدم مع جوانب الثقافة. فمثلاً، فإن تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي أمر مقبول دينياً واجتماعياً لكنه ليس هكذا في المجتمع الغربي وهذه هي النسبية الثقافية.

ندلف الآن إلى مدار التغير الاجتماعي في المجتمع العربي؛ إذ يواجه مجتمعنا العربي تحولات اقتصادية وسياسية، الأمر الذي يتطلب من الشرائح الاجتماعية أن تبدل مواقفها ومعاييرها تجاه هذه التحولات. إلا أن بعض الشرائح الاجتماعية واجه هذه التحولات باليأس وبعضها الآخر بالارتباك والحيرة والتمرد وبعضها الآخر بالهروب من مواجهتها.

فالفئة اليائسة شعرت بأن معاييرها قد تصدعت واهتز وجودها، فخافت على مستقبلها وشكت في قدرتها على مسايرة ومتابعة التحولات فأصابها اليأس والقنوط وتملكتها الرؤية المتشائمة للأمور والأحداث.

أما الفئة المرتبكة فقد أصابتها الحيرة والارتباك لأنها فوجئت بالتحولات السريعة في القوى الاقتصادية والسياسية، الأمر الذي جعل مواقفها مهتزة وغير واضحة ومترددة فباتت غير قادرة على اتخاذ القرار والموقف الواضح تجاهها.

وهذه الفئة لا تعلم هل تقدم على التراجع أم على تبنّي التحولات المتسارعة فبقيت مستقرة وراكدة في مواضعها لا تعرف ماذا تصنع.

وأما الفئة الثالثة فهي تلك المتمردة التي ترفض مسايرة التحولات ومواكبتها لعدم إيمانها بها أو لأنها ضد مصالحها الذاتية أو تسبب لها خسارة مادية أو معنوية أو الاثنتين معاً، فوقفت موقف السلبي والناقد لها.

وأخيراً هناك الفئة الهاربة من هذه التحولات. وهي التي ذهبت إلى مجتمعات أخرى غير عربية (الهجرة الطوعية) لتعيش فيها بعيداً عمّا حصل من تحولات في المجتمع، وذلك لعدم قدرتها على مشاهدة ما طرأ على مجتمعها وما أصابه من آثار تحولية. وهي غير راغبة في أن تتحول مع ما تحول آملة أن تجد الأمن والاستقرار وما هو أفضل في مجتمعات أخرى غير مجتمعها. هذه جملة مشكلات اجتماعية أفرزها التغير الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع العربي المعاصر.

الباب الثاني
المشكلات النفسية الاجتماعية

إساءة
الطفل



الإدمان



الاكتئاب

تلوث البيئة

المشكلات النفسية الاجتماعية
رؤية تفسيرية





العنف
والعدوان

الانتحار



الفقر





تعريف المشكلة النفسية الاجتماعية

ليس من السهولة بمكان تقديم تعريف محدد وشامل للمشكلة النفسية الاجتماعية، وذلك لعدة أسباب تتلخص في أنّ :

1- وجود مشكلة في مكان ما لا يعني أن هذه المشكلة عامة في جميع الأماكن.

2- مواجهة شخص لمشكلة ما تختلف عن مواجهة شخص آخر لها، بل ربما تختلف مواجهة الشخص نفسه من مشكلة إلى أخرى.

3- كلمة مشكلة إنما تثير عدة قضايا؛ فهل هي مشكلة طارئة أم مزمنة؟ وهل تظهر في فترة زمنية معينة ولأسباب خاصة؟

4- المشكلة حين تطفو على السطح، لا تظهر من تلقاء ذاتها، بل لا بد من تفاعل مجموعة من العوامل التي تشابكت وتعقدت حتى أفرزت تلك المشكلة، ومن ثم فإن التشخيص الدقيق لهذه العوامل هام جداً.

5- الحلول – بالنتيجة – لا تكون جزئية بل لا بد من أن تكون شاملة؛ فالجنوح مثلاً يكون نتيجة لتشابك العديد من العوامل، والتركيز على سبب ما لا يكون حلاً للمشكلة، وهكذا في باقي المشكلات.

والآن ما هي المشكلة؟ المشكلة تنشأ حين يعجز الكائن العضوي عن الوصول إلى هدفه بطريقة مباشرة. والمشكلة هي العائق الموجود في موقف ما، ويحول هذا العائق بين الفرد والوصول إلى هدفه. هذا على المستوى الفردي. كما يقدمه علم

النفس من خلال طرح قضية علاقة المشكلات بالتفكير. فهل ينطبق ما ينطبق على المستوى الفردي على المشكلات التي تواجه المجتمعات ككل، أم يجب أن تكون الاستراتيجيات مختلفة ومتباينة؟

وهذا يقودنا مباشرة إلى الدخول في إثارة تساؤل آخر؟ ما هي المؤشرات الدالة على وجود مشكلة على المستوى الفردي؟

استطاع علماء النفس أن يحددوا عدداً من المؤشرات التي من خلالها نستدل على أن الشخص يواجه مشكلة ما، وهي:

أولاً: شعور الشخص بأن هناك فجوة في معلوماته.

ثانياً: الهدف المراد تحقيقه تقف دونه صعاب وعقبات تستلزم من المرء مواصلة البحث لحل المشكلة.

ثالثاً: يتمثل الهدف الأساسي في وضع فروض تعد حلاً مؤقتاً، وتجريب استراتيجيات أو خطط لبلوغ الهدف والتوصل إلى الحل.

رابعاً: انتقال أثر التدريب من حل مشكلة ما على حل مشكلة أخرى.

خامساً: المشكلات التي تحتاج إلى تفكير لحلها تتراوح بين البساطة والتعقيد، ومن ثم فإن (التفكير) هو الآخر يتراوح بين البساطة والتعقيد.

سادساً: هناك فروق بين مشكلات تم تحديدها بدقة ومشكلات أخرى لم يتم التوصل فيها إلى مثل هذا التحديد، وكلما كانت المشكلة أكثر تحديداً كان ذلك أفضل (عبد الحليم محمود السيد وآخرون، 1990: 403 – 407).

نخلص مما سبق إلى تقديم التعريف التالي للمشكلات النفسية الاجتماعية:

إن علم المشكلات النفسية الاجتماعية ميدان بحث متميز بطبيعة خاصة لأنه يقوم على فهم دينامي للفرد وفهم دينامي للمجتمع، ثم على فهم لعلاقة دينامية الفرد بدينامية المجتمع، ومن ثم فإن هذا العلم يحتاج إلى نظرية خاصة به، ومنهج خاص به، وباحث تتوافر فيه مجموعة من الشروط (لأنه يتناول ظواهر معقدة ومتشابكة بل ومتغيرة من مرحلة زمنية إلى مرحلة زمنية أخرى)، وشروط خاصة يجب أن تتوافر حتى نستطيع تحديد المشكلات من غيرها، ومن هذه الشروط:

1- أن يقع في المشكلة أكبر عدد ممكن من الأفراد (وفقاً للمعيار الإحصائي الذي يقوم على الأغلبية).

2- أن تكون المشكلة نتيجة لتداخل وتشابك مجموعة من العوامل والمتغيرات سواء الاجتماعية والاقتصادية والنفسية وحتى الدينية... وغيرها من العوامل.

3- أن تكون للمشكلة أسباب وبقايا ونتائج على المستوى الفردي (حيث تتفاعل الأسباب داخل الشخص) وعلى المستوى الجمعي أو المجتمعي (حيث تكون لها أسبابها خارج نطاق الشخص وفي المجتمع).

4- أن تقتضي الحلول التي تقدم لهذه المشكلة الكثير من الجهد.

مشكلة الإساءة للأطفال

Child Abuse

يمكن القول إن الذين يسيئون التصرف تجاه أطفالهم إنما يعانون من اضطرابات صحية وسلوكية؛ إذ لا بد من وجود رابطة وجدانية – انفعالية آمنة بين الطفل ووالديه، وإن الافتقار إلى تلك الرابطة يقود إلى العديد من الاضطرابات النفسية الوخيمة. وقد أدى التركيز على مفهوم اضطراب دور الآباء والأمهات الذين يشتدون في القسوة على أطفالهم ويوقعون بهم الأذى، وكذلك على أهمية فحص نوعية رابطة التعلم الوجداني بين الطفل والقائم برعايته، إلى محاولة على الخصائص النفسية الاجتماعية المميزة لمثل هؤلاء الأطفال، مع الإشارة إلى أن تعرض الطفل للإساءة من قبل ذويه لا بد أن يترتب عليه حدوث أضرار نفسية بالغة (سلامة، 1993، 49 – 51).

تعريف الإساءة للأطفال

تعد قضية الاختلاف على تعريف محدد لمعنى الإساءة للأطفال من القضايا الخلافية الحادة، وذلك لعدة أسباب:

1- حداثة الاهتمام بهذه المشكلة.

2- تنوع المداخل التي تهتم بهذه المشكلة (المدخل الطبي، المدخل القانوني، المدخل النفسي، المدخل الاجتماعي).

3- اختلاف مناهج وطرق البحث العلمي.

4- ضرورة وضع استراتيجيات تهدف إلى الوقاية والعلاج.

والجدير بالذكر أنه ينبغي تقديم تعريف محدد لمعنى الإساءة للأطفال. وهنا لا نملك سوى أن نقدم بعض التعريفات.

- الطفل المشار إليه هو كل فرد تحت سن الثامنة عشرة ويتعرض للجروح الجسمية أو العقلية أو الاعتداء الجسمي أو الإهمال أو إساءة المعاملة من الشخص المسؤول عن رعايته، مما يؤدي إلى الإضرار بالطفل أو تهديد صحته وسعادته.

- الإساءة هي أي فعل، من جهة الآباء أو الأمهات أو شخص ما أو مؤسسة ما أو من المجتمع ككل، من شأنه أن يؤدي إلى حرمان الطفل من المساواة في الحقوق والحرية أو يقود إلى عرقلة قدرات الطفل وإبعادها عن تحقيق أفضل تطور ونمو ممكنين لإمكاناته بالقهر أو بالقوة.

- إن الإساءة للأطفال يختلف معناها من حضارة إلى أخرى، ومن ثقافة فرعية داخل المجتمع الواحد إلى ثقافة فرعية أخرى في المجتمع، ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى، ومن الذكور إلى الإناث، بل ومن مهنة إلى أخرى.

- بعد أن تنتهي موسوعة الإساءة للأطفال، من تقديم ما سبق من تعريفات واجتهادات في هذا الأمر، تقدم هذه المحاولة للتعريف أخذة في اعتبارها العديد من الجهات التي تتعامل مع الطفل المساء إليه.

أ- **الاتجاه القانوني**: يستند إلى قانون العقوبات وحماية الأطفال بقوة القانون. وتسمح وجهة النظر هذه بالتدخل في حياة أسرة ما إذا توافرت أدلة واضحة تؤيد خروج حياة أفراد هذه الأسرة القائمين على رعاية الطفل عن المعتاد، وهنا يتدخل القانون ليجبر الأسرة على اتباع أساليب معينة.

ب- **الاتجاه الطبي**: ينظر إلى الجناة على أنهم منحرفون ومرضى ويحتاجون إلى العلاج. ولن يتوفر الاتجاه الطبي إلا من خلال ما يلي:

1- تحديد الإصابات الجسمية.

2- التأكد من هذه الإصابات طبياً بأكثر من وسيلة منها الفحص والتصوير الإشعاعي... إلخ.

3- مع فحص التاريخ نجد أن هذه الإصابات قد تكررت وأن لها تاريخاً سابقاً مما يؤكد نزعة العنف من الآباء تجاه الأبناء.

ج- **الاتجاه النفسي والاجتماعي الذي يرى الآتي:**

1- لجوء الآباء إلى العقاب ليس بصورة عفوية وإنما مقصودة ومتكررة إنما يعكس خللاً في بنائهم النفسي.

2- هؤلاء الآباء في حاجة إلى العلاج النفسي الاجتماعي، والاقتصار في التعامل على الأطفال المساء إليهم دون علاج السبب الحقيقي (أي الوالدين) يعد تصنيعياً للوقت.

3- وجوب تقديم رعاية وعلاج نفسي للضحايا من الأطفال وإزالة الآثار النفسية السلبية التي ترسبت في نفوسهم جراء هذه الإساءة.

4- التركيز على أساليب الإساءة المتنوعة التي تمارس ضد الطفل، وخاصة: الخبرات السيئة – المعايرة بالألفاظ والكلمات – السب بألفاظ نابية – التحقير من شأن الطفل – مقارنته بأطفال آخرين حتى يستنتج الطفل أنه فاشل ومنحط – الإهمال وعدم تلبية رغباته المشروعة – إحساس الطفل دائماً بأنه منبوذ وغير مرغوب فيه– قهره على أداء سلوكيات معينة تترك آثاراً نفسية وربما جسدية سيئة لدى الأطفال (Clark, 1989)

- ويعرف صالح حزين (1993) الإساءة للأطفال في دراسته بأنها:

سلوك التدخل أو عدم التدخل من الآباء أو القائمين على رعاية الأطفال مما يؤدي إلى حدوث الإصابة أو جروح جسمية أو يترك آثاراً نفسية سيئة على الأطفال تعيق نموهم النفسي وتؤثر في شخصيتهم تأثيراً سالباً. ونحن نتفق مع هذا التعريف.

أنواع الإساءة للأطفال

لعل من أسباب عدم الاتفاق على تعريف محدد متفق عليه بين المهتمين بدراسة ظاهرة الإساءة إلى الأطفال لتلك الظاهرة المنافسات المتعددة بين الباحثين بهدف تحديد طبيعة الإساءة، وهل هي مادية فقط (يمكن رؤيتها والاستدلال عليها) أم يمكن أن تكون نفسية (داخلية وليس من السهولة الإفصاح عنها)؟ وهل الإساءة مقصودة أم تتم بالمصادفة وبعدم القصدية؟

أولاً: العقاب البدني والإساءة والإصابات الجسمية:

شرع العقاب وسيلة للضبط الاجتماعي، وما دام الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نستنتج أن كافة الأطفال بلا استثناء معرضون للإساءة. وفي العديد من الدراسات التي أجريت في الغرب اختلفت آراء الآباء والأمهات حول استخدام العقاب البدني وسيلة للضبط. وتتراوح الآراء بين المؤيد للضرب من آن لآخر وبين المحبذ لضرورة استمرار استخدام الضرب كطقس يومي – نظامي. كذلك تنوعت الآراء فيما يتعلق بأداة الضرب ابتداءً بفرشاة الشعر والحزام وانتهاء بأدوات أخرى أكثر عنفاً وإيذاءً.

كذلك اختلفت الآراء فيما يتعلق باستراتيجيات العقاب والضبط والهدف منه؛ هل هو لتهذيب الطفل وإخضاعه للنظام؟ أم لتأكيد السلطة؟ أم لتفريغ طاقات العنف العدوانية المحبوسة في صدور مما يجعلهم يقومون بعملية نقل لهذه المكبوتات (مطبقين المثل الشعبي الشهير: لم يقدر على الحمار فعضّ البردعة)؟

وهل الآباء يقومون بشرح الأخطاء التي وقع فيها الطفل عند عقابه أم يتم العقـاب بدون شرح (سلامة، 1993: 56 – 59).

وعموماً، فإن العلماء اتفقوا على ضرورة اتباع الآتي فيما يتعلق بالعقاب:

1- ضرورة أن لا يتم العقاب.

2- إذا تم، فيجب أن يتم في أضيق نطاق.

3- ضمن هذا النطاق المحدود لا بد من توافر مجموعة من الشروط مثل:

أ- أن يعرف الطفل لماذا يعاقب.

ب- إذا تقرر العقاب فلا يجب تأجيله.

ج- أن يكون العقاب مناسباً للسلوك الذي قام به الطفل.

د- أن يكون الهدف من العقاب الإصلاح وليس الإهانة أو الانتقام.

هـ- إذا تكرر السلوك الخاطئ يتكرر العقاب نفسه (حتى نثبت في عقلية الطفل أن هذا سلوك خاطئ ويجب تجنبه، لأن عقابه في مرة – على سلوك ما – وعدم عقابه مرة ثانية على السلوك نفسه يخلق حالة من عدم الاستقرار ويؤدي بالتالي إلى تدهور في منظومة القيم).

ثانياً: الآثار النفسية: ليس بالضرب وحده وبالإصابات الجسمية وحدها تتم الإساءة للطفل. العديد من الأفعال والكلمات والإشارات بل والنظرات العدوانية التي تصيب الطفل نفسياً، بل يمكن أن تصيبه في مقتل.

ومن الأمثلة على ذلك:

أ- حرمان الطفل من الطعام لفترة طويلة.

ب- حرمان الطفل من مصروف اليد لفترة طويلة.

ج- طرد الطفل من المنزل عقاباً له.

د- حرمان الطفل من الرعاية الطبية الضرورية.

هـ- حرمان الطفل من الانتظام أو الالتحاق بالتعليم.

و- حرمان الطفل من الألعاب والخروج والتنزه.

ز- إعطاء الطفل عقاقير منومة للتخلص من مطالبه، دون حاجة الطفل- النفسية والجسمية – إلى هذه العقاقير.

ح- استغلال الأطفال استغلالاً سيئاً، والأمثلة كثيرة على ذلك.

ط- الاعتداءات الجنسية من الكبار على الأطفال.

ي- التحقير من شأن الطفل واتهامه بالتخلف والفشل.

ك- سب الطفل بألفاظ نابية أمام أقرانه وأمام آخرين.

ل- مقارنة الطفل مع أطفال آخرين قد تفوقوا، بهدف تثبيت فكرة احتقار الذات في نفسية الطفل.

م- السخرية المستمرة من الطفل ونقده بل والمبالغة في ذلك.

ن- إطلاق اسم غير مرغوب فيه على الطفل ومناداته به لتأكيد الاحتقار له.

س- عدم إتاحة الفرصة للطفل للتعبير عن آرائه؛ أي كبت حريته وجعله أقرب إلى الآلة التي بلا إحساس أو حياة.

الإساءة الانفعالية Emotional Abuse

يشار إلى الإساءة الانفعالية باعتبارها إساءة نفسية (Hart et al., 1996). وقد عرفت باعتبارها "استخدام تهديدات لفظية متزايدة، وسخرية، وتعليقات مهينة شخصياً، وعبارات ازدرائية، وتهديدات.. إلى حد أن الرفاهية الانفعالية والعقلية قد تتعرض للخطر" (Walker et al., 1998: 8). كما بين أوتس (Oatcs, 1996) أن الإساءة الانفعالية تميل إلى أن تعرف من خلال العواقب التي تحدث للطفل أكثر من أن تعرف من خلال سلوك المرتكب. وهذا الشكل من الإساءة هو الأكثر صعوبة للإثبات من منظور قانوني وأقل احتمالاً لأن يثير اهتمام وكالات حماية الطفل التي تركز بشكل أكبر على الإساءة البدنية والجنسية.

مشكلة العنف

Violence

مقدمة

ليس من السهولة بمكان تحديد الوقت الذي نشأ فيه العنف، وذلك أن هذه الظاهرة قديمة قدم الإنسانية، ولذا فهي ظاهرة تشمل كافة المجتمعات بأسرها. ولم يعد العنف مقصوراً على الأفراد، وإنما اتسع نطاقه ليشمل المجتمعات، بل ويصدر أحياناً من الدول والجماعات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى دافع العدوان، ثم اللجوء إلى العنف، وذلك في قصة قابيل وهابيل، والتي تعد أول جريمة عنف تقع بسبب الغيرة والحسد والحقد، ومن يومها فإن تيار العنف قد استشرى وتعددت صوره وملامحه.

تعريف العنف Violence

- يعرف العنف في لسان العرب بأنه الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وأعنف الشيء؛ أخذه بشدة، والتعنيف هو التعبير والتقريع واللوم.
- العنف هو استخدام الضغط والقوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون، والعنف يعني التأثير على إرادة فرد ما.

- العنف هو فعل إيذاء معنوي – مادي – لساني، يدوي ويمارس فردياً أو جماعياً ومنتظماً في كل حال فالفعل العنيف بشقيه النفسي والاجتماعي وبهدفه المعنوي (النيل من شخصية الآخرين مثلاً) والمادي. (النيل من وجود الآخر) يضعنا في مواجهة فاعل بقصد العنف.

- ويشير مصطفى حجازي (1993)، إلى عدة معانٍ لمفهوم العنف يحددها في:

1- العنف هو الوسيلة الأخيرة في يد الإنسان للإفلات من مأزق ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق.

2- العنف هو السلاح الأخير في الإنسان لإعادة شيء من الاعتبار المفقود للذات، ومن خلال التصدي المباشر أو غير المباشر للعوامل التي تعد المسؤولة عن ذلك التبخيس الوجودي الذي حل به.

3- العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، وحين ترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم بالاعتراف بكفاءته وقيمته.

4- العنف هو الوسيلة الأكثر شيوعاً لتجنب العدوانية التي تدين الذات الفاشلة بشدة من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج بشكل مستمر أو دوري، وكلما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي.

5- العنف قد يكون عشوائياً مدمراً يذهب في كل اتجاه أو يكون بناء يوظف في انحراف تغيير الواقع، ولكنه موجود أبداً، ولو اتخذ ألف وجه ولون

واتجاه، ما دام هناك مأزق وجودي يمس القيمة الذاتية ويولد التوتر الداخلي، وبدت إمكانات الخلاص محدودة وآفاقه مسدودة.

6- العنف هو الاستجابة التي تعقب الإحباط، ويراد بها إلحاق الأذى بفرد آخر، أو حتى بالفرد نفسه. (مصطفى حجازي، 1993: 173).

- وفي دراسة لمفهوم العنف لدى مجموعة من المثقفين (1998) كانت أهم النتائج:

أ- اختلاف مفهوم العنف لدى المثقفين.

ب- عدم الاتفاق على تعريف محدد للعنف ومظاهره.

ج- وجود خلط بين مفهوم العنف والعديد من المفاهيم الأخرى المرتبطة به، مثل: الإرهاب – التطرف – التعصب – العدوان – الإجرام ... إلخ.

وهذا يقتضي منا أن نحدد أولاً: علاقة العنف بالعديد من المفاهيم المرتبطة به.

العنف والعدوان Violence and Aggression

من خلال ما توفر لدينا من مراجع نجد الآتي:

1- أن الفرق بين العنف والعدوان هو فرق في الدرجة والكم فقط، ويمكن اعتبار العنف هو نهاية المطاف لسلوك عدواني مستمر، حيث يمكن تعريف العدوان بأنه عقد العزم والإصرار على مطاردة وملاحقة

اهتمامات الفرد. أما العنف فهو ملاحقة هذه الاهتمامات بالقوة أو التهديد باستعمال القوة وملاحقتها. وفي هذا الاتجاه نجد التعريف الذي قدمه سعد المغربي (1987) للعنف من حيث أنه استجابة سلوكية تتميز بصيغة انفعالية شديدة قد تنطوي على انخفاض مستوى البصيرة والتفكير. وعلى ذلك فليس من اللازم أن يكون العنف قريناً للعدوان، وليس من اللازم أن يكون العنف ملازماً للشر والتدمير، ولذلك كثيراً ما نقول في أحاديثنا: فلان يحب فلاناً (موت)، أو يكرهه (موت) .. وكلها ألفاظ تشير إلى الشدة في الدرجة.

2- هناك من يخلط بين العدوان والعنف، ويرى أن لا فرق بينهما، وأن العنف هو العدوان. ولذا لا يرى سيد عويس – مثلاً – أن العنف سلوك عدواني أو هو وليد شعور بالعداوة، وأن الشعور بالعداوة قد يوجد ضد الطبيعة، أو يوجد من أفراد إلى أفراد، أو من أفراد إلى جماعات منظمة، أو من جماعات منظمة إلى جماعات أخرى. وأنماط الشعور بالعداوة عديدة. (سيد عويس، 1988: 36 – 38).

العدائية والعدوان Hostility and Aggression

يرى باص Buss (1980)، أن العدائية تكون مدعمة بالأذى، ويفرق إدموندز Edmunds بين العدائية والعدوانية كالآتي:

- يستخدم مصطلح العدائية Hostility للإشارة إلى الميول العدوانية المدعمة بصورة جوهرية أساسية.

- يستخدم مصطلح العدوان Aggression للإشارة إلى الميول العدوانية تدعيماً عرضياً (Edmunds et al., 1980 : 22).

ويرى سول Saul أن كلمة عدواني تستوعب في معناها بعض ضروب السلوك الإيجابي كالمبادأة أو تأكيد الذات، في حين أن كلمة عدائي لا تشير إلا إلى العنف والقوة وما شابههما من ظواهر سلبية أخرى.

ولذا فإن شيفر Schaefer يفرق بين السلوك العدواني وتأكيد الذات، فالفرد في تأكيده لذاته إنما يركز على حقوقه ومشاعره وحاجاته، بينما يركز في حالة العدوان على مهاجمة الآخر والنيل منه. (Schaefer, C. E., 1981 : 242).

الإرهاب والعدوان Terrorism and Aggression

خلت المراجع القديمة من ذكر معنى كلمة إرهاب؛ لأنها كلمة حديثة أقرها المجمع اللغوي حديثاً، وجذرها رهب أي ارتعب وخاف. والإرهابيون في المعجم الوسيط هم الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية.

ويرى سعد المغربي أن الإرهاب هو في الشكل وفي المضمون عدوان مرضي، وهو يقترب في الكثير من صوره ودوافعه وأهدافه من السلوك الإجرامي.

ويختلف الإرهاب عن العنف الجماعي في أن الإرهاب ينطوي على رسالة تحذيرية ما للوسط المحيط تثير الرهبة والفزع في نفوس كل أفراد الجماعة التي ينتمي إليها الفرد الضحية أو موضوع الفعل. أما في العنف الجماعي فتكون الضحايا التي تفرغ فيها الشخصية العدوانية عدوانها هي المستهدفة بالتحديد في تلك الخطة،

أضف إلى ذلك أن الإرهاب يتسم بالاستمرارية وخلق مناخ مـن التـوتر والتأهـب لعمليات أخرى حتى يتحقق الهدف الذي ترمي إليه الجماعة التي تمارسه، في حين يمكن القول إن العنف الجماعي له بداية وذروة ونهاية كحدث أو فعل.

العنف والتعصب:

التعـصب مـصطلح يـشير إلى العديـد مـن الـسمات الـتي تميـز الـشخص المتعصب عن غيره من قبيل: الجمود – التصلب – العدوانية – الأحكام المسبقة- والقوالب النمطية – السيكوباتية وهي تعد من الخصائص الشخصية المرضـية الـتي تدفع للعدوان والاتجاه نحو العنف. وفي هذا الصدد يشار إلى التعـصب علـى أنـه: تلك المعتقدات والاتجاهات المتعلقة ببعض المساوئ الـتي يراهـا فـرد أو جماعـة في أقلية عنصرية أو أقلية أو قومية أو لذلك فإن العنف هو أحد أشـكال التعـبير عـن التعصب، حيث "يحتقر الشخص" الأشخاص الآخرين الذين يخالفونه في أشياء معينة حتى وإن كان ذلك تشجيع فريق كرة قدم ويوجه عدوانه أو عنفه اتجاههم.

الغضب والعنف:

الغضب anger هو انفعال يتميز بدرجة عليا من النشاط في الجهاز العـصبي وبشعور قوي من عدم الرضا سببه خطأ وهمي أو حقيقـي. ويـستجيب الـشخص للانفعال والغضب بتوجيه العنف إلى العقبات التي تعوق إشباع دوافعـه أو تحقيـق أهدافه، سواء كانت تلك العقبات أشخاصاً أو عوائـق ماديـة أو قيـوداً اجتماعيـة،

كثيراً ما يحدث باستخدام ميكانيزم النقل displacement أن ينقل الـشخص غـضبه أو يحوله إلى أشخاص آخرين لم يكونوا هم في الحقيقة سبب الإحبـاط الـذي فجـر الغضب والذي فجر بدوره العدوان والعنف.

والخلاصة أن العنف هو قمة العدوان ويأخذ ثلاثة اتجاهات أو أشكال:

أ- عنف موجه ضد الذات، ويصل إلى قمته في إقدام الشخص على الانتحار.

ب- عنف موجه ضد مصادر الإحباط التي تقف عقبة كأداء أمام إشباع رغباته أو تحقيق أهدافه

ج- عنف موجه ضد بدائل أخرى.

مشكلة الفقـــر

مقدمة

الفقر حالة اجتماعية متزامنة ومترادفة مع وجود حالة الغنى داخل المجتمع الإنساني، والاثنان موجودان في كافة المجتمعات الإنسانية وفي كـل مرحلـة زمنيـة. وكما نعلم، فإن انجذاب علمـاء الاجتمـاع كـان دائمـاً نحـو المـشكلات والظـواهر الاجتماعية في دراساتهم، لكن الأكثر جـذباً لهـم هـي الظـواهر والمـشكلات الـتي تشمل نطاقاً واسعاً في المجتمع وتؤثر فيه سلباً أكثر من تلك الـتي تـؤثر فيـه إيجابـاً. ففي القرن التاسع عشر كان هناك فقر في أوروبا، لكنه لم يدرس من قبل البـاحثين الاجتماعيين بشكل مفصل ومستقل بل مصاحباً لمشكلات اجتماعية أكثر خطـورة منه أو مرتبطاً بحالات أعمق أثراً في المجتمع. لكن بعـد الأزمـة الاقتـصادية العالميـة (مرحلة الكساد الاقتصادي الكبير) في عام 1930 تفاقمت هذه الحالة الاجتماعيـة البائسة فلم تعد آنذاك ظاهرة اجتماعية، وإنما أصبحت مـشكلة اجتماعيـة أدت إلى نمو شريحة اجتماعية كبيرة داخل المجتمع. بعد هذا التفاقم الإشـكالي التفـت إليهـا علماء الاجتماع في بحثهم عن أسبابها وأنواعها وكيفية معالجتها؛ فظهرت دراسات متباينة في تحليلها لمشكلة الفقر، وذلك لأن لمشكلة الفقر أسباباً مختلفة، بينمـا الفقـر كظاهرة اجتماعية له صفات متشابهة في معظم أنواع المجتمعات، فصفات الفقـر في الهند تتقارب من صفات الفقير في الولايات المتحدة (على سبيل المثال لا الحصر)، لكن مشكلة الفقر في الولايات المتحدة ليست ذاتها في المجتمع الهنـدي وذلـك مـن

حيث نسبة الفقراء داخل المجتمع ونوع ثقافتهم الاجتماعية ومستوى معيشتهم قياساً إلى مستوى المعيشة العام. أضف إلى ذلك اختلاف معايير تحديد الفقر في المجتمع؛ إذ هناك معيار حتمي مطلق (وهو الدخل السنوي للأسرة الفقيرة) ومعيار نسبي (يشمل مستوى المعيشة الذي يتضمن مستوى المسكن والملبس والطعام ونوعه وصفاته).

يرى بعض الاجتماعيين الأمريكان أن تطور النظام الصناعي المعاصر أنتج ثروة ورخاء كبيرين ورفاهية واسعة للعديد من الناس، لكنه في الوقت ذاته خلق ملايين من البشر ممن يعانون من البطالة التي أدت إلى الفقر الذي مزج العديد المشكلات الاجتماعية (جنوح وجريمة وطلاق وإدمان على المخدرات والمشروبات الكحولية)، لأن تطور الآلة الإنتاجية وتعقيد بنائها أدّيا إلى الاستغناء عن العديد من العمال المهرة لعدم الحاجة لهم، فباتوا في بطالة قاسية وعاشوا في فقر بائس، ومن هنا جاء اقتران بطالة العمال غير المحددة مع الفقر.

وفي الواقع، فنحن لا نعترض على هذه الرؤية لأنها واقعية، إنما نجد مشكلة الفقر قبل تطور النظام الصناعي في المجتمع الأوروبي؛ فقد كانت موجودة في المجتمعات الإقطاعية في أوروبا إبان القرون الوسطى وكانت موجودة أيضاً في الريف (لكن بنسبة قليلة)، بيد أن نسبتها ازدادت بعد تطور النظام الصناعي مع التوسع الحضري في المدن. ونقول إن مشكلة الفقر موجودة في كل مجتمع لا يمارس العدالة الاقتصادية - الاجتماعية، وهذه حالة كائنة في كل المجتمعات لكنها نسبية تزداد وتقل حسب الوعي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لأفراد المجتمع؛ إذ كلما زاد هذا الوعي قلت نسبة الفقر، والعكس صحيح.

تحديد مفهوم الفقر

ينبغي أن نطلع على أكثر من وجه واحد للفقر من أجل تشكيل صورة متكاملة – إن أمكن – لهذه المشكلة الاجتماعية المزمنة التي وجدت دائماً في المجتمعات الإنسانية. يعرف جورج زمل (منظر ألماني قديم) الفقر بأنه "تحديد الناس لمستوى عيش معين يعدون ظروفهم دونه حالة فقر". وإذا أردنا أن نناقش هذا التحديد، فإننا نرى أن الفرد لا يحكم على مستوى عيشه بأنه يمثل حالة فقر إلا بالنظر إلى ما يجده الآخرون الذين يعيش في وسطهم ويصفون وضعه المعاشي بأنه يشير إلى حالة فقر. وهذا يعني أن لا أثر للدخل اليومي أو الشهري أو السنوي في تحديد جورج زمل للفقر، بل اكتفى بحكم الآخرين على مستوى العيش لشريحة اجتماعية معينة ولم يعط أية أهمية (زمل) للوعي السياسي كمؤثر على نظرة الفرد لذاته.

وهناك لويس كوسر (منظر أمريكي معاصر) الذي حدد الفقر بأنه "وصم المجتمع حياة جماعة اجتماعية معينة بأنها تعيش ضمن دائرة الفقر" وهذا التحديد مشابه جداً لتعريف زمل للفقر، لكن الفرق الطفيف بينهما هو أن كوسر استخدم عبارة (وصم) المجتمع لمستوى معاشي معين بأنه يقع ضمن دائرة الفقر، وهذا لا يختلف كثيراً عن (نظرة الناس) التي استعملها زمل في تحديده للفقر.

ولا غرابة في هذا التشابه بين كوسر وزمل، لأن الأول تلميذ الثاني ومن المتوقع أن يحصل مثل هذا التقارب بينهما. ونشير هنا كذلك إلى تحديد الوظيفيين الاجتماعيين للفقر الذين يرونه أحد إفرازات الخلل الذي أصاب النظام الاقتصادي في أداء وظيفته بالطريقة السوية أو المألوفة.

هذا التحديد (تحديد الوظيفيين الاجتماعيين) يرجع الفقر إلى عجز النظام الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي عن الاستمرار في القيام بأنشطته الإنتاجية دون الاستغناء عن العمال الذين كان يستخدمهم في العمليات الإنتاجية. وقد أرجع (هذا التحديد) عجز النظام الاقتصادي إلى التصنيع المتسارع الذي صدع النظام الاقتصادي فخلق فيه اضطرابات وقلاقل يصعب إصلاحها. هاك مثالاً على ذلك: عندما يحصل تطور تقني في مصنع ما، فإن العمال غير المهرة يحولون إلى العمل في الأعمال الخدمية التي لا يحصل فيها العامل على أجر عالٍ، وهذا يؤدي إلى هبوط في مستوى الدخل لشريحة اجتماعية واطئة الدخل أصلاً. ثم إن مجيء (الأتمتة) أي استخدام المكائن والمعدات المعقدة التي تنتج سلعاً هائلة في وقت قصير قاد إلى الاستغناء عن العديد من العمال الذين كانوا يعملون على الآلات والمعدات الأولية التي استغني عنها، الأمر الذي أدى بهؤلاء العمال غير المهرة إلى التخلي عن مهاراتهم الابتدائية لأن الإنتاج الجديد لا يحتاج إلى أيدٍ عاملة ماهرة ولا إلى المكتبيين الذين لا يقومون بأعمال إدارية متقدمة أو متطورة. وفي ظل هذا الوضع التقني المتطور قام مالكو وسائل الإنتاج باستخدام التمييز الجنسي والعمري بين العمال لكي يستغنوا عن العاملات وعن العمال المتقدمين في السن، فنشأت بطالة بين النساء والمعمرين أدت إلى أن يخسر المجتمع طاقات كان يعتمد عليها في الماضي.

هذا من جانب. ومن جانب آخر، فإن عجز النظام الاقتصادي لم يتأت من هذه الأسباب فحسب بل من الإجراءات الديوانية (البيروقراطية) المملة وعدم كفاية الأموال المخصصة لخدمات الإنعاش الاجتماعي للعمال وعدم تناسق دورات التدريب والتأهيل المهني للعمل. ذلك كله يعمل على تعثر مسيرة النظام

الاقتصادي في أداء مناشطه. ويرى الوظيفيون أيضاً أن السبيل الأفضل في التعامل مع مشكلة الفقر هي إعادة تنظيم النسق الاقتصادي بكيفية أكثر فاعلية وعدم إهمال الفقراء، بل دمجهم في المناشط المنتجة من أجل إشعارهم بأنهم جزء من الحياة الاقتصادية في المجتمع، وذلك بعد تدريبهم وتأهيلهم لمنحهم الخبرة والتجربة في العمل الذي يتناسب مع قدراتهم وقابلتيهم. وعن هذا الطريق يتبلور شعور ذاتي عندهم يربطهم بمجتمعهم ويجعلهم ينظرون إلى ذواتهم على أنهم مواطنون قادرون على خدمة اقتصاد بلدهم، فضلاً عن أن نظرة الناس إليهم سوف تكون محترمة فيثمنون عملهم ويشعرونهم بأنهم لا يمثلون عبئاً على المجتمع ولا يشكلون جماعة طفيلية تقتات على قوت المجتمع. وإذا تم استقرار النسق الاقتصادي، فإنه لا يستمر في خلق مشكلات اجتماعية جديدة على نحوٍ يزيد الفقراء فقراً. هذا الطرح الوظيفي يعكس رؤية الوظيفيين الذين يرجعون الفقر داخل المجتمع إلى عدم وجود العدالة الاجتماعية. لكن ثمة رأي لاثنين من الوظيفيين هما كنكزلي ديفز وولبرت مور اللذان يريان أن غياب العدالة الاقتصادية داخل المجتمع وظيفة إيجابية للمجتمع لأنها تحفز العديد من الناس لكي يعملوا بجدّ ومثابرة من أجل تحسين وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ويواجهوا متطلبات الحياة الاجتماعية المتزايدة. أما غياب المحفزات وعدم خلق روح المنافسة بين الأفراد فينتج عنه عدم حصولهم على مكافآت مادية ومعنوية، فلا تتحسن أحوالهم المعيشية ولا يتجدد عملهم ولا يبدعون في مشاريعهم؛ والآن نذهب إلى رأي مغاير لما تقدم وهو تحديد الصراعيين لمعنى الفقر، الذي انطوى على: أن الفقر هو نتاج الصراع الطبقي بين الطبقات الثرية والفقيرة؛ إذ تبحث الأولى عن زيادة أرباحها من خلال استغلال طاقات الثانية (الفقيرة) وتسخيرها لخدمتها. هذا الصراع الطبقي مرده عدم تحقيق العدالة

الاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي يولد قيماً اجتماعية مختلفة عن قيم المجتمع؛ فتكون هناك طبقتان متناحرتان قيمياً ومترابطتان اقتصادياً غير متكيفتين إحداهما مع الأخرى بل متصارعتين من أجل خدمة مصالحهما المتضاربة؛ إذ يبحث الفقراء عن مسلك للهروب من فقرهم الناجم عن عدم تكيفهم مع وضعهم الاقتصادي – الاجتماعي المزري واللجوء إلى التسلح بالوعي السياسي من أجل مناهضة الاستغلال البشري والاقتصادي وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. والملاحظ على تحديد الصراعيين لمعنى الفقر أنه لم يتميز بحكم الناس على مستوى عيش معين يعدّ ما دونه فقراً بل على وجود طبقتين اجتماعيتين مختلفتين في أهدافهما ومصالحهما ودخلهما؛ فتتمسك إحداهما (الثرية) بمصالحها وأهدافها وتحاول الثانية (الفقيرة) الهروب من ظروفها الاقتصادية والاجتماعية لتحتل مواقع اقتصادية وسياسية واجتماعية أفضل. ولا أهمسة هنا لحكم الآخرين على وضعها بل إن على وضعها يتبلور من وعيها بواقعها وطموحها لتغييره. إنه تحديد اجتماعي – اقتصادي لكنه يختلف عن تحديد الوظيفيين الذين اكتفوا بالرؤية الاجتماعية فقط.

ثم هناك تحديد آخر قائم على ركيزة نفسية – اجتماعية مفادها أن المعتقدات والتوقعات الظرفية لا تملك أهدافاً طموحة تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التنشئة الاجتماعية المخزونة في ثقافة الفقراء الاجتماعية. ومعنى ذلك أن الفقراء يطلبون العيش الرغيد الآني والسعادة الظرفية والإرضاء المستعجل والإشباع المؤقت لرغباتهم. وليست لديهم طموحات بعيدة المدى كأن يصبح الفقير أستاذاً أو طبيباً أو مهندساً أو يخطط لمستقبل زاهر ويحدد مصادر عيشه وكيفية إنمائها وتكثيرها لأنهم قانعون بما هم عليه بسبب المؤثرات النفسية والثقافية

التي يخضعون لها، فتبلور عندهم مواقف ومعتقدات نابعة من ثقافتهم الفقيرة يتكيفون معها ويتعاملون معها حسب الظروف، الأمر الذي يجعلهم لا يفكرون في تغيير حراكهم الاجتماعي من الاتجاه الأفقي إلى الاتجاه العمودي الصاعد إلى الأعلى، وهذا يكبح وعيهم السياسي (إن وجد) ويثبط عزيمتهم في تغيير وضعهم الاقتصادي والاجتماعي. إنه فخ أو مصيدة يقع فيها الفقير من يوم ميلاده لحين وفاته ولا يستطيع الخروج منها لكن في الإمكان إخراج الفقير من هذا الفخ عبر إتاحة فرص العمل له وإثارة انتباهه نحو أهداف طموحة وتحفيزه على تحسين محيطه الاجتماعي لكي يستطيع تحسين وضعه. بذلك يتم تخفيف حدة النزاع بين الفقراء والأغنياء أو تلطيف عدم العدالة الاجتماعية وانتشال الفقير من قدر الفقر.

بعد أن اطلعنا على الرؤى المتباينة في تحديد مفهوم الفقر الذي انطلق من زوايا اجتماعية واقتصادية ونفسية. نستطيع الآن أن نقول إن الفقر ناتج عن ظروف المعيشة غير المتوازنة في الدخل والعمل. ومما يزيد من عدم التوازن عيش الفقراء في المدن الصناعية والحضرية التي تستقطب أصحاب رؤوس الأموال وفاقديها (العمال والكسبة) على حدّ سواء. وهذا يعني أنها (المدن الصناعية والحضرية) تضم مستويين من المعيشة متضاربين ومتعاكسين، فضلاً عن تفشي البطالة وجود الأسر الفقيرة والمتقاعدين من العمل والشباب العاطل الذي يزيد عدده على عدد الفقراء في هذه المدن. كل ذلك يجعل من مناطق سكن الفقراء أماكن لتفريخ الجرائم والانحرافات السلوكية والمشكلات الاجتماعية المستعصية والإدمان على المخدرات والمسكرات والقيام بعمليات التزوير بكافة أصنافه وتهريب السلع والبضائع وباقي المخالفات القانونية لحاجتهم الماسة للمال التي

تدفعهم لطلب أكبر قدر ممكن منه في أقصر فترة زمنية ممكنة، وذلك عن طريق السطو على البنوك أو العمليات الإجرامية المنظمة وما شاكلها.

معايير الفقر

مما لا يمكن تلافيه عند الحديث عن الفقر هو أن ننبه على المعايير الأساسية في تحديد من هو الفقير، أو ما هي مقاييس العدالة الاقتصادية. في الواقع، هناك معياران مستخدمان في هذا الموضوع هما: (الدخل) و (الثروة). ويشير الأول إلى كمية المال التي يحصل عليها الفرد من عمله سنوياً (أي أجرته اليومية مضروبة في عدد أيام السنة) بينما تشير الثروة إلى مجموع ما يملكه الفرد من عقار وممتلكات شخصية وأسهم وسندات ونقد. لكن دقة المعلومات عن دخل الفرد هي أوضح من دقة المعلومات عن مجموع ثروة الفرد بسبب معرفة الدولة لمداخيل الأفراد أكثر من ثرواتهم، لأن الأخيرة مبعثرة وتمثل مدخرات شخصية يصعب على الدولة معرفتها وحصرها ولأن الدولة لا تسجل ثروات أبنائها ولا تعلنها للرأي العام. ومن الطبيعي أن يتصل توزيع الدخل والثروة بالغني والفقير ومستوى العيش وموقف الغني من الفقير وبالعكس. لا بل إنه يتصل حتى بموقف كل فئة تجاه ذاتها. فالفقراء يفتقرون إلى الحرية الشخصية والاستقلال الذاتي ويعيشون وسط بيئة إجرامية وجيرة بائسة ويواجهون مغريات الحياة المتنوعة التي يرغبون في اقتنائها لكنهم غير قادرين على الحصول عليها إلا نادراً لأن فرص الحصول عليها عندهم ضئيلة. بينما الغني يملك الثروة فتمنحه الحرية والنفوذ والسلطة الاجتماعية والقدرة على توجيه حياته الخاصة. فالغني يستطيع أن يختار ويحصل على الأشياء

التي تفرحه وتجلب له المسرة ويدفع ثمنها من ثروته، وهذا غير متوفر عند الفقراء. ويحصل أطفال الأغنياء على أفضل الأشياء وأغلاها، كما يحصل الغني على أفضل الضمانات لكي يبقى محافظاً على مستواه المعيشي واعتباره الاجتماعي. ومثل هذا غير وارد عند أطفال الفقراء، وإذا حصل بعض الشيء فيكون ذلك بشق الأنفس وبكلفة عالية. ويزداد البؤس في المجتمعات المادية، إذ يحكم الناس على الأفراد من خلال ما يملكونه من ماديات، وهنا يحكم على الفقير بالبؤس المزمن الميؤوس من تغييره.

لكن على الرغم من استخدام الدخل والثروة في قياس غنى الناس وفقرهم، فهما يستخدمان لقياس نوعين من معايير الفقر هما: المعيار المطلق، والمعيار النسبي؛ وينبني المعيار الأخير (النسبي) على الدخل الواطئ والثروة القليلة. فالفرد لديه دخل مالي واطئ وثروة قليلة يستطيع أن يعيش بهما على الكفاف. أما المعيار المطلق فهو يقيس نقص ضروريات الحياة كقاعدة أساسية للتعبير عن خط الفقر أو حدوده الدنيا. والمشكلة هنا هي: كيف يحدد خط الفقر، وما هو الحد الأدنى لمداخيل الفقراء الذين يعيشون ضمن حدوده؟ فمثلاً في كندا، تستخدم حصة الدخل المصروفة على الطعام والمسكن والملبس مقياساً للفقر عندهم، بينما استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1963 دخل الأسرة المكونة من فردين أو أكثر- الذي كان آنذاك أقل من (3000) دولار- حدّاً للفقر. أضف إلى ذلك أنّ ازدياد أسعار السلع والمسكن والطعام بشكل مضطرد سنوياً بينما يكون الدخل ثابتاً يزيد بدوره من فقر الفقراء ويكثف بؤسهم.

صفات الفقر العامة

كما ذكرنا آنفاً، فإنه على الرغم من تباين الرؤى في تحديد الفقر، فإنّ هناك صفات عامة تربط فيما بينها، وهي:

1- دخل اقتصادي واطئ.

2- ضعف في التغذية.

3- مستوى تعليمي رديء.

4- السكن في مساكن حقيرة ورديئة، مع وجود تعصب ضد السكن في مناطق حضرية جديدة.

5- السكن في مجتمع محلي أو منطقة سكنية موبوءة بالجرائم والانحرافات السلوكية.

6- كثرة أعداد الطلبة في المدارس وضعف مستوى المعلمين وقلة الدوافع التعليمية عند الطلبة الأمر الذي يجعل طموحهم التعليمي ضعيفاً.

7- معدل عالٍ للبطالة.

8- انعدام الإسهام في المناشط المجتمعية المنتجة أو المثمرة.

9- عدم التفكير في المستقبل لأنه يشبه الحاضر السيئ.

10- عدم ثقة المؤسسات المالية (مصارف وشركات) بالتعامل مع الفقراء، وذلك لضعف مواردهم المالية.

11- سيادة القانون العرفي في الحياة اليومية أكثر من القانون الرسمي المؤسسي.

12- ضعف علاقة الأم بأبنائها.

13- اتسام بناء الأسرة الفقيرة بأن الزوجة تكون هي رب الأسرة.

14- كون معظم الفقراء من أقليات المجتمع الإثنية.

15- العمل في الأعمال الخطرة والقذرة.

16- العيش في المدن الحضرية والصناعية.

هذه الصفات نجدها تنطبق على معظم الفقراء في المجتمعات الحضرية والصناعية دون تخصص دولة معينة أو نظام سياسي أو اقتصادي معين، بل هي عامة وشاملة ولا تخضع للتفسير أو التحليل الاجتماعي وحده بل يتوجب أيضاً إخضاعها للتحليل الاقتصادي والنفسي إلى جانب التحليل الاجتماعي لأنها نابعة من رحم الفقر (إن جاز التعبير) دون التكهن بنوع الوليد وساعة ميلاده. بمعنى آخر، فإن هذه الصفات لا تخضع لتحديد جنسية الفقراء أو هويتهم أو عمرهم الزمني. ولا يهمّ إذا كانت الأسر الفقيرة من المعمرين أو العاطلين عن العمل أو من المهاجرين أو من الأسر المفككة. إنها صفات عامة تعطي الصورة الواسعة للفقراء في المجتمع الإنساني.

أصناف الفقراء

نتناول الآن تصنيف الفقراء حسب ما جاء به رايت ميلز الذي استند على دعامتين أساسيتين هما: الضمان الاقتصادي ودرجة تنظيم استقرار الأسرة.

1- **الفقير المستتر**: أي الذي يملك دخلاً واطئاً لكنه يتمتع بمشاعر متوازنة وحياة اجتماعية منتظمة بسبب انسجام أفراد أسرته ويتمتع أبناؤه بمستوى تعليمي لا بأس به ويعمل في أعمال متوسطة المهارة.

2- **الفقير المتوتر**: وهو الذي يتمتع بدخل ثابت لكن حياته الأسرية مضطربة بسبب المشكلات المستمرة بينه وبين زوجته أو بينه وبين أبنائه بسبب إدمانه على المسكرات أو المخدرات أو قساوته في علاقته مع زوجته وأبنائه.

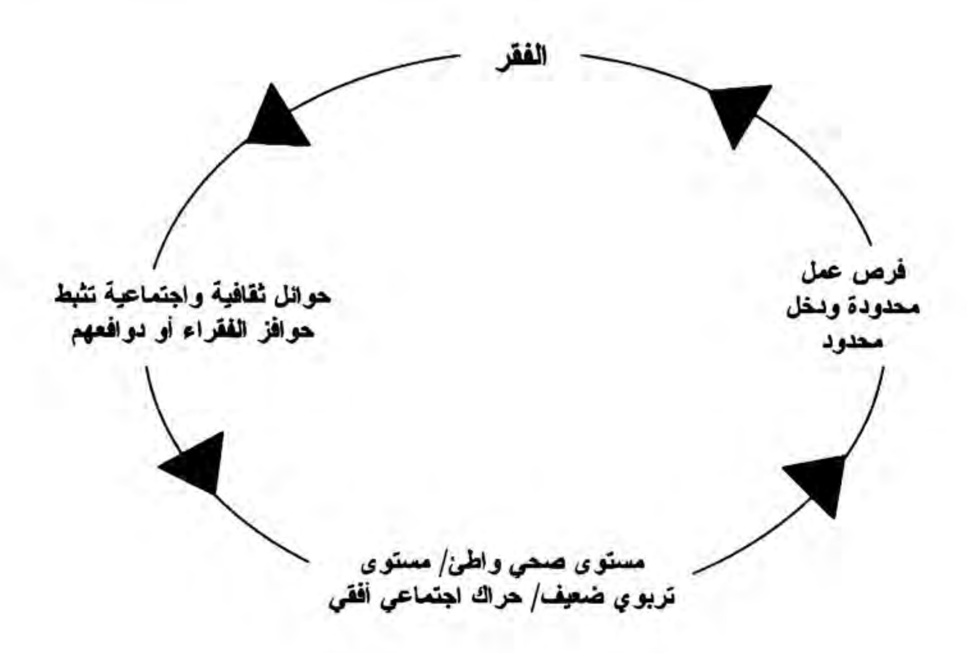
3- **الفقير مزدوج الاضطراب**: أي الذي يعاني من اضطراب في دخله على الرغم من قلته إضافة إلى فقدان أحد الوالدين أو كليهما الأمر الذي يجعل بؤسه المعاشي والاقتصادي صعباً جداً.

4- **الفقير المكافح**: وهو الذي يملك دخلاً واطئاً ويعمل جاهداً على تحسين معيشته، وفي الوقت ذاته يعيش في وسط أسرة متكيفة مع دخلها المتدني ومحيطها الاجتماعي الفقير.

في نظر رايت ميلز؛ فإن الفقير هو ضحية التحيز الاجتماعي السائد في مجتمعه الذي دفعه لأن يعمل في عمل مفروض عليه ويعيش في مسكن سيء

الشروط الصحية وفي حي موبوء (أي مرتع للانحراف السلوكي والجريمة). إنه ضحية لأنه لا يعرف حقوقه ويجهل القانون في الوقت ذاته.

لننتقل الآن إلى موضوع آخر من مواضيع الحديث عن الفقر وهو (دائرة الفقر) التي تعبر عن حالة متشائمة للفقراء وتصويرهم على أنهم في مصيدة أو شرك لا يستطيعون الفرار أو الخلاص منه، كما تلغي قدراتهم الفكرية والعقلية التي ربما تساعدهم في الخروج من مأزق الحياة. فهي ترفض فكرة الفقر المؤقت المرتبط بأزمة اقتصادية أو اجتماعية معينة ولا تؤمن بصيرورة التغير الاجتماعي (المتدرج أو المفاجئ) وتغير موازين القوى الاجتماعية، بل تنجذب نحو الفقر المزمن الذي لا مفر منه؛ إذ تضع الفقير في دوامة الفقر التي لا ينجو منها بل تلفّ حتى أبناءه وأحفاده. وهذا حكم مسبق قاسٍ وانغلاق في التفكير والتحليل. لكننا نعرضها هنا لأنها تعطي أحد تصورات بعض علماء الاجتماع للفقر الذي لا يخلو من فائدة، ويكمن توضيحها كما في الشكل التالي:



تصورات بعض علماء الاجتماع للفقر.

يبين الشكل حالة الأفراد الذين يتمتعون بدخل مالي محدود والأفراد الذين لا يجدون عملاً بسبب قلة فرص العمل المتاحة لأصحاب الخبرة الأولية والبسيطة. مثل هؤلاء الأفراد يعيشون في مستوى عيش فقير. أضف إلى ذلك أن استمرار هذه الحالة يجعل الدوافع للعمل مثبطة، فضلاً عن وجود منافسة مع أصحاب المهارات الفنية المتقدمة أو أولئك الذين يمثلون أغلبية المجتمع مع عدم حصول الفقراء على القبول الاجتماعي لأنهم في أسفل السلم الاجتماعي. مثل هذه الحوائل الثقافية والاجتماعية لا تجعل حراكهم الاجتماعي على السلم المهني والاجتماعي عمودياً؛

لأن الفرد من هؤلاء غير حاصل على مستوى تعليمي متقدم ولأن مهارته المهنية أولية وصحته ضعيفة لا تسمح له بمواصلة العمل من أجل الخروج من مصيدة الفقر. ولما كانت فرص العمل قليلة ومحدودة، فإنه يبقى يعيش على دخل مالي محدود جداً ويصبح بذلك فقيراً مزمناً. وهذه الوضعية المزرية لا تساعد أبناء الفقير في أن يعيشوا في مستوى تعليمي وصحي أفضل من والديهم إن لم يكن أسوأ منهم؛ فلا أمل لهم بالخروج من حالة الفقر. فالفقراء يولدون في أسر فقيرة وينشأون على قيم ثقافة الفقراء ويترعرعون في بيئة بائسة ثم يموتون دون أن يستطيعوا الهروب من فقرهم. ومشكلة هؤلاء الفقراء في نظر أصحاب (دائرة الفقر) هي أنهم لم يشاركوا في المناشط السياسية لأنهم فقراء أو لأنهم يمثلون أقلية إثنية في المجتمع، ولم يحتلوا مواقع عالية على السلم الاجتماعي، وليس لهم قرار في حياتهم الاجتماعية لأنهم مستلبون من قبل الأقلية في السلطة الحاكمة. وإن من الجائز أن تكون هذه الظروف عاملاً في انتمائهم إلى تنظيمات سياسية تدافع عن حقوقهم الإنسانية وتضغط على أصحاب القرار لتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي.

إذا قبلنا هذا الافتراض فإننا نجد أن رؤساء التنظيمات السياسية غالباً ما يستخدمون الفقراء موضوعاً للدعاية السياسية، حيث يتم استخدام أصواتهم في الانتخابات لصالح قادة التنظيمات السياسية الذين سرعان ما يتخلون بعد فوزهم في الانتخابات عن وعودهم وشعاراتهم التي رفعوها في الدفاع عن الفقراء وتحسين أوضاعهم. وبذلك يتحول الفقراء إلى مجرد أرقام لصالح المرشح النيابي أو السياسي ولا يحصلون على المكاسب التي وعدوا بها من قبل ذلك المرشح.

مواقف اجتماعية تجاه الفقر

هناك موقفان متناقضان تجاه الفقر، الأول مادي والثاني قيمي. **الموقف الأول** ينبع من العقيدة الفردانية السائدة في المجتمعات الرأسمالية، وبخاصة في المجتمع الأمريكي. ويمكن تلخيص هذه العقيدة بالنقاط الآتية:

1- لما كانت فرص العمل متعددة ومتاحة لكل فرد قادر على المنافسة، فإنه يجب على كل فرد أن يعمل بجد ومثابرة من أجل أن ينجح في منافسة الآخرين.

2- هؤلاء الذين عملوا بجد ومثابرة يجب مكافئتهم بمنحهم الثروة والملكية والاعتبار والنفوذ الاجتماعي علاوة على إنجاحهم.

3- وإن الذين فشلوا في منافسة الآخرين فإن سبب فشلهم يعود إلى الفشل الفردي وليس إلى الفشل الاقتصادي.

4- وبناء على ما سبق، يصبح الفرد الذي ثابر في عمله ونجح غنياً ويصبح الذي فشل فقيراً.

مثل هذه الآراء الفردانية ما زالت سائدة في المجتمع الأمريكي؛ إذ يلوم الغني الفقير بتهمة كونه كسولاً غير قادر على منافسة الآخرين من أجل تحسين وضعه المعاشي والاقتصادي، ولا يلوم الحكومة الأمريكية على عدم وضعها برنامجاً لإيجاد عمل للفقراء بدل أن تقدم لهم مساعدات غذائية وصحية وتشجعهم

على القعود عن العمل وكسب قوتهم وتجعل منهم عناصر متواكلة أو معتمدة على مساعدات الحكومة.

الموقف الثاني: يعبر عن القيم التقاليدية السائدة في المجتمعات الريفية والتقاليدية إذ يعيش الفقراء على المساعدات الأهلية كالصدقات والحسنات من أغنياء المجتمع المحلي ومن الأقارب وأفراد الأسرة الممتدة إذ يتوجب عليهم مساعدة الفقراء من أبناء أسرتهم الكبيرة لذلك لا تظهر مشكلة الفقر بشكلها الحاد أو القاسي. أنه موقف يعبر عن الالتزام القيمي والقرابي في هذه المجتمعات ولا ينظر إلى الفقراء على أنهم كسالى أو ليس لهم القابلية على التنافس الحر من أجل الحصول على عمل يعيش من ورائه بسبب التكافل الاجتماعي السائد في المجتمع المبني على القيم التقاليدية وضعف القيم المادية في المجتمع.

أسباب الفقر

لا يمكن حصر أسباب الفقر بشكل دقيق، لكن بالإمكان تحديد أسبابه بشكل عام، وبخاصة في المجتمعات المتحضرة والصناعية، وذلك بسبب بروزها للعيان والدراسات التي غطتها وشملتها. فالسبب الرئيسي للفقر في تلك المجتمعات هو البطالة التي يعاني منها العاطلون عن العمل الذين انقطع مصدر رزقهم وعاشوا في فقر. لكن البطالة لا تمثل شكلاً واحداً، بل هناك (البطالة الدورية) التي تحدث بسبب الكوارث الطبيعية أو الاقتصادية التي تسبب عدم استقرار دخل الفرد الذي يُراوح بين العمل والانقطاع عنه مما يسبب اضطراباً في دخله. ومع استمرار ارتفاع أثمان السلع ومستوى المعيشة فإنه يقع في شرك الفقر. وهناك

العاطلون عن العمل بسبب الأمراض الجسدية المزمنة مثل المعوق الذي فقد أحد أطراف جسمه أو المصاب بأحد الأمراض العصبية. وهناك العاطلون عن العمل بسبب الشيخوخة (تقدم السن) أو التقاعد أو الاثنين معاً. وهناك عاطلون عن العمل بسبب الوهن الأسري؛ إذ يكون رب الأسرة عاطلاً عن العمل بسبب انشغاله بمشكلات الأسرة المزمنة فيتعطل عمله. وأخيراً هناك العاطلون عن العمل بسبب صغر السن الذي يحرمهم من الدخول إلى سوق العمل مثل الطلبة والمتزوجين الذين تزوجوا مبكراً والأفراد المستقلين عن أسرهم، أي الذين تركوا أسرهم لكي يعيشوا من عرق جبينهم فاستقلوا اقتصادياً.

الحياة العامة للأسر الفقيرة

في الأسرة الفقيرة تكون المرأة المركز الحيوي لها؛ إذ تتحمل تربية الأبناء ومسؤولية المنزل والعمل خارج البيت من أجل الحصول على لقمة العيش؛ فليس لها الوقت للجلوس عائلياً مع أبنائها في أثناء وقت الفراغ والاستمتاع بجو عائلي هادئ، بل غالباً ما تبرز الشجارات والمشكلات المالية والعلائقية بسبب التوتر العصبي الناتج عن الحرمان الاقتصادي وسوء ظروف العمل والضغوط الاجتماعية الأخرى. وتزداد الحالة بؤساً عندما يكون الزوج عاطلاً عن العمل فتبقى الزوجة المصدر الأساسي للرزق. وتحت هذا الظرف تضعف مسؤولية الزوج داخل الأسرة وفي الوقت ذاته يقل احترام أبنائه له بسبب جلوسه الدائم في المنزل وخلق مشاكل لهم، ويبدأ بالشعور بأنه بات لا حول له ولا قوة في أسرته الأمر الذي يدفعه لأن يتصرف بأسلوب عنيف مع زوجته وأبنائه فيضطهدهم

نفسياً ويسيء معاملة الابن بالذات بشكل مستمر مما يخلق الشعور لدى الأبن بأنه غريب في أسرته ولا حاجة لاستمرار بقائه معها فيلجأ (الابن) إلى الشارع أو الزقاق ليحمي نفسه فيه من والده أو ليهرب من اضطهاد والده. وهنا يخضع لثقافة الشارع ويكتسب مؤثراتها فيتحد سلوكه وتربيته الأسرية مع الزقاقية فتغيب الضوابط الخلقية والأدبية، فيصبح الأبن ضحية سوء معاملة الأب ويغدو (كبش الفداء) في أسرته. وقد يحصل للبنت انحرافات سلوكية منها أنها قد تصبح أماً غير شرعية. ولما كانت الأسرة الفقيرة تعيش في منطقة تعج بالحانات والفنادق الرخيصة، فذلك من شأنه أن يطبع حياة ذكور الأسرة الفقيرة بطباع منحرفة وغير قويمة. فالرجال (الأب أو الابن) يتسكعون بين حانات المنطقة يشربون الخمر بشكل مستمر، وتكون هذه الحانات أماكن اجتماعاتهم وسمرهم، ويلعبون القمار على ناصية الطريق وفي أثناء لعبهم يشربون الخمر من زجاجة واحدة (من فمها)؛ إذ تنتقل من فم إلى آخر. هذا العالم المعزول عن العالم الخارجي يكون أفراده متماثلين في سلوكهم وتفكيرهم وهمومهم، والصفة البارزة فيهم أنهم يخشون الظهور أمام الناس الذين هم من خارج مجتمعهم المحلي ويهربون من مواجهتهم. هذا فضلاً عن عدم استقرار الفقير في عمل واحد؛ إذ يتنقل من عمل إلى آخر، ليس للأحسن بل إلى مستوى العمل السابق نفسه، وهو غير راغب في الاستقرار في عمل واحد بسبب تعارض ذلك مع وقت شربه ولهوه في منطقة الفقر، ومع استمرار هذه الحالة اليومية الرتيبة تصبح فيما بعد نمط عيشه الدائم.

إن الفقر مشكلة اجتماعية في كافة المجتمعات الإنسانية، تفاقمت مع تطور الحياة التكنولوجية والحضرية؛ إذ عطلت العديد من العمال غير المهرة عن العمل، وأقعدت العديد من الأفراد عن العمل بسبب تقاعدهم أو عمرهم المتقدم

(الشيخوخة) أو الاثنين معاً، إضافة إلى تعطل آخرين بسبب العمر المبكر الذي لا يسمح به سوق العمل للأحداث أو بعض الشباب. ولا تقتصر عواقب هذا الوضع على فئة عمرية أو مهنية بعينها، بل تمتد آثاره إلى الأسرة فيتصدع بناؤها الاجتماعي وينحرف بعض أبنائها وتتطبع حياتها بأنماط سلوكية منحرفة، وبخاصة عندما تعيش في منطقة سكنية رديئة صحياً ومزدحمة بشرياً ومعزولة اجتماعياً ومتخلفة ثقافياً، حيث تصبح مكاناً حاضناً لتفريخ شتى أنواع الإجرام والانحرافات السلوكية الفردية والمنظمة وهذا بدوره يبعد أفراد تلك الأسر عن الشعور بالمسؤولية والوعي السياسي والاتصال بالعالم الثقافي فيصبحون مغتربين في مجتمعهم ومستلبين من قبل السياسيين (المرشحين لمجالس البلديات والنواب...) والتجار المستغلين وأرباب العمل الجشعين. وعندما يشعرون بالبون الشاسع بينهم وبين الفئات الاجتماعية الأخرى ينزعون إلى الانتقام منها بأساليب مخالفة للقانون (كالإجرام) للحصول على الأشياء التي حرموا منها أو التي لم يستطيعوا الحصول عليها بعرق جبينهم.

أطفال الفقر

يقول الدكتور محمد الرميحي: لم يترك الفقر بصمته على أحدٍ كما تركها على أطفال هذا العالم الذي نعيش فيه. فمع الأطفال يصبح الفقر أشد وضوحاً وأكثر مأساوية، وفي العديد من دول العالم هناك قوانين تمنع عمل الأطفال وتلزم ذويهم بإرسالهم إلى المدارس. ولكن هناك أكثر من (80) مليون طفل – معظمهم من الدول الفقيرة – تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة يتوجهون كل

صباح إلى أعمال خطرة لا تتناسب مع خبرتهم ولا مع سنوات عمرهم. هذا الرقم هو من تقديرات منظمة العمل الدولية، ولكن الأرقام الحقيقية العالمية هي أكبر من ذلك بكثير. والأعمال التي يقوم بها هؤلاء الأطفال لا يمكن أن يتصورها بشر؛ ففي تايلند يمكن أن تباع أي طفلة من سكان الجبال بما لا يزيد على (3) آلاف بات (حوالي 150 دولاراً) كي تمارس الدعارة في أروقة المدينة وفي بيوتها السرية لمدة سنوات طويلة حتى تسدد هذا الدين الذي يبدو أنه لا يسدد أبداً. وهي لا تذهب مع الزبائن فقط، بل تضرب وتهان بشكل مستمر حتى تتعلم الطاعة وقبول أي شيء. وفي الهند يعمل الأطفال في مصانع لصناعة الطوب قرب مدينة دلهي دون أي أجر؛ فهم يعملون فقط في سبيل وجبة من الطعام ومأوى سيء، وهم عرضة باستمرار لتكسر العظام وتشوه العمود الفقري. وهم بهذه المهنة أسعد حظاً من رفاق لهم يبلغ عددهم حوالي (45) ألف طفل هندي يعملون في تغليف المفرقعات بحوالي 70 سنتاً كأجر يومي، بينما يربح أرباب العمل حوالي 35 مليون دولار من هذه الصناعة ولا يدفعون أي تعويض عن حوادث العمل. وفي أمريكا اللاتينية يحصد الأطفال محاصيل الحقول المرشوشة بالمبيدات وينظفون الأرض من الجرذان الميتة. وفي كولومبيا يحشر الأطفال في أضيق مناجم الفحم الحجري. ويعمل أطفال البرازيل في صناعة الزجاج حيث تبلغ درجة الحرارة 1500 درجة مئوية ويستنشقون أبخرة السليكون والزرنيخ السامة بشكل يومي. ويصاب أطفال في مصر بتشوهات في العمود الفقري نتيجة عملهم في صناعة الملابس وهم مع ذلك أسعد حظاً من الذين يعملون في محاجر الجير حيث تتكلس رئاتهم الصغيرة في وقت مبكر. وما زال الآباء في باكستان يقومون بتشويه أولادهم

بحيث يمكنهم العمل كشحاذين، أما في إفريقية فهم يفضلون بيعهم كعبيد للعمل كل الوقت وطوال العمر.

وبرغم هذه الصورة المفزعة وتنبيه العديد من المنظمات الإنسانية عليها، فلا مجال للتفاؤل. ففي معظم الدول الفقيرة تعتمد العائلات على أطفالها لتأمين معيشتها، وفي الريف يذهب الأطفال إلى العمل في الحقول حالما يستطيعون المشي على أقدامهم، ولا تتوقف الهجرة من الريف إلى المدن لتضيف مزيداً من التعطل والحاجة إلى التكسب بأي أجر ووفق أي ظرف. وفي مثل هذه الحالات يعمل الأطفال قبل أن يعمل آباؤهم لأنهم يقومون بنفس العمل ويتقاضون ربع الأجر الذي يتقاضاه البالغ تقريباً. والأطفال يخافون ويخضعون لتهديد المشرفين ولا يمكنهم التجمع أو الاحتجاج لدى السلطات الرسمية، وليس هناك نقابة تدافع عنهم عندما يرهقون بالعمل أو يتقاضون أجوراً زهيدة، وقليل منهم يعرفون حقوقهم القانونية أو يملكون القدرة على الاستفهام حول ماهية العمل والأجر، وأغلبهم شاكرون لمجرد أنهم يعملون ويجدون الفرصة لتناول وجبة يومية.

إنها عودة أخرى لزمن الرق الذي جعله العالم المعاصر أكثر بشاعة؛ ففي آسيا وجزر المحيط الهادئ يعمل الأولاد لساعات تتجاوز كل المقررات الرسمية ثم ينامون في الليل على بلاط المصنع. وفي الهند يكوى الأطفال الصغار بحديد حام إذا أخلوا بالتعليمات. وفي تايلاند يصب الحامض الحارق على وجوه بنات الهوى المراهقات القاصرات لتأديبهن. وهناك من يرى أن كل ما يحدث لهؤلاء الأطفال هو أفضل بكثير من جلوسهم جياعاً أو تجوالهم بلا عمل.

وقد تنبهت منظمة الصحة العالمية إلى ظاهرة معاصرة هي الاهتمام المتزايد للأسرة العصرية بتربية الكلاب والقطط. ونورد هنا نداء المنظمة العالمية الذي نشر في مجلة الأسبوع العربي التي تصدر في باريس في عددها الصادر في تشرين الأول عام 1997. أطلقت منظمة الصحة العالمية نداءها التحذيري من وجود (250) مليوناً من الكلاب والهررة في العالم تعيش وتنمو في أحضان العائلات، وخصوصاً الأطفال، وتتسبب بأمراض قاتلة عدة قضت خلال عام 1997 على نحو (150) ألف شخص معظمهم من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 5 سنوات و 12 سنة. وقد أنفق أكثر من (42) مليار دولار في العام الماضي (1996) على تغذية وتطبيب وتلقيح هذا العدد الهائل من الحيوانات التي تتسابق العائلات الميسورة على اقتنائها في أوروبا والولايات المتحدة والصين وآسيا والشرق الأوسط غير مدركة للمخاطر الكبرى الناجمة عن وجودها داخل المنزل وبين أفراد العائلة.

مشكلة الانتحار

Suicide

تعريف الانتحار وطبيعته

من الجوانب الجديرة بالاهتمام عند دراسة الانتحار، تحديد مفهومه. فقد اتجه الباحثين إلى وضع تعريف لانتحار من خلال تأكيدهم على عنصر المعرفة وإدراك النتيجة الناشئة من فعل يؤدي إلى الموت. عرف دور كايم Durkheim عام 1887 الانتحار بأنه «كل حالات الموت التي تنتج بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي يقوم به الفرد وهو يعرف أن هذا الفعل يصل به إلى الموت». (Magili, 1998)

وقد اقتصر بعض البحثين على المعنى اللغوي في تعريفهم للانتحار، حيث عرفه (مكرم سمعان، 1961) بأنه «كل فعل أو أفعال يقوم بها صاحبها لقتل نفسه بنفسه وقد تم له ذلك وانتهت حياته نتيجة هذه الأفعال». وكذلك عرفه (إبراهيم مدكور، 1975) بأنه «قتل الإنسان لنفسه».

كما ذهب بعض الباحثين في تعريفهم للانتحار إلى التمييز بين نوعين من الانتحار هما: الانتحار الحقيقي – أي الموت الجسدي – والانتحار النفسي. فقد عرفه (وليم الخولي، 1976) بأنه «قتل الإنسان لنفسه عمداً» كما عرف نوعاً آخر يسمى الانتحار النفسي Psychic Suicide، ويقصد به «نوع من الانتحار غير

الصريح حيث يزهد البعض بالحياة تماماً ويبغضونها، وتـدفعهم عوامـل اليـأس إلى تدمير أنفسهم فيصابون بحالات مرضية».

وبنظرة فاحصة لمجموعة التعريفات السابقة، نجد أنها تـشير إلى أن الانتحـار فعل أو حدث منفرد، إلا أن بيـك وآخـرين (Beck et al., 1979)، رفـضوا ذلـك، وأشاروا إلى أن الانتحار ليس حدثاً منعزلاً، بل هو عملية معقدة وبينوا أن السلوك الانتحاري يمكن تصوره باعتبـاره واقعـاً علـى متـصل لقـوة كامنـة تـشمل تـصور الانتحار، ثم التأملات الانتحاريـة، تليهـا محاولـة الانتحـار، وأخـيراً إكمـال هـذه المحاولة الانتحارية.

ويتفق بونر و(ريتش) (Bouner and Rich, 1987) مع مـا أشـار إليـه بيـك وآخرون (1979) في أن السلوك الانتحاري عملية دينامية معقدة بـدلاً مـن كونـه حدثاً منعزلاً ثابتاً. فقد عرّفا السلوك الانتحاري بأنـه «عمليـة مركبـة مـن مراحـل مختلفة تبدأ بتصور الانتحار الكـامن، وتتقـدم خـلال مراحـل مـن تأمـل الانتحـار النشط، ثم التخطيط للانتحار النشط، وفي النهاية تتراكـم محـاولات انتحـار نـشطة لـدى الفـرد. وقـد يتذبـذب مركـز الفـرد في هـذه العملـة وفقـاً لتـأثير العمليـات البيولوجية والنفسية الاجتماعية».

معدلات الانتشار الانتحار

إن الانتحار ظاهرة واسـعة الانتـشار بـين المـراهقين والراشـدين. فالاتجـاه المرضي لزيادة معدلات الانتحار بالنسبة للشباب تم تسجيله على نحو جيد على مر السنوات القليلة الماضية. واتضح أن معدل الانتحار بين أولئـك الـذين يقعـون في

المرحلة العمرية من 15 إلى 24 سنة قد تضاعفت ثلاث مرات تقريباً في العشرين سنة الأخيرة.

وقد أشار ديفز (Davis, 1985) إلى أن معدل الانتحار الكامل لدى المراهقين والشباب ذوي الأعمار من 15 – 24 سنة قد زاد إلى ما يقرب من 300% على مدى العقود الثلاثة الماضية.

وفي مسح قام به رود (Rudd, 1989) على عينة من طلاب الكليات (ن – 737)، توصل إلى أن أكثر من 43% من المشاركين قد شعروا بمستوى معين من تصور الانتحار خلال السنة السابقة للمسح، ومن هؤلاء وجد أن 14,9% تصرفوا بشكل ما وفقاً لذلك التصور دون القيام بمحاولات انتحار، وأن 5,5% منهم قاموا بمحاولات انتحار فعلية.

وكذلك أشار شريف وكانكل (Shreve and Knakel, 1991) إلى أن نسبة الوفيات بسبب الانتحار في أمريكا تزداد بنسبة تصل إلى 40%. كما أشار أيضاً إلى أن هذه الإحصائيات لا تشمل عدداً كبيراً من الوفيات التي لم تسجل كانتحار، لإنقاذ العائلات من العار الاجتماعي للانتحار.

وقد توصل بتري وبروك (Petrie and Brook, 1992) إلى أن 88,7% من عينة دراستهما أدخلوا المستشفى بسبب جرعة زائدة من العقاقير، وأن 4,7% حاولوا إيذاء أنفسهم، وأن 6,6% حاولوا الانتحار من خلال إطلاق الرصاص على أنفسهم أو القفز من أماكن مرتفعة أو شنق أنفسهم.

وعن الإحصائيات الحديثة في مصر، فقد أسفرت عن أن معدلات الانتحار ومحاولته ارتفعت بشكل كبير، حيث وصلت نسبتها إلى 38 لكل 100,000 في القاهرة، بينما وصلت نسبة الانتحار الفعلي إلى 4 لكل 100,000. كذلك كان 60% من محاولي الانتحار في مصر من الذين تتراوح أعمارهم من 15 إلى 24 سنة، بينما بلغت النسبة لدى طلاب الجامعة 10%. أما عن المشاعر الانتحارية لدى طلاب الجامعة فقد وصلت نسبتها إلى 12,6% (سامي عبد القوي، 1989).

وجدير بالإشارة هنا أن الأرقام والنسب السابق ذكرها لا تعتبر عن الشكل والحجم الحقيقيين للمشكلة، ذلك لأن هنالك عدم دقة في التقديرات الإحصائية عند رصدها لمحاولات الانتحار لأسباب عديدة منها أن كثيراً من حالات الانتحار لا تسجل في المستشفيات، أضف إلى ذلك أن نسبة كبيرة من حوادث الانتحار يتم تسجيلها على أنها مجرد حوادث طارئة.

مما سبق، يتضح أن أهمية المشكل لا تعني مجرد الانتشار المرتفع للظاهرة؛ ذلك لأن النظرية السيكولوجية كما يشير أحمد فائق (1984) تتضمن العملية المرضية في الفرد دون أن تضم في ثناياها كيفية انتشار هذه الظاهرة، وبالتالي فإن الانتشار بحد ذاته ليس هو المعيار الحقيقي لأهمية المشكلة. وإنما تكمن المشكلة في كيفية هذا الانتشار، خاصة إذا وجدنا أن ظاهرة الانتحار لا تنتشر بين الفئات العمرية، وإنما تتركز أكثر ما تتركز في الفئة العمرية 15–24 سنة وفي العشرينات من العمر بوجه خاص، وهي فئة الشباب بكل ما تمثله من قوة لبناء المجتمع وما تمثله أيضاً من مستقبل لهذا المجتمع.

الفروق بين الجنسين في الانتحار

اهتم بعض الدراسات بفحص الفروق بين الجنسين في تصور الانتحار. ولم تتوقف هذه الدراسات عند التوصل إلى نتيجة أن تصور الانتحار يتباين باختلاف الجنس أم لا، وإنما حاولت التعرف إن الفروق القائمة بين الجنسين في محاولات وطرق الانتحار الناجحة، كما حاولت أيضاً التعرف إلى الفروق بين الجنسين في العلاقة بين اليأس والانتحار.

فبالنسبة للفروق بين الجنسين في تصور الانتحار، تناقضت نتائج الدراسات في هذا الشأن، حيث توصل روزنتال (1981) إلى أنه بالرغم من شعور الذكور بالاكتئاب واليأس، إلا أنهم أقل رغبة من الإناث في الاعتراف بالأفكار والمشاعر الانتحارية؛ ذلك لأنهم قد يعتبرون تصور الانتحار علامة على الضعف وعدم الكفاءة في تناول شؤونهم، كما توصل أيضاً إلى أنهم بالرغم من أن الذكور قد عرفوا يأساً شديداً كالإناث، فإن درجات اليأس لم تكن مرتبطة بدرجة مرتفعة بتصور الانتحار لدى الذكور (Rosenthal, 1981)، في حين توصل رود (1989) إلى أنه بالرغم من أن الذكور أكثر محاولة للانتحار من الإناث، فإنه لا توجد فروق جوهرية بين الجنسين في تصور الانتحار.

وعن الفروق بين الجنسين في محاولات الانتحار وطرق الانتحار الناجحة يشير ريتش وزملاؤه (Rich et al., 1992) إلى أن الذكور أكثر دافعية في محاولات الانتحار الناجحة من الإناث، ذلك لأن الذكور يخافون من عدم المرغوبية

الاجتماعية، ويخافون أيضاً من أن يظهروا بمظهر الضعف باعتبارهم انتحاريين. ولهذه الأسباب فإنهم حينما يقومون بمحاولات انتحار فتكون ناجحة غالباً.

كما أشار ريتش وزملاؤه أيضاً إلى أن الذكور يستخدمون الأسلحة النارية والشنق في محاولات انتحارهم، أما الإناث فهن يتناولن العقاقير أو يقطعن الأوردة الدموية بأيديهن في محاولة انتحارهن.

أما بالنسبة للفروق بين الجنسين في قوة العلاقة بين اليأس والانتحار فقد توصل كول (Cole, 1989) إلى أن اليأس متعلق بالانتحار بشكل مباشر لدى الإناث بشكل أكبر منه لدى الذكور، وقد أرجع ذلك لوجود بعض العوامل الإدراكية التي قد تمثل حاجزاً معرفياً Cognitive Buffer بين اليأس والسلوك الانتحاري، وتشمل هذه العوامل الاعتقاد بأن أحداثاً خارجية مثل ترك المنزل والتحرر من الحكم الوالدي وإتاحة الفرصة للاستقلال، وكذلك ترك المدرسة بما تحمله من ضغوط أكاديمية، وهذه العوامل أكثر فعالية لدى الذكور منها لدى الإناث.

ولعل ما سبق يوضح لنا قلة الدراسات التي اهتمت بتناول الفروق بين الجنسين في الانتحار، كما يبدو واضحاً أن هناك تبايناً فيما أسفرت عنه النتائج في بعض الدراسات حول الفروق بين الجنسين في تصور الانتحار، الأمر الذي يعني قابلية الظاهرة وحاجتها لمزيد من البحث في المجتمعات المختلفة عامة.

عوامل المخاطرة للانتحار Risk Factors of Suicide

إن معرفة عوامل المخاطرة للانتحار تمكننا من الوقاية منه؛ وذلك أن الانتحار يعتبر السبب الرئيسي الثالث للموت بين المراهقين والراشدين في الولايات المتحدة الأمريكية ممن تتراوح أعمارهم بين 15–24 سنة (National Center for Health Statistics, 2000).

وفيما يلي نلقي الضوء على عوامل المخاطرة التي كشفت عنها الأدبيات الأجنبية:

1. العوامل البيولوجية Biological Factors

أشار التراث النظري والدراسات السابقة إلى أن الشذوذ في نظام السيروتونين مرتبط بالانتحار وكذلك بالاندفاعية والعدوان. فقد وجد مان وستوف (Man and Stoff, 1997) أن المستوى المنخفض من السيروتونين لدى محاولي الانتحار ينبئ بانتحار مكتمل في المستقبل وقرر بفيفر وزملاؤه (Pfeffer et al., 1998) أن مستوى تريبتو فإن الدوم الكلي Blood Tryptophan كان أقل بدرجة جوهرية لدى الأطفال قبل البلوغ ذوي التاريخ الحديث من محاولة الانتحار. ووجد جرينهيل وزملاؤه (Greenhill et al., 1995) علاقة جوهرية بين مقاييس السيروتونين ومحاولة الانتحار الخطيرة لدى عينة صغيرة من محاولي الانتحار المراهقين من المرضى الداخليين مع اضطراب اكتئابي عظيم.

2. المشكلات الطبنفسية Psychiatric Problems

كشفت الأدبيات الأجنبية في مجال الطب النفسي أن الغالبية العظمى من الشباب الذي أكملوا الانتحار كانت لديهم مشاكل طبنفسية هامة.

وتشمل التشخيصات الطبنفسية لديهم على اضطراب الاكتئاب العظيم والفصام وسوء استخدام الكحول والعقاقير وبعض اضطرابات الشخصية. وبالرغم من أن حوالي 90% من حالات الانتحار تتسم باضطراب نفسي تشخيصي، فإن نسبة صغيرة فقط من الأفراد المصابين بالاضطراب السيكوباثولوجي ينتحرون.

3. العوامل المعرفية Cognitive Factors

يعتبر اليأس من أهم العوامل المعرفية الكامنة وراء سلوك الانتحار. وبناء على ارتباط اليأس بالانتحار لدى الراشدين، فقد تم التسليم بوجود علاقة مماثلة بالنسبة للأطفال والمراهقين. وقد اتضح أن اليأس مرتبط بالانتحار الكامل لدى الشباب، كما ثبت أنه لا بد أن يتوسط الاكتئاب العلاقة بين اليأس والانتحار، وخاصة لدى الشباب الذكور (Shaffer ct al., 1996).

وفضلاً عن ذلك، فقد وجد أن انخفاض القدرة على حل المشاكل الشخصية المتبادلة مرتبط بالانتحار لدى عينات إكلينيكية (Rotheram – Borus et al., 1990).

4. العوامل الأسرية Family Factors

تلعب العوامل الأسرية دوراً هاماً في مخاطرة الانتحار؛ فقد اتضح أن وجود تاريخ لسلوك الانتحار في الأسرة يزيد بشدة من مخاطرة الانتحار المكتملة لدى بعض أفرادها. هذا فضلاً عن أن الاضطراب السيكوباثولوجي لدى الوالدين يمكن أن يزيد من مخاطرة الانتحار لدى الأبناء. والسبب في ذلك غير معروف حتى الآن، ولكنه قد يعكس عاملاً وراثياً (Brent et al., 1994).

كما يلعب الانفصال بين الوالدين أو الطلاق دوراً هاماً في سلوك الانتحار، وخاصة إذا توسط تلك العلاقة وجود اضطراب سيكوباثولوجي لدى الوالدين (Gould and Karmer, 2001).

وقد وجدت الدراسات الإمبريقية اليت أجريت في هذا المجال أن ضحايا الانتحار كان لهم اتصال أقل تكراراً بشكل جوهري وأقل إرضاء مع أمهاتهم أو آبائهم. كما بينت أن ضحايا الانتحار كانوا أكثر احتمالاً لأن يتعرضوا لخصام بينهم وبين الوالدين ويتعرضوا لسوء الاستخدام البدني (Brent et al., 1994). وبصفة عامة، فقد لوحظ انتشار العدوان الأسري لدى الأطفال الانتحاريين المحددين في المجتمع العام (Beautrais et al., 1996).

5. أحداث الحياة الضاغطة Stressful Life Events

أشار التراث النفسي في مجال الانتحار إلى وجود ارتباط جوهري بين ضغوط الحياة كالفقد الشخصي المتبادل (مثل إنهاء علاقة مع رفيق أو رفيقة)

والمشاكل القانونية وبين الانتحار. كما تم تقرير انتشار ضغوط نوعية مختلفة تتفق وطبيعة الاضطراب الباثولوجي لدى ضحايا الانتحار. فقد تقرر الفقد الشخصي المتبادل على نحو متسق مع اضطراب سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً لدى ضحايا الانتحار، بينما ارتبطت المشاكل القانونية بشكل أكثر تلازماً مع اضطرابات التفكير غير المتسق Disruptive Disorders (المزيد من التفصيل، انظر: Guald and Karmer, 2001).

6. العدوى Contagion

ثمة دليل جدير بالاعتبار على أن قصص الانتحار التي تنشر في وسائل الإعلام والتي تشمل مقالات الانتحار، والتقارير الإخبارية في التلفزيون، والمسرحيات القصصية، تتبعها زيادة جوهرية في عدد محاولات الانتحار. ويتناسب حجم الزيادة مع كم النشر المعطى للقصة وبروز القصة في الجريدة (Haviton et al., 2999; Gould, 2001). وقد اتضح أن تأثير قصص الانتحار على الانتحارات المكتملة اللاحقة كان أكثر لدى المراهقين منه لدى الراشدين (Gould and Karmer, 2001).

7. العوامل البيئية الاجتماعية Socioenvironmental Factors

تتمل تلك العوامل في الوضع الاجتماعي الاقتصادي، وقد قرر جولد وزملاؤه (Gould et al., 1996) أن هناك تأثيراً عرقياً فارقياً في المقارنة بين ضحايا

الانتحار لدى الأمريكيين من أصل إفريقي أكبر بشكل جوهري من أمثالهم المجتمع العام.

كما تتمثل العوامل البيئية الاجتماعية في مشاكل المدرسة والعمل. فالغياب عن المدرسة أو العمل يفرض مخاطرة دالة للانتحار (Gould et al., 1996). فالصغار المنحرفون وغير المندمجين مع المدرسة أو مؤسسات العمل يبدو أنهم في مخاطرة جوهرية للانتحار، وقد لوحظ أن انتحارات كثيرة حدثت لدى الأطفال تحت عمر 15 سنة بعد فترة غيبا عن المدرسة، الأمر الذي يوحي بأن العزلة الاجتماعية المرتبطة بالغياب عن المدرسة قد تسهل السلوك الانتحاري (Gould and Karmer, 2001).

وكذلك تتمثل العوامل البيئية الاجتماعية في التوجه الجنسي، وحدوث المثلية الجنسية باعتبارها عامل مخاطرة للانتحار. ففي حصر لطلاب مدرسة مينسوتا العالمية اتضح أن معدل محاولات الانتحار لدى الذكور ذوي المثلية الجنسية والثنائية الجنسية أكبر – وبشكل جوهري – من معدل الانتحار لدى الذكور ذوي الغيرية الجنسية (Faulkner and Cranston, 1998).

التوجهات النظرية المفسرة للانتحار

تتعدد أسباب الانتحار. ويرجع ذلك الأمر إذا اختلاف التوجهات النظرية التي اهتمت بتفسير ظاهرة الانتحار، وأسبابها وعوامل نشأتها. وسوف نوضح التفسيرات النظرية لظاهرة الانتحار على النحو التالي:

أولاً: التفسيرات النفسية

1. تفسيرات نفسية ذات اتجاه تحليلي

ينظر المحللون النفسيون للانتحار باعتباره ظاهرة نفسية داخليـة، وباعتبـاره راجعـاً إلى اضـطراب العلاقـات البينشخـصية. وفيمـا يلـي التفـسيرات التحليليـة للانتحار:

أ. الانتحار باعتباره ظاهرة نفسية داخلية

وهنا يتم تفسير الانتحار على أساس وجود ألم نفـسي لا يحتمـل، ويكـون هذا الألم شعورياً. فحينما يكون الموقف غـير محتمـل ويريـد الـشخص اليـائس أن يخرج منه فيلجأ إلى الانتحار. وهـذا مـا لاحظـه مـوراي (Murray, 1967) مـن أن للانتحار وظيفة ، فبه يريد الفرد أن يلغي توتراً مؤلماً له، وهو يقدم شفاء من معاناة غير محتملة (Leenaars, 1996: 224).

كما يفسر الانتحار طبقاً للـتقلص المعـرفي Cognitive Contraction، الـذي يـشير إلى الجمـود في الـتفكير، وصـعوبة التركيـز، والرؤيـة المعتمـة. فالـشخص الانتحاري – من الناحية المجازية – يكون مسمماً أو مخدراً بالتقلص، ولا يبدي عن اللحظة التي تسبق موته سوى تـشوشات Perturbations خاصـة بـصدمة أو جـرح (مثل الفشل في العمل والـصحة الـسيئة ورفـض مـن الأفـراد القـريبين منـه. وفي مواجهة الصدمة يصبح الحل هو التقلص المعرفي الذي يمثل أخطـر أشـكال العقـل الانتحاري (Leenaars, 1997: 23).

كما يفسر الانتحار طبقاً للتعبيرات غير المباشرة Indirect Expressions. فالشخص الانتحاري يتسم بثنائية الوجدان، ليس بالنسبة للحب والكراهية فحسب، ولكن قد يكون هناك صراع بين البقاء والألم غير المحتمل. ويخبر الشخص الانتحاري إذلالاً، وخضوعاً، وولاءً، وطاعة، أو ضرباً بالسياط، وحتى مازوخية في بعض الأحيان، وعلاوة على ذلك لا يكون الشخص الانتحاري شاعراً سوى بجزء من العقل الانتحاري، وتكون القوى الحافزة للانتحار هي قوى لا شعورية إلى حد كبير (Leenaarns and Lester, 1996: 3).

كذلك يفسر الانتحار باعتباره راجعاً إلى ضعف الأنا Weak Ego، حيث تحدد (الأنا) باعتبارها جزء العقل الذي يتفاعل مع الحقيقة وله إحساس بالفردية. وبناء على ذلك، فقوة الأنا عامل وقائي ضد الانتحار، أما ضعف الأنا فيرتبط على نحو إيجابي مع خطورة الانتحار. فالأشخاص الانتحاريون يُبدون على نحو متكرر ضعفاً نسبياً في قدرتهم على تنمية ميول تشييدية والتغلب على صعوباتهم الشخصية، ويرجع ضعف (الأنا) إلى أحداث الحياة الجارحة (مثل: الخسارة والرفض والفشل) (Leenaars, 1997: 23).

ب. الانتحار كاضطراب في العلاقات البينشخصية

إن الشخص الانتحاري لديه مشاكل في تأسيس علاقة بينشخصية أو الإبقاء عليها فيوجد على نحو متكرر موقف بينشخصي غير محتمل (نكبة سائدة)، وبما كان النمو الإيجابي في تلك العلاقات المضطربة هو الحل الوحيد للاستمرار في الحياة، ولكن مثل هذا النمو كان يُرى باعتباره لم يحدث، فتحبط الحاجات النفسية

للإنسان، ويُقدم الفرد على الانتحار بسبب إحباط الحاجات النفسية على نحو بينشخصي (Leenaars, 1996: 223).

كما يفسر الانتحار – أيضاً – وفقاً لغرض الرفض – العدوان Rejection – Aggression Hypothesis، حيث يعتبر الفقد Loss أمراً أساسياً في الانتحار، فالفقد غالباً ما يكون رفضاً يُخبر باعتباره هجراً. إنه إيذاء نرجسي غير محتمل، وإيذاء يؤدي إلى كراهية موجهة نحو الآخرين، ولوم للذات. وباعتباره أن الشخص الانتحاري يتسم بثنائية وجدانية عميقة، وفي نطاق تلك الثنائية، فقد يصبح الانتحار نكوصاً إلى دوافع قاتلة للذات، وقد يكون الانتحار عدواناً محجوباً (Leenaars, 1997: 23).

ووفقاً لفرض التوحد – الخروج Identification – Egression Hypothesis، فقد اقترح (فرويد) أن التوحد الشديد مع شخص مفقود أو مرفوض، أو كما وضح زيلبورج Zilboorg، التوحد مع (الحياة العملية – الحرية – الصحة) على سبيل المثال يكون حاسماً في فهم الشخص الانتحاري. ويحدد التوحد بأنه ارتباط (صلة) قام على رابطة انفعالية هامة مع شخص آخر (موضوع). وإذا لم تتحقق هذه الحاجة الانفعالية، فإن الشخص الانتحاري يخبر ألماً عميقاً (عدم الراحة) ويريد أن ينبثق؛ بمعنى أن يترك، أو يخرج، أو يغادر ليكون ميتاً (Leenaars, 1997: 23).

تفسيرات نفسية ذات اتجاه غير تحليلي

تتميز تلك التفسيرات عن التفسيرات التحليلية في أنها لا تفترض وجود مجموعة من الديناميات النفسية أو سيناريو لا شعوري شامل، ولكنها تؤكد على مظاهر نفسية معينة تبدو ضرورية لوقوع حدث الانتحار المهلك، وتتمثل تلك المظاهر في الآتي:

1. تشوش حاد Acute Perturbation؛ أي زيادة في حالة الاستياء العامة لدى الفرد.
2. عدائية مرتفعة، وزيادة في إنكار الذات، وكراهية الذات، والإحساس بالعار، والشعور بالذنب، ولوم الذات.
3. زيادة حادة وفجائية في انخفاض التركيز العقلي، وتقليل عمليات التفكير، وتضييق المحتوى العقلي، وضعف القدرة على رؤية اختيارات حيوية يمكن أن تحدث على نحو عادي للعقل.
4. فكرة التوقف والاستبصار الذي يمكن أن يضع نهاية للمعاناة بتوقف الانسياب غير المحتمل. ويفهم الانتحار في هذا السياق ليس كحركة نحو الموت (أو التوقف)، ولكن يفهم كنوع من الهروب من انفعال لا يحتمل (Motet, 1996: 886).

ثانياً: التفسيرات الاجتماعية للانتحار

إن تناول ظاهرة الانتحار باعتبارها ظاهرة نفسية بحتة يجعل المشكلة أحادية البعد، ويعزل الفرد كجهاز مغلق عن بقية المثيرات الاجتماعية التي تحيط بـه والـتي تؤثر فيه بما قد يدفعه إلى السلوك الانتحاري كما يحدث لدى الكثيرين. وعلى هذا الأساس قام علماء الاجتماعي بتقديم تفسيرات اجتماعية لظاهرة الانتحار.

فقد ذهب إميل دور كـايم (E. Durkheim, 1897) إلى أن ظـاهرة الانتحـار اجتماعية ترتبط أساساً بالنظام الاجتماعي وما يطرأ عليه من ظروف تغير مفاجئة، أو ما يجري على الجماعـات الاجتماعيـة. وقـد اقـترح (دور كـايم) أربعـة أنـواع للانتحار جميعها تؤكد على قوة أو ضعف علاقات الـشخص أو روابطـه بـالمجتمع. فالانتحار الأناني Egoistic Suicide يحدث حينما تكون للفـرد روابـط قليلـة جـداً بالمجتمع ولم تحقق له مطالب الحيـاة. ويحـدث الانتحـار الإيثـاري Altuistic حينمـا تكون للشخص روابط اجتماعية قوية جداً لدرجـة أنـه يـضحي بنفـسه مـن أجـل الجماعة. ويحـدث الانتحـار اللامعيـاري Anormic Suicide حينمـا تـتحطم فجـأة العلاقة المعتادة بين الفرد والمجتمع، مثل وقوع صدمة أو فقد مباشر للعمل، أو فقـد صديق حمـيم أو ثـروة. ويحـدث الانتحـار الجـبري Fatalistic Suicide مـن تنظـيم متزايد يُفرض على الأشخاص مثل العبيد حين لا يرون بـصيص أمـل للحريـة في المستقبل (Wierzbicki, 1998: 601).

ويشير دوجلاس Douglas – الذي اختلف مع وجهة نظر دوركـايم – إلى أن المعاني الاجتماعية للانتحار تختلف بشدة، فكلما تكاملـت المجموعـة علـى نحـو اجتماعي أكبر زاد اشمئزازها من الانتحـار، كمـا يمكـن أن تـصبح ردود الأفعـال

الاجتماعية للسلوك الانتحاري نفسها جزءاً من أسباب التصرفات ذاتها التي تسعى المجموعات لضبطها. ويعتقد ماريس Maris أن النظرية المنهجية للانتحار يجب أن تتضمن أربع فئات واسعة على الأقل من المتغيرات: تلك التي تخص الشخص، والسياق الاجتماعي، والعوامل البيولوجية، والسلطة السياسية (Through: Motet, 1996: 886).

العلاقة بين الانتحار وبعض المتغيرات النفسية

يعتبر الاكتئاب من أهم العوامل المرتبطة بالانتحار، ويُعد الاكتئاب من أكثر الشخيصات النفسية المرتبطة بالانتحار؛ إذ إن المكتئب شخص محبط ورافض للحياة. وينتحر حوالي (15%) ممن لديهم اكتئاب شديد، وبين المنتحرين لوحظ أن (80%) منهم كانوا يعانون من الاكتئاب، كما لوحظ أن (25%) من المنتحرين كانوا مدمنين، حيث يطلق إدمان بعض المواد المثبطات لدى المرضى المكتئبين فيجعلهم يقدمون على الانتحار (محمود حمودة، 1990).

وبالرغم من أن غالبية حالات الانتحار قد لا تقع ضمن أي تصنيف مرضي معين، فإن الاضطرابات الاكتئابية، واضطرابات الهوس، والقلق، واضطرابات الذعر، وغير ذلك من الاضطرابات النفسية تكون متعلقة ببعض أشكال الانتحار. ويعتبر الاكتئاب أكثر الاضطرابات النفسية تكراراً لدى محاولي الانتحار (Leenaars, 1997: 22).

وهذا ما أشار إليه ويرزبيكي (Wierzbicki, 1998: 613) من أن محاولة الانتحار مرتبطة بمتغيرات سلوكية ونفسية معينة مثل الاكتئاب، والشعور بالوحدة

النفسية، وضغوط الحياة الشديدة، والألم أو المرض، والفقد الحديث لأي شخص أو شيء عزيز، واستخدام المخدرات والكحول.

وفي تتبع طويل المدى وجد أن (15%) من الأفراد المكتئبين يقتلون أنفسهم في النهاية، كما لوحظ أن (60%) تقريباً من حالات الانتحار ترجع إلى الاكتئاب أو الاكتئاب المصحوب بسوء استخدام الكحول (Beach, 1998: 201).

وفي إطار الدراسات الإمبريقية التي أجريت للتحقق من جوهرية العلاقة بين الانتحار والاكتئاب، أجرى ديك (Dyck, 1991: 360 – 373) دراسة بهدف التعرف إلى الاتجاهات الإيجابية والسلبية التي تكمن وراء تصور الانتحار. وطبق الباحث مقياس بيك للاكتئاب، ومقياس تصور الانتحار، ومقياس اليأس، وقائمة أسباب الحياة، على عينة قوامها 128 من طلاب الجامعة ()48 ذكراً و8 أنثى). وأسفرت النتائج عن وجود ارتباط موجب جوهري بين الاكتئاب وكل من اليأس وتصور الانتحار، بينما ارتبطت أسباب الحياة ارتباطاً سالباً جوهرياً بكل من اليأس، والاكتئاب، وتصور الانتحار.

ويبدو أنه يوجد ارتباط موجب جوهري بين الاكتئاب وكل من اليأس وتصور الانتحار. وعلاوة على تلك العلاقة القوية بين الاكتئاب والانتحار، فإن الاكتئاب يعتبر من أقوى المنبئات بالانتحار. وهذا أشارت إليه غالبية نماذج العوامل المتعددة المراجعة حيث حُدد الاكتئاب باعتباره أفضل منبئ بتصور الانتحار (Zhang, 1996: 176).

وقد أجريت عدة دراسات إمبريقية للتحقق من صحة هذا الافتراض النظري. ومن هذه الدراسات تلك الدراسة التي أجراها ليستر وعبد الخالق

(Lester and Abdel-Khalek, 1998: 280 – 283) على عينتين من طلاب الجامعة، إحداها عينة أمريكية (ن = 183)، والثانية عينة كويتية (ن = 222). وطبق الباحثان قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس بيك لليأس، وتم سؤال الطلاب عن الأفكار الانتحارية التي راودتهم في الماضي وتراودهم في الحاضر، بالإضافة إلى استخدام بعض المقاييس الأخرى. وتوصلت الدراسة إلى نتائج عديدة تشير في مجملها إلى وجود مستوى من الأفكار الانتحارية لدى الطلاب الكويتيين أكثر منها لدى الطلاب الأمريكيين، وقد تنبأ الاكتئاب أكثر من المتغيرات الأخرى وبشكل جوهري بتصور الانتحار لدى كل من العينة الأمريكية والعينة الكويتية.

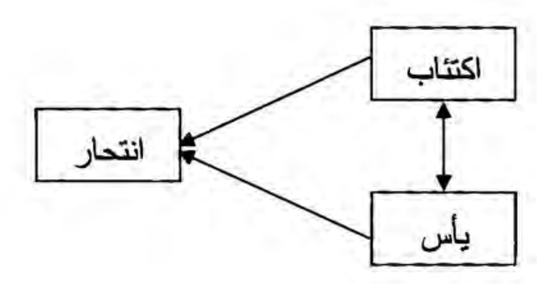
ويبدو أن الاكتئاب كمنبئ بتصور الانتحار يمكن تعميمه عبر الثقافات بالنسبة للعينات غير الإكلينيكية، وخاصة طلاب الجامعة.

كذلك تم التحقق من الافتراض النظري السابق لدى عينة من طلاب المدارس الثانوية في الدراسة التي أجراها دي مان (De Man, 1990: 105 – 114) والتي هدفت إلى فحص المتغيرات النفسية والاجتماعية المرتبطة بتصور الانتحار، حيث طبق الباحث قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس تقدير الذات، وقائمة مسح خبرات الحياة، واستخبار المساندة الاجتماعية، على عينة قوامها (754) من طلاب المدارس الثانوية (372 ذكراً و382 أنثى). وأسفرت النتائج عن أن عزل تأثير الاكتئاب أدى إلى تضاؤل حجم الارتباط بين تصور الانتحار وكل من تقدير الذات، وأحداث الحياة، والمساندة الاجتماعية.

كما تم التحقق من هذا الافتراض النظري لدى عينة من المسجونين، وذلك من خلال الدراسة التي أجراها دير (Dear, 2000: 77 – 80) على عينة قوامها

(107) من المسجونين، طبق عليهم مقياس بيـك للاكتئـاب، ومقيـاس الاندفاعيـة المختلفـة وظيفيـاً Dysfunctional Impulsivity Scale، ومقيـاس تـصور الانتحـار. وأسفرت النتـائج عـن وجـود ارتبـاط موجـب جـوهري بـين الاكتئـاب وتـصور الانتحار بعد عزل درجات الاندفاعية المختلفة وظيفيـاً، بينمـا جـاء الارتبـاط غـير جوهري بين الاندفاعية المختلفة وظيفياً وتصور الانتحار حينمـا تم عـزل درجـات الاكتئاب.

وإن كان الاكتئاب يعتبر أقوى منبـئ بتـصور الانتحـار مقارنـة بـالمتغيرات النفسية الأخرى في الدراسات، فإنّ هذا الأمر أثار جدلاً كبيراً بين الباحـث حيـث لا بد أن يصاحب اليأس الاكتئاب حتى تزداد احتمالية وقول الانتحار، وهـذا مـا يبدو واضحاً في الشكل التالي:



أثر التفاعل المشترك بين الاكتئاب واليأس في ازدياد احتمالية الانتحار

يتضح من الشكل أنه كلما كان اليأس ملازماً للاكتئاب، وتفاعلاً معاً، فإن هذا من شأنه أن يزيد من درجة الانتحار بشكل أكثر مقارنة بتأثير أحدهما فقط على الانتحار (Colc, 1989, 23).

مما سبق تتضح أهمية وجود متغير اليأس لدى الفرد المكتئب حتى يقدم على الانتحار. والأكثر من ذلك أنه ليس كل فرد مكتئب يمكن أن يقدم على الانتحار إلا إذا استشعر اليأس بشكل كبير. وهذا أكده التراث النفسي في مجال الانتحار حيث اتضح أن له تأثيره بالنسبة للعلاقة بين الاكتئاب ونية الانتحار، وأن اليأس أقوى تأثيراً في نية الانتحار إذا قورن بالاكتئاب (Salter and Platt, 1990).

وللتحقق إمبريقياً من الافتراض السابق، أجريت دراسة عام (1998) كان الهدف منها فحص العلاقة بين كل من الاكتئاب واليأس وتصور الانتحار. وتم تطبيق قائمة بيك للاكتئاب، ومقياس اليأس، ومقياس تصور الانتحار، على عينة قوامها (324) من طلاب الجامعة (162 ذكراً – 162 أنثى). وأسفرت النتائج عن أن درجة تصور الانتحار تزداد بفعل التأثير المشترك لكل من الاكتئاب واليأس لدى مجموعتي الذكور والإناث، وأنه عند عزل اليأس عن العلاقة بين الاكتئاب وتصور الانتحار تراجعت قيمة معامل الارتباط بشكل ملحوظ لدى مجموعة الإناث دون مجموعة الذكور، بينما لم تتغير العلاقة بين اليأس وتصور الانتحار عند عزل تأثير الاكتئاب سواء لدى مجموعة الذكور أو لدى مجموعة الإناث.

وإذا كان الدراسة السابقة تحققت من الدور الذي يلعبه اليأس في الانتحار، فإن تلك الدراسة أجريت على عينة غير إكلينيكية، وهذا الأمر يحتاج إلى

إجراء دراسة على عينات إكلينيكية حتى يكتمل وصف الدور الذي يلعبـه اليـأس بالإضافة للاكتئاب في الانتحار.

وهذا ما تحققت منه الدراسة التي أجراها دوري وأوفرهولـستر (Dori and Overholster, 1999: 309 – 318) على عينة مكونة من ثلاث مجموعـات إكلينيكيـة هـي: (1) مجموعـة مـن المـراهقين المكتـئبين (ن = 34)، (2) مجموعـة المـراهقين المتكئبين الذين حاولوا الانتحار مرة واحـدة في حيـاتهم (ن = 24)، (3) مجموعـة امراهقين المكتئبين الذين حاولوا الانتحار عدة مـرات خـلال حيـاتهم (ن = 34). وطبق الباحثـان كـلاً مـن مقيـاس تقـدير الـذات، ومقيـاس اليـأس وقائمـة بيـك للاكتئاب. وأسفرت النتائج عن أن المجموعات الثلاث أظهرت مستويات منخفضة من تقدير الذات. كما أوضحت النتائج أن المراهقين الانتحاريين قد خبروا اكتئابـاً ويأساً شـديدين علـى نحـو جـوهري مقارنـة بمـا خـبره المراهقـون المكتئبـون غـير الانتحاريين.

ويتضح من العرض السابق للدراسات التي تناولت العلاقة بين الانتحار – كعدوان مباشر موجه ضد الذات – والاكتئاب، أنها تحققت من تلك العلاقة لدى عينات كبيرة وبأدوات سيكومترية، ولكنهـا لم تتطـرق إلى فهـم تلـك العلاقـة مـن خلال فحص الديناميات النفسية التي تقف وراء تلك العلاقة لدى حالات فرديـة؛ فالاكتئاب – كما يرى أنصار التحليل النفسي – ما هو إلى حنـق وغـضب بـسبب الإحباط أو خيبة الأمل في إشـباع الحاجـة للحـب، وهـو غـضب يتحـول بـسبب ميكانيزمات الدفاع التي يقوم بها الفرد للدفاع عن الذات عند وجود أي تهديد لها، وكأن لسان حال الشخص يقول لموضوع الحب: «ما دامت لا تحبني فأنا أكرهـك»،

ولكني لا أستطيع أن أصرح أو حتى أعترف بكراهيتي لك (بفعل الإحساس بالذنب والصرامة في بناء الأنا العليا)، وإذن «فإنني أنا الجدير بالكراهية، وأستحق الكراهية والعقاب سبب عيوبي، وأوجه القصور لدي» (عبد الستار إبراهيم، 1998: 97). وإذا وجهنا النظر إلى الكراهية في صورتها الفجة المدمرة، وجدنا الإنسان الكاره محطماً لغيره، وفي ظروف بعينها محطماً لنفسه، إذا لم يسعفه الحب فيسانده في تلطيف حدة الكراهية. وفي هذه الظروف يتخلق الاكتئاب في صوره المتدرجة من الاكتئاب العصابي الطفيف إلى الاكتئاب الميلانخولي الذهاني الذي قد ينتهي بالإنسان إلى الانتحار. (مصطفى زيور، 1986: 175)

وفي إطار فحص العوامل السيكودينامية التي تقف وراء الانتحار أجرى لينارس (Leenaars, 1997: 15–27) دراسة بهدف فحص تاريخ حالة فرد راشد منتحر. وكشفت الدراسة أن ذلك الراشد كان يعاني ألماً عميقاً وكان غير قادر على التوافق مع متطلبات الحياة، كما اتسم بضعف (الأنا)، وكانت علاقته البينشخصية بعائلته مضطربة.

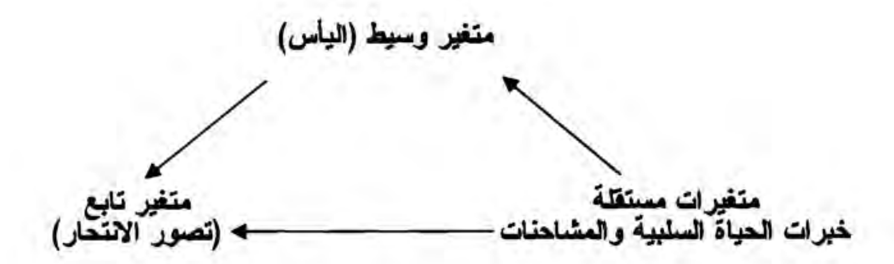
إضافة إلى ما سبق، نجد أنه إذا كان للذات أن تتماسك، لتبقى على تكاملها في ظروف الضغط، فإن قلقاً بسيطاً معيناً خاصاً باحترام الذات الإيجابي يجب الإبقاء عليه. وحينما يفقد هذا القدر الأدنى من تقدير الذات الإيجابي أو حب الذات (النرجسية)، فإنه يلي تلك الخبرة الاستسلام للانتحار. فبدون مستوى أساسي للنرجسية، نجد أن المريض المكتئب يسحب أي اهتمام بنفسه، لدرجة تؤدي إلى حدوث نوع من الهجر الداخلي، وتترك الذات بدون مأوى من الرياح

المريرة لاحتقار الذات. وغالباً يأتي الانتحار حينما يشعر المريض بأن الحياة لا تستحق النضال من أجلها.

وقد دعم ذلك الافتراض النظري مالتسبرجر، (Maltsberger, 1997: 28 – 33) في دراسته التي أجريت بهدف التعرف إلى دور الثقافة والأنا المثلى في الانتحار. وأجريت دراسة متعمقة على حالة فرد راشد من محاولي الانتحار. واتضح وجود صراع مع زوجته التي جاءت من ثقافة مختلفة عن ثقافته، ولم تشاركه قيمة الزواجية والعائلية، وحينما تركته دُمر، ليس فقط بفقد عائلته، ولكن بهدم نظرته المثالية عن ذاته كزوج ووالد، وتبع ذلك محاولة الانتحار.

ويتضح من الدراسة السابقة أن ضغوط الحياة التي يعاني منها الراشد المنتحر أثارت لديه بعض المشاعر الاكتئابية (الهجر – الفقد) التي أدت إلى الانتحار في النهاية.

وهكذا تبزغ ضغوط الحياة كأحد المتغيرات التي إذا تفاعلت سواء مع الاكتئاب أو مع اليأس فإنها سوف تؤدي إلى الانتحار، وهذا ما أقره التراث النظري في مجال الانتحار؛ إذ إن المشاحنات Hassles وأحداث الحياة السلبية ترتبط بكل من اليأس وتصور الانتحار، ويتوسط اليأس العلاقة بين تصور الانتحار وكل من المشاحنات وأحداث الحياة السلبية. ويمكن تمثيل هذه العلاقة كما في الشكل التالي:



نموذج بيك لليأس

يتضح من الشكل أن كلاً من المشاحنات وخبرات الحياة السلبية (كمتغيرات مستقلة) تؤدي إلى اليأس (كمتغير وسيط) الذي ينتج عنه تصور الانتحار (كمتغير تابع) (Yang and Clum, 1994: 133).

وللتحقق من صحة هذا الافتراض النظري، أجرى يانج وكلوم (Yang and Clum, 1994: 127 – 139) دراسة على عينة قوامها (1.1) من طلاب الجامعة الآسيويين المقيمين في أمريكا (73 ذكراً و28 أنثى) تراوحت أعمارهم بين 18 – 40 سنة، بمتوسط عمري مقداره 23,4 سنة، وانحراف معياري بلغ 4,4 سنة. وطبق الباحثان كلاً من مقياس بيك لتصور الانتحار، ومقياس زونج للاكتئاب، ومقياس مسح خبرات الحياة، ومقياس المساندة الاجتماعية. وأسفرت النتائج عن وجود ارتباط موجب جوهري بين تصور الانتحار وكل من الاكتئاب واليأس. كما أوضحت النتائج مجموعة من العوامل المرضية التي تؤثر في هذه

العلاقة مثل ارتفاع مستوى الضغوط، وانخفاض المساندة الاجتماعية، وافتقاد الثقة في حل المشاكل، واليأس.

وعلى غرار الدراسة السابقة أجرى ستيوارت وآخرون (Stewart et al., 1999: 227–240) دراسة على عينة قوامها (996) من المراهقين الصينيين، طبقت عليهم قائمة بيك الصينية للاكتئاب (C BDI)، كما قومت سلسلة واسعة من الضغوط كمنبئ بمستوى التفكير الانتحاري. وأسفرت النتائج عن أن التفاعل المشترك بين مستوى الضغوط والاكتئاب قد تنبأ بالانتحار بنسبة 33% من التباين الكلي. وكان الاكتئاب أكثر تنبؤاً بتصور الانتحار لدى الذكور منه لدى الإناث، بينما كان التفاعل بين الاكتئاب والضغوط الوالدية أكثر تنبؤاً بتصور الانتحار لدى الإناث منه لدى الذكور.

ونستنتج بصفة عامة أن العلاقة بين الانتحار – كعدوان مباشر موجه ضد الذات – والاكتئاب هي علاقة معقدة تماماً. ويوحي التراث النفسي بما يتضمنه من دراسات سابقة بأن الأفراد الذين يقومون بمحاولات انتحار فاشلة – مثل أولئك الذين يكملون الانتحار – يشملون نسبة كبيرة م نالمرضى الذين يعانون من الاكتئاب أحادي القطبية وثنائي القطبية، وأن معظم الشباب ذوي الأفكار الانتحارية يعانون بشدة من أعراض الاكتئاب. وهكذا فإن الأفكار والسلوكيات الانتحارية متعلقة بشدة بالاكتئاب.

وبالرغم من قوة العلاقة بين الانتحار والاكتئاب، فإن الاكتئاب لا يؤدي دائماً إلى أفكار وأشكال انتحارية. وهذا ما أقره لوينزون وآخرون (Lewinsohn et al., 1996) من أنّ 40% من المراهقين ذوي الاكتئاب المشخص سيكاترياً لا

يقررون تفكيراً انتحارياً. ويقرر شافر وباكون (Shaffer and Bacon: 1989) أنـه في كل 600 مراهق مكتئب من الذكور يوجد فرد واحد فقط يقـوم بمحاولـة انتحـار. وقد يرجع ذلك إلى وجود متغيرات أخرى تتفاعل مـع الاكتئـاب لزيـادة احتمـال القيام بمحاولة الانتحار، ومن هذه المتغيرات: اليأس، وضـغوط الحيـاة، وانخفـاض المساندة الاجتماعية، وضعف القدرة على الحل الفعال للمشكلات.

علاوة علـى مـا سبق، فـإن مـتغير النـوع يلعـب دوراً رئيـسياً في تفاعـل الاكتئاب مع المتغايرات النفـسية الأخـرى، الـذي مـن شـأنه أن يزيـد مـن درجـة احتمالية الانتحار. فالتفاعل المـشترك بـين الاكتئـاب وأي مـن اليـأس أو ضـغوط الحياة من شأنه أن يزيد من درجة تصور الانتحار لدى الإناث دون الذكور.

مشكلة الاكتئاب

Depression

انتشار الاكتئاب

يعاني الناس في الحياة المعاصرة من الاكتئاب بصورة أكبر مما كـان النـاس يعانون منه في الماضي وفي المجتمعات السابقة، لدرجة أنه يحلـو لكـثير مـن الكتـاب والأدباء أن يصفوا هذا العصر بأنه عصر الاكتئاب (عبد الستار ابـراهيم، 1998)، فكل شخص على وجـه التقريـب يـصاب بالكآبـة أو اليـأس في بعـض الأحيـان. والشعور بالحزن أو الغم هو جزء عادي من طيف الانفعال البشري.

ويلاحظ الاكتئاب في جميع الطبقات الاجتماعية والأجنـاس. وهـو شـامل جداً لدرجة أنه يسمى إنفلونزا الأمراض العقلية، وهـو شـائع لـدى النـساء مثلـي شيوعه لدى الرجال. كما يوجد الاكتئاب لدى الأفراد في جميع المهن، ولكنـه أكثـر ما يكون شيوعاً لدى الأفراد في مجالي الفنون والإنسانيات (Beach, 1998).

تشير الدراسات المـسحية في مجـال الاكتئـاب إلى أن حـوالي (12%) مـن المجتمع الأمريكي يعانون من الاكتئاب لمدة تزيد على سنة. كما توصلت الدراسات إلى وجود مخاطرة لتطور الاكتئاب بنسبة تتراوح بين (8% - 12%) لدى الرجال، وبين (20% - 26%) لدى النساء (Montgomery, 1991). ووفقاً لتقريـر صـادر عن رابطة علم النفس الأمريكية، فإن 7 ملايـين امـرأة و3.5 مليـون رجـل علـى

الأقل يمكن أن يشخصوا باعتبارهم يعانون من اكتئاب عظيم Major depression ، ويمكن أن تشخص أعداد مماثلة بالديسثيميا Dysthymia علماً بأن الاكتئاب العظيم والديسثيميا منتشران لدى طلاق الجامعة بأعداد تصل إلى مثلي الأعداد السابقة (Clay et al., 1993).

وعلى عكس ما متداول من أن الاكتئاب أكثر شيوعاً بين المسنين، فإنه في الواقع أكثر ما يكون شيوعاً في سنوات العمر من 25 إلى 40 عاماً. والأفكار الانتحارية شائعة لدى المكتئبين؛ فقد أوضحت الدراسات أن (60%) من حالات الانتحار ترجع إلى الاكتئاب أو الاكتئاب المصاحب لسوء استخدام الكحول (Beach, 1998).

والاكتئاب ليس كما يعتقد البعض – خطأ – ظاهرة أمريكية أو غربية، بل يصيب كل المجتمعات، وينتشر فيها بنسب متفاوتة، ويتزايد في تلك المجتمعات العمرية من جيل إلى جيل. وقد أخذ الاكتئاب يوسع من قاعدته العمرية؛ بمعنى أن الاصابة به بدأت تنتشر الآن في الأعمار الصغيرة، وبدأنا نلاحظ في السنوات الأخيرة تعبيرات منتشرة عن وجود ما يسمى "اكتئاب الأطفال" (عبد الستار إبراهيم، 1998).

أعراض الاكتئاب

اتفق الباحثون بصفة عامة على مجموعة من الأعراض المرتبطة بالاكتئاب. فالاكتئاب يعبر عن مجموعة من الأعراض المركبة التي تتمثل في أربع فئات أساسية هي:

1- أعراض المزاج Mood Symptoms

وتعتبر تلك الأعراض بمثابة الشكل المحدد والأساسي للاضطرابات الوجدانية، مثل وجود مزاج حزين معظم اليوم تقريباً كل يوم لمدة أسبوعين على الأقل.

2- الأعراض الدافعية Motivational Symptpms

وتمثل الأشكال السلوكية التي تصاحب الاكتئاب. فالناس المكتئبون غالباً ما يعانون من قصوراً في هذا المجال، وقد يجد البعض صعوبة شديدة في القيام بأدنى عمل.

3- الأعراض البدنية Somatic Symptoms

وتشير إلى التغيرات الجسمية التي قد تصاحب الاكتئاب، وتشمل تغيرات في أنماط النوم والشهية والرغبة الجنسية.

4- الأعراض المعرفية Cognitive Symptoms

وتشير إلى تدني قدرة الأفراد المكتئبين على التركيز واتخاذ القرار، وانخفاض تقييمهم لأنفسهم (Ingram, 1994).

ويلاحظ من عرض الفئات الأربع السابقة لأعراض الاكتئاب أنها أغفلت جانب العلاقات الاجتماعية في حياة الفرد المكتئب. وهذا عالجه سترونجمان (Strongman, 1996) الذي نظر للاكتئاب بصفته يتضمن خمس مجموعات من الخصائص هي:

1- مزاج حزين وفتور في الشعور، 2- مفهوم سلبي عن الذات يتضمن تأنيب الذات ولومها، 3- رغبة في تجنب الأشخاص الآخرين، 4- فقدان الشهية والرغبة الجنسية، 5- تغير في مستوى النشاط في اتجاه الكسل، وأحياناً في شكل استثارة.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن أعراض الاكتئاب قد تختلف من فرد إلى آخر؛ فالبعض قد يتخذ لديهم الاكتئاب شكل أحاسيس قاسية من اللوم وتأنيب الضمير، ويجيء لدى البعض الآخر مختلطاً مع شكاوى جسمانية وأعراض بدنية بصورة لا تعرف معها الحدود بينها. ويعبر البعض عنه في شكل مشاعر اليأس والتشاؤم والملل السريع من الحياة والناس. وربما تجتمع كل هذه الأعراض معاً في شخص واحد، وقد تتوزع هذه الأعراض وتختلط مع غيرها من الأعراض النفسية والبدنية (عبد الستار إبراهيم، 1998).

وعلى صعيد آخر، نجد أن أعراض الاكتئاب تختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر، وهذا يسمى الاكتئاب القومي National Depression ؛ فقد أشارت البحوث إلى أن كثيراً من الأعراض المرتبطة بالاكتئاب في العالم الغربي ليست جزءاً من الخبرة الاكتئابية في الثقافات غير الغربية، خاصة أعراض الشعور بالذنب، والإحساس باليأس، وتقدير الذات السلبي. وعلى النقيض، يبدو أن الشعوب غير الغربية- مثل مصر- قد يظهر الاكتئاب لديها في شكل أعراض بدنية أو فقدان الشهية، الأمر الذي يجعل المرضى يلجأون في البداية إلى الطبيب البشرية (Mersella, 1996; Ibrahim and Alnafie, 1991). ويتضح من العرض السابق

لأعراض الاكتئاب مدى تنوع الأعراض وتباينها من فرد لآخر، ومن مجتمع لآخر، ومن ثقافة لأخرى.

سلسلة الاكتئاب

يبدأ الاكتئاب عادي، ثم يليه اكتئاب اكلينيكي فرعي، وينتهي باكتئاب اكلينيكي. فيشير الاكتئاب العادي Normal Depression إلى تقلبات المزاج التي يمّر بها كل فرد، ويعبر عنها عادة في صورة مشاعر من الحزن. أما الاكتئاب الاكلينيكي الفرعي Subclinical Depression فيشير إلى شكل أكثر شدة من الاكتئاب العادي. ويشير الاكتئاب الاكلينيكي Clinical Depression إلى اكتئاب شديد إلى حد يتطلب التدخل والعلاج، ويتسم الاكتئاب الاكلينيكي بأربع سمات هي: 1- ارتفاع حدته، 2- استمراره لفترات طويلة، 3- إعاقة الفرد بدرجة جوهرية عن أداء نشاطاته وواجباته المعتادة، 4- عدم وضوح الأسباب التي تثير الشخص المكتئب (Ingram, 1994 ؛ عبد الستار إبراهيم، 1998).

الاكتئاب أحادي القطبية والاكتئاب ثنائي القطبية

إن أحد التصنيفات المتفق عليها على نطاق واسع هو التمييز بين التصنيفات أحادي القطبية Unipolar Depression والاكتئاب ثنائي القطبية Bipolar Depression كنوعين من أنواع الاكتئاب الاكلينيكي.

فيشير الاكتئاب أحادي القطبية إلى اضطراب يتسم بحدوث نوبة اكتئاب عظمى واحدة أو أكثر بدون نوبات هوس (Beach, 1998) .

ويشير دليل التشخيص الاحصائي الثالث المراجع (DSM-III-R, 1987) إلى أنه لابد لاعتبار الاكتئاب أحادي القطبية من وجود خمسة أعراض على الأقل من الأعراض التسعة التالية، يشترط أن تستمر لمدة أسبوعين على الأقل:

1- المزاج الحزين أغلب اليوم، تقريباً كل يوم.

2- انخفاض ملحوظ في الاهتمام والسعادة والنشاط أغلب اليوم، تقريباً كل يوم.

3- زيادة ملحوظة أو نقص ملحوظ في الوزن دون اتباع نظام غذائي معين، ومن ناحية أخرى نقص حادّ أو زيادة حادة في الشهية، تقريباً كل يوم.

4- أرق شديد مفرط.

5- هبوط أو تهيج نفس-حركي.

6- الارهاق أو التعب أو نقص الطاقة، تقريباً كل يوم.

7- مشاعر انعدام القيمة أو الشعور المفرط بالذنب.

8- ضعف القدرة على التفكير أو التركيز.

9- تجدد الأفكار عن الموت أو تصور الانتحار دون محاولة الانتحار أو وجود خطة محددة للإقدام على الانتحار.

واذا نظرنا للاكتئاب أحادي القطبية كنوبة اكتئاب عظمـى Major Depressive Episode ، فيجـب أن لا تـضمن أعراضـه أعراضـاً أخـرى مثـل الهلوسـة. وإذا وجدت، فإن الاكتئاب لا يعتـبر التـشخيص الأولـي، وسـيكون الاكتئـاب نتيجـة ثانوية لاضطراب آخر معين. وهذا الاضطراب الآخر قد يكون اضطراباً نفـسياً في طبيعته أو يكون مرضاً بدنياً (Ingram, 1994).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هنـاك فئـات فرعيـة مـن الاضـطراب الاكتئـابي العظيم وإحدى هذه الفئـات تـسمى الاضـطراب الوجـداني المـوسمي Seasonal Affective Disorder، وهو نوع من الاكتئاب الذي يشيع لـدى بعـض الأشـخاص في بعض شهور السنة، خاصة في أشهر الشتاء حيث النهار القصير والليل الطويل. وبالتالي فإن كمية الضوء المتاحة قد يكـون لهـا بعـض التـأثيرات البيولوجيـة الـتي تتمثل في تزايد إفرازات بعض الهرمونات التي ترتبط بالتعرض لفترات طويلـة مـن العتمة. لهذا نجد أن هناك من ينصح الشخص المعرض للإصابة الموسمية بالاكتئاب أن يأخذ قسطاً وافياً من أشـعة الـشمس، خاصـة قبـل غروبهـا. وتتمثـل أعـراض الاكتئاب الموسمي في الرغبة في الانعزال، والميل للحـزن، مـع ميـل شـديد لتنـاول الأطعمة الغنية بالدهون والكربوهيدرات (عبد الستار إبراهيم، 1998).

كما يتضمن الاكتئاب أحادي القطبية الديسثيميا Dysthymia. من الملاحظ أن الديسثيميا لا تشمل أعراضاً اكتئابية كثيرة مثل نوبـة الاكتئـاب العظمـى؛ فهـي شكل من الاكتئاب أخف وطأة، بالإضافة إلى مزاج حزين. ولكـي يـتم تـشخيص الديسثيميا لابد من وجود عرضين من الأعـراض التاليـة: 1- ضـعف الـشهية أو المبالغة في تناول الطعـام، 2- انخفـاض الطاقـة أو الـشعور بالتعـب، 3- انخفـاض

تقدير الـذات، 4- ضـعف التركيـز أو صـعوبة في القيـام بمناقـشات، 5- الـشعور باليأس (Ingram, 1994)

ويشير دليل التشخيص الإحصائي الثالث المراجع (DSM-III-R, 1987) إلى أن كلاً من الديسثيميا ونوبة الاكتئاب العظمى يمكن أن يوجدا معاً. وهذا الـشكل المشترك من الاضطرابات يعرف بالاكتئاب المزدوج Double Depression، وحينمـا تستقر نوبة الاكتئاب العظمى فإن الديسثيميا تستمر في العادة.

أما بالنسبة للاكتئاب ثنائي القطبية، فهو اضطراب يتـسم بحـدوث نوبـة أو أكثر من الهوس تصاحبها عادة نوبة اكتئاب عظمى واحدة أو أكثر (Beach, 1998).

ولكي يتم تشخيص الاكتئاب ثنائي القطبية، فلابد أن يمّر الشخص بنوبات هوس هذا بالإضافة إلى أن الشخص قد يعاني من نوبات هوس دون أن يعاني من نوبة اكتئاب (Ingram, 1994).

وينظر إلى هذا النوع من الاكتئاب علـى أنـه أشـد خطـراً لأنـه لا يـصيب مشاعر المريض وعواطفه فحسب، بل يصيب كثيراً مـن قدراتـه الأخـرى بمـا فيهـا قدرته على التفكير السليم، وعلاقاتـه الاجتماعيـة، ويـشوه إدراكـه لذاتـه وللعـالم المحيط به، ومن ثم قد يـصبح المـريض خطـراً علـى نفـسه بـسبب إهمالـه الـشديد لحاجاته الإنسانية والحيوية، أو بسبب ما قـد يرتكبـه مـن أفعـال حمقـاء ضـارة بـه كالانتحار الذي يتوج عجزه وإحساسه باليأس (عبد الستار إبراهيم، 1998).

وكما هـو الحـال بالنـسبة للديـسثيميا في الاكتئـاب أحـادي القطبيـة، نجـد السيكلوثيميا Cyclothymia في الاكتئاب ثنائي القطبيـة، وهـي تتـسم وفقـاً لمعـايير دليل التشخيص الإحصائي الثالث المراجـع (DSM-III-R, 1987) بـاختلال المـزاج المزمن الذي يستمر لمدة عامين علـى الأقـل، كمـا تتـضمن نوبـات هـوس عديـدة وفترات طويلة من المزاج المكتئب.

خبرات الاكتئاب

بسبب ما لموضوع الاكتئاب من أهمية كبيرة، فقـد جـاءت عـدة محـاولات للتمييز بين أنماط فرعية من الاكتئاب بناءً على معايير غير الأعراض. وقـد اقـترح الباحثون والاكلينيكيون أنماطاً من الاكتئـاب فميـزوا بـين نـوعين مـن الاكتئـاب، أحدهما الاكتئاب الحـدادي أو الاعتمـادي Anaclitic or Dependent Depression الذي يركز على العلاقـات الشخـصية المتبادلـة مثـل الاعتماديـة ومـشاعر العجـز والافتقاد والهجر، والثاني هو الاكتئاب الاستدماجي أو الناقد للذات Introjective or Self-Critical Depression الذي يركز على قضايا خاصة مثل الاسـتقلال ونقـد الذات ومشاعر الفشل (Luthar and Blatt, 1993).

ويتسم الأفراد ذوو الدرجات المرتفعة من الاعتمادية والإحـساس بالـذنب بالسلوك الاندفاعي والانـشغال بقـضايا الوحـدة والهجـر والإيمـاءات الانتحاريـة، بينما يتسم الأفـراد ذوو الـدرجات المرتفعـة في نقـد الـذات بالوحـدة الاجتماعيـة والسعي المكثف نحـو التحـصيل والـسمات الحوازيـة ومحـاولات الانتحـار الحـادة (Riley and McGranie, 1990) .

ويعد مفهوما الاعتمادية Dependency ونقد الذات Self-Criticism من أكثر المفاهيم شيوعاً في الدراسات النفسية الحديثة. والمتفحص لتطور هذين المفهومين يجد أنهما كانا محور اهتمام الباحثين في مجال علم النفس المرضي وعلم النفس الاكلينيكي، وذلك بهدف تحديد أنماط للاكتئاب تتضمن المشاعر والاتجاهات الخاصة بالذات والعلاقات الشخصية المتبادلة المقتصرة على أعراض الاكتئاب فقط.

فبناء على تحليل عاملي للأعراض الاكتئابية، حدد جرينكر وزملاؤه (Grinker etal., 1961) أنماطاً عديدة للاكتئاب، وتشتمل هذه الأنماط على نمطين أساسيين، أحدهما يتسم مبدئياً بمشاعر الحرمان ومحاولات تلقي الرعاية، أما النمط الثاني فيركز مبدئياً على الشعور بالذنب ومحاولات العودة إلى مرحلة سابقة أو وضع سابق.

ومن منطلق توجه سلوكي معرفي، ميز بيك (Beck, 1983) بين الاعتماديين اجتماعياً (ذوي المحور الاجتماعي) والمستقلين (ذوي الأنماط المعرفية). وأشار إلى أن الأفراد الاعتماديين يهتمون بشكل كبير بالعلاقات الشخصية المتبادلة ويكونون أكثر استهدافاً من جانب الاكتئاب استجابة لفقد أو رفض شخصي متبادل مدرك. أما الأفراد المستقلون فيهتمون بالتحصيل على نحو مرتفع، ويصبحون بصفة عامة مكتئبين استجابة لفشل شخصي مدرك بالنسبة للتحصيل أو عدم القدرة على التحكم في البيئة.

ومن منظور العلاقة بالموضوع، فرق بولبي (Bowlby, 1980, 1988) بين الأفراد القلقين الذين يسعون إلى الاتصال الشخصي المتبادل ويعتمدون بشدة على

الآخرين، وبين الأفراد الواثقين في الذات بشكل قهري والذين يتجنبون الآخرين ويلقون بشأن الأفراد الذين يسعون إلى إقامة علاقات حميمة.

ومن منظور شخصي متبادل Interpersonal ، ميز أريتي وبمبوراد (Arieti & Bemporad, 1978, 1980) بين نمطين من الاكتئاب، أحدهما يسمى الآخر المتسلط Dominant Other وفيه يتسم الفرد بإشباع رغباته بشكل سلبي من خلال آخر متسلط، أما الثاني فيسمى الهدف المتسلط Dominant Goal ويحتاج فيه الفرد إلى أن يعود إليه شعوره بقيمته وأن يتحرر من مشاعر الذنب.

ومن منطلق توجه تحليلي ومعرفي، ميز بلات (Blatt, 1974, 1990) بين نمطين من الاكتئاب هما: الاكتئاب الحدادي أو الاعتمادي والاكتئاب الاستدماجي أو الناقد للذات، كما أشرنا سابقاً.

ويتسم النمط الحدادي بما يلي:

أ- اعتمادية متزايدة على الأفراد الآخرين الذين يهتم بهم الفرد من أجل الإحساس بالأمان وقيمة الذات.

ب- الشعور بالفراغ والعجز والهجر كرد فعل لفقد حقيقي أو مدرك للحب والمساندة.

والأفراد مرتفعو الدرجة في هذا النمط من الاكتئاب معرضون لمشاعر الحرمان وعدم الإشباع ويجدون صعوبة في التعامل مع الآخرين.

بينما يتسم النمط الاستدماجي بما يلي:

أ- توقعات ومساعٍ عالية نحو التحصيل لإثبات قيمة الذات.

ب- مشاعر بالدونية والذنب ونقد الذات استجابة لفشل مدرك أو فقد الاستحسان والإحساس بالفشل في العيش طبقاً للمعايير والتوقعات.

والأفراد مرتفعو الدرجة في هذا النمط من الاكتئاب معرضون للنقد والإحساس بالفشل في العيش طبقاً للمعايير والتوقعات.

نستنتج من العرض السابق أن تطور النمط الحدادي أو الاعتمادي يؤدي إلى تأسيس علاقات شخصية متبادلة مرضية، ويؤدي النمط الاستدماجي أو الناقد للذات إلى هوية ذاتية ثابتة وواقعية وإيجابية. وينتج المرض النفسي حينما يبالغ في تأكيد أحد النمطين ويظهر الأفراد سلوكاً لا يلائم حاجات كل من النمط الحدادي والنمط الاستدماجي التي لم يتم إشباعها.

رد الفعل المعرفي للمزاج الحزين

يوجد اعتقاد بأن المعارف المختلة وظيفياً Dysfunctional Cognitions هي عوامل هامة في حدث واستمرار الاكتئاب. ومع ذلك، فقد أوضح البحث الحديث أن المعارف المختلة وظيفياً لمرضى الاكتئاب تختفي بعد العلاج، بصرف النظر عما إذا كان العلاج بيولوجياً أو نفسياً.

وبداية قد تشير النتيجة السابقة إلى اختلالات وظيفية معرفية وأعراض أو نواتج ثانوية. وقد دعمت النظريات المعرفية الحديثة هذه النتيجة بإقرار أن المعارف

المختلة وظيفياً لا تظهر خلال تراجع نوبات الاكتئاب، بل تـصبح غـير فعالـة (أي كامنة). وحين لا تكون تلك المعارف مقصودة بالعلاج، فإنهـا قـد تنـشط بـسهولة (على سبيل المثال خلال حالة الكدر أو الاستياء الخفيف)، مما يزيـد مـن خطـورة تواتر الاكتئاب.

وقد ساندت بعض الدراسات الإمبريقية الاعتقاد السابق، حيث أوضحت تلك الدراسات وجود ارتباط بين المزاج الحـزين والمعـارف المختلـة وظيفيـاً لـدى مرضى مكتئبين سبق شفاؤهـم، ولكن ليس لدى أفراد لم تسبق إصابتهم بالاكتئـاب مطلقاً (Miranda etal., 1990) ووجدت دراسات أخرى معلومات تعـالج الفـروق بين مشاركين سبق اكتئابهم وآخرين لم يكتئبوا مطلقاً بعد حث تجريبي لمزاج مـستاء Dysphoric Mood (Ingram et al., 1994) .

وتعكس تلك الدراسات أنه قد يوجد قصور معرفي باق قابل للقياس فقط خلال المزاج الحزين (الذي يحدث بشكل طبيعي أو يستثار). وبالرغم من أن تلـك الدراسات لم توضح ما إذا كان هذا القصور متضمناً سبباً في تـواترات الاكتئـاب، فإن هناك مساندة أكبر بكثير لهـذه الفكـرة قـد أصـبحت متاحـة في وقـت حـديث (Segal etal., 1999) ؛ فقد استخدم الباحثون إجراء حث مزاجي لحث مزاج حزين عابر لدى المرضى الذين كان قـد تم شـفاؤهم مـن الاكتئـاب عـن طريـق العـلاج المعرفي أو العلاج بالعقاقير. وتم قياس المعارف المختلة وظيفياً مباشـرة قبـل الحـث وبعد الحث لمزاج حزين. وقد اتضح أن متوسط درجات رد الفعـل المعـرفي ل 29 مريضاً عولجوا بمضادات الاكتئاب كان أكبر بشكل جوهري من متوسـط درجـات 25 مريضاً عولجوا بعلاج معرفي. علاوة على ذلك، فقد سـاهم رد الفعـل المعـرفي

بدرجة جوهرية في التنبؤ بالانتكاسات الاكتئابية في أثناء التتبع لمدة سنة واحدة، بصرف النظر عن وسيلة العلاج السابقة.

وإذا ثبت أن هذه النتائج موثوقة (من خلال تكرار الدراسات). فإنها تقدم دعماً قوياً للنظرية المعرفية في علاج الاكتئاب.

مشكلة الجنوح

مقدمة

أولى الغرب ظاهرة الجنوح اهتماماً واسعاً؛ تلك الظاهرة التي تفشت بصورة لافتة للنظر عقب الحرب العالمية الثانية نظراً لما خلفته الحرب من آثار وأضرار كان الجنوح من بين نتائجها المتعددة. وقد لخص الباحثون أسبابها في:

- سوء التغذية الذي أدى بدوره إلى زيادة الجرائم الاقتصادية من قبيل السرقات والصفقات غير المشروعة بكافة أنواعها.
- عدم الاستقرار الأسري الذي أدى إلى تخلف الحدث الجانح عن الذهاب إلى المدرسة.
- الهروب من الأسرة وما يتبعه من انحرافات عديدة.
- التشرد وتكوين عصابات من الأتراب.
- زعزعة الإيمان بالقيم الإنسانية نظراً لما يشاهده الحدث في بيئته من أحداث (جين شزال، 1963).

والجدير بالذكر أن الأطفال هم أمل كل أمة. لذا فإن دراستهم والاهتمام الجاد بهم هو عمل ضروري وليس من قبيل سد الخانة.

تعريف الجانح

لغوياً: كلمة جناح في اللغة العربية تشير إلى الإثم. وفي القرآن الكريم: لا جُناح عليكم ولا تعني هذه الكلمة لغوياً بالضرورة مخالفة القانون، ولكنها تحمل فكرة تفيد الشذوذ أو الانحراف عن مسلك الغالبية (راجع: ابن منظور).

الجانح في معجم العلوم الاجتماعية

الجنوح هو الميل إلى الانحراف أو الجريمة، وهذا المفهوم يستخدمه علماء النفس والاجتماع والتربية والإدارة وإن كانت تفسيراتهم له متباينة. غير أن العلماء يتفقون على أن الجنوح يعد خروجاً على قيم المجتمع وتقاليده.

والجنوح ظاهرة اجتماعية تختلف من بيئة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر؛ فهناك أمور تعد إثماً في مكان ولا تعد كذلك في مكان آخر. ويقسم المشرع المصري أفعال الجنوح إلى ثلاثة أنواع هي: الجنايات والجنح والمخالفات، وهي مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب جسامتها، لذا تختلف عقوبتها تبعاً لهذه الجسامة (معجم العلوم الاجتماعية، 1975 : 412).

التعريف الإجرائي للجانح: هو ذلك الشخص الذي يقل عمره عن 18 عاماً ويقوم بارتكاب أي نوع من أنواع الجريمة مما يدخله في باب مخالفة القانون، ومن ثم يطبق عليه القانون بغض النظر عن جنسه، سواء أكان ذكراً أم أنثى، وبغض النظر عن طبيعة الجريمة أو مخالفة القانون التي ارتكبها.

الاتجاهات المختلفة في تفسير أسباب الجنوح

شغلت الجريمة الرأي العام وما زالت لذا فإنه لا غرابة في أن نجد العديد من الاتجاهات المختلفة في تفسير السلوك الإجرامي. وتتفاوت تلك الاتجاهات بين الاتجاه البيولوجي الذي يؤكد أهمية الوراثة والغدد وطبيعة المخ في ذلك وبين الاتجاه الذي يؤكد أهمية العوامل الاجتماعية والنفسية في تفسير الجنوح وما تمور به النفس الإنسانية من اضطرابات وصراعات وعدوان قد ينفجر تجاه الآخرين في فعل أو أفعال إجرامية تخل بطبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده.

وقبل أن نتعرض لهذه الاتجاهات، نتفق مع ما يورده سعد جلال (1986) من أن الاتجاه الحالي في دراسة الجريمة يقوم على ما يلي:

1- تعدد العوامل وتشابكها وتداخلها وتفاعلها.

2- تطلُّب دراسة الجريمة معرفة طبيعة التفاعل الاجتماعي الذي يمدنا بمعلومات عن تكوين الشخصية وعوامل ثباتها. ويتطلب ذلك معرفة السلوك المقبول اجتماعياً أو معايير السلوك في المجتمع.

3- أهمية دراسة علاقة الجريمة بغيرها من العوامل التي تقود إليها.

إن تفسير الجريمة يعتمد على الأسباب المستمدة من الأسس البيولوجية النفسية والأسس الاجتماعية والأسس النفسية الاجتماعية (سعد جلال، 1986: 343- 344).

ومنذ عرفت ظاهرة الجريمة في المجتمعات البشرية وهي موضع دراسة وبحث تبعاً لمستوى العصر وما وصل إليه من تقدم علمي من ناحية، وتبعاً لفلسفة كل مجتمع وآيديولوجيته من ناحية أخرى.

بدأ التفكير في تفسير مشكلة الجريمة على المستوى الميتافيزيقي الغيبي، وهو تفسير لا يستند إلى أسس موضوعية ولا يعرف طرق البحث العلمي. ومن ذلك تفسير الجريمة على أنها نتاج لقوى غيبية أو أرواح شريرة تسيطر على الفرد فتدفعه إلى السلوك الإجرامي.

وتلت ذلك محاولات أولية من الفلاسفة القدماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو. ومن تفسيراتهم أيضاً نستطيع أن نتلمس آثار النظرة الغيبية في تفسير الجريمة، ومن ذلك الربط بين الجريمة والجهل أو الشيطان، أو الربط بينها وبين الجشع والحسد وحب الثروة. وكان أرسطو قد تعرض للجريمة في بحثه لعلم الفراسة ورأى أن من الممكن التعرف على أخلاق الفرد عن طريق دراسة سماته الجسمية وعلاماته المميزة كلون الشعر والبشرة وطول القامة ... الخ. كذلك لا يمكننا أن نتجاهل الدراسات الأولى التي قام بها أصحاب الدراسة الجغرافية في تفسير الجريمة على أساس الطقس والمناخ وطبيعة البيئة الجغرافية.

تلك هي الاهتمامات الأولى التي ظهرت في تفسير الجريمة، تلاها انتقال التفكير من مرحلة الأسلوب الغيبي إلى مرحلة الأسلوب العلمي في تفسير الظواهر نتيجة لنمو العلوم المختلفة وتأثر بعضها بالبعض الآخر.

وكان أن ظهرت اتجاهات مختلفة لتفسير السلوك السوي والمنحرف على السواء، إلا أن هذه الاتجاهات ظهرت متناولة لجانبٍ واحد أو عامل واحد يفسر به السلوك مع إغفال جوانب وعوامل أخرى يتضمنها غالباً الفعل أو السلوك.

ونتناول هذه الاتجاهات المختلفة مع بيان جوانب الصحة والخطأ في كل منها والأهمية النسبية لها في كل ما تنطوي عليه من عوامل مؤثرة في السلوك الإنساني. ويمكن إدراج هذه الاتجاهات تحت العناوين الثلاثة التالية:

أولاً: التفسير البيولوجي الفيزيقي.

ثانياً: التفسير النفسي (السيكولوجي).

ثالثاً: التفسير الاجتماعي النفسي.

أولاً: التفسير البيولوجي الفيزيقي

يقوم التفسير البيولوجي الفيزيقي أو العضوي – بصفة عامة – على أساس أن اتجاه الفرد إلى الجريمة إنّما يرجع إلى استعداد فطري بيولوجي موروث في الفرد، وعلى أساس أن هناك علاقة بين السلوك الإجرامي والتكوين العضوي الفيزيقي للجسم سواء من ناحية شكل الجسم أو من ناحية الكفاءة الوظيفية لأجهزته المختلفة كالمخ والعضلات والجهاز العصبي والغدد. وبعبارة أخرى – وبغض النظر عن الخلافات الفرعية بين العلماء المساندين لهذا الاتجاه – نجد أن هذا التفسير يقوم على مسلمتين أساسيتين.

الأولى: أن السلوك الإجرامي يمكن أن ينتقل بالوراثة من السلف إلى الخلف أو من جيل إلى جيل كما تنتقل الصفات الجسمية الأخرى كلون الشعر أو العيون أو طول القامة ... إلخ.

والثانية: أن بناء الجسم وتكوينه الفيزيقي أو الصفات الجسمية التي يولد بها هي التي تحدد شخصيته وسلوكه ومزاجه واتجاهاته النفسية، وبعبارة أخرى فإن الفروق الوراثية أو التكوينية بين الأفراد تنعكس في فروق سلوكية ونفسية بينهم.

ونتناول الآن التفسير البيولوجي الفيزيقي من زوايا أو أبعاد مختلفة تبعـ لاهتمامات العلماء في هذا الاتجاه.

إن الاتجاه البيولوجي الفيزيقي بكل ما ينطوي عليه من تفسيرات فرعيـ إنما هو اتجاه مرفوض تماماً نتيجة لما قدمته العلوم البيولوجية والإنسانية الحديثة مر حقائق تتعارض تماماً مع مفاهيم هذا الاتجاه ومسلّماته.

والاعتقاد بالأثر الحاسم للوراثة أو التكوين الفيزيقي أو غيره في هـا الاتجاه ينطوي على خطر بالغ لأنه يشجع على إغفال العوامل البيئية المختلفة من اقتصادية واجتماعية وغيرها- التي يرجع إليها الجزء الأكبر من السلو الإجرامي.

أضف إلى ذلك أن الإيمان أو الأخذ بهذا الاتجاه يشجع على الهروب مـ مواجهة عوامل الاضطراب والفساد في نظم المجتمع وأحواله، التي قد تكون العا الأصلية وراء المشكلات الاجتماعية عموماً بما فيها مشكلة الجريمة. كذلك ة يشجع هذا الاتجاه على الهروب من تحمل مسؤوليات وتبعات الإصلاح والتقـو

الحقيقي لأحوال المنحرفين والمجرمين صغاراً كانوا أو كباراً، بدعوى أن الإجرام بهذا المعنى قدري لا قبل للإنسان بمواجهته أو علاجه.

وفي النهاية، فإن هذا الاتجاه - وخاصة من جانب بعض العلماء- قد يكون اتجاهاً مضللاً يخدم أغراضاً رجعية سواء عن قصد أو عن غير قصد حتى تظل الجريمة وغيرها من المشكلات قائمة تنخر كالسوس في عظام المجتمع، تضعف من إرادته على التحرر والكفاح من أجل حياة أفضل.

وإذا كان لهذا الاتجاه البيولوجي العضوي من قيمة علمية بالنسبة لفهم السلوك الإجرامي وتشخيصه، فإنه لا يعدو في عناصره المختلفة أن يكون عاملاً مساعداً للفرد لأن يقع في الانحراف أو الاضطراب أو السلوك الإجرامي إذا توافرت العوامل الأخرى المكونة للشخصية الإجرامية، وبخاصة العوامل الارتقائية أي العوامل المتعلقة بالنمو النفسي من الميلاد إلى الرشد.

ثانياً: التفسير النفسي للسلوك الإجرامي

يقوم التفسير النفسي السلوك للسلوك الإجرامي على أساس أن هذا السلوك يعود أساساً إلى الخلل والإضطراب في التكوين النفسي للشخصية الذي يفصح عن نفسه في أشكال مختلفة من السلوك المنحرف تبعاً لظروف وعوامل تكوين كل شخصية مع عدم إغفال العوامل الاجتماعية المؤثرة في علاقة الفرد بالآخرين ولكي نتمكن من فهم هذا الاتجاه أو التفسير نعرض بشيء من التفصيل الجوانب التالية:

1- مفهوم السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية وبخاصة التحليل النفسي.

2- المرض النفسي (العصاب) والسلوك الإجرامي.

3- خصائص السلوك الإجرامي الناتج عن المرض أو الاضطراب النفسي.

4- عوامل السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية.

5- المرض العقلي (الذهان) والسلوك الإجرامي.

6- الضعف العقلي والسلوك الإجرامي.

مفهوم السلوك الإجرامي من وجهة النظر النفسية

ينظر علماء النفس – وبخاصة أصحاب مدرسة التحليل النفسي- إلى السلوك الإجرامي على أنه سلوك شاذ مرضيّ إذا كان صادراً عن شخصية مضطربة مريضة نفسياً. وبهذا المعنى فإن شخصية المجرم لا تختلف في جوهرها وتكوينها الأساسي عن شخصية المريض نفسياً؛ فهم يرون أن كل فعل إجرامي – على هذا الأساس – ما هو إلا دلالة على صراعات نفسية من نوع خاص تدفع بصاحبها إلى الجريمة.

وبعبارة أخرى، فالجريمة نتاج لفشل عملية تحويل الكائن البيولوجي البدائي الحيواني إلى شخص اجتماعي. ومن ثم كان اهتمام علماء النفس بالجريمة منصباً أساساً على شخصية المجرم والصراعات والدوافع النفسية التي أدت إلى إجرامه، وبخاصة الدوافع اللاشعورية، وليس على الجريمة التي يقع فيها المجرم.

كذلك فإن علماء النفس لا يهتمون بالمجرمين الذين لا تعبر جرائمهم عن هذا الاضطراب والخلل أو المرض النفسي ويعتبرونهم مجرمين من وجهة نظر القانون أو من وجهة نظر المجتمع؛ بمعنى أنهم مجرمون بلا شخصية إجرامية. وفي ضوء ما سبق، ترتكز وجهة النظر النفسية للسلوك الإجرامي والسلوك الشاذ أو المرضي عامة على الأسس التالية:

1- الأفعال السلوكية الشاذة أنماط مختلفة من السلوك لها أسبابها ودوافعها التي تدخل في تحديد نوع العمل سواء كان إجرامياً أو غير إجرامي بغض النظر عن رأي القانون أو المجتمع في هذا الفعل.

2- السلوك الإجرامي يحتوي على صراع نفسي بين الفرد ونفسه من ناحية وبين الفرد والمجتمع من ناحية أخرى.

3- السلوك الإجرامي وراءه دوافع لا شعورية تنطوي غالباً على العدوان والهدم بغض النظر عن الشكل الظاهري للسلوك.

4- الأنماط المختلفة للسلوك الإجرامي يقوم كل منها على ديناميات نفسية اجتماعية وتكوين نفسي معين يختلف باختلاف الأفراد. ومن ثم ينبغي دراسة هذه الديناميات قبل الحكم على السلوك بأنه إجرامي أو غير إجرامي.

وهكذا ينظر علم النفس إلى السلوك الإجرامي نظرة لا يفصل فيها المجرم نفسه وتكوينه عن الظروف المحيطة به، بعكس نظرة القانون أو المجتمع الذي ينظر غالباً إلى الفعل الإجرامي بغض النظر عن دلالته ودوافعه وأسبابه.

ولما كانت الجريمة راجعة من وجهة النظر النفسية - كما ذكرنا- إلى المرض النفسي، فلا بأس من الإشارة في عجالة إلى المرض النفسي وعلاقته بالسلوك الإجرامي.

المرض النفسي (العصاب) والسلوك الإجرامي

المرض النفسي أو العصاب هو اضطراب وظيفي في الشخصية لا يرجع إلى علة أو سبب عضوي أو بيولوجي في البدن، وإنما هو تعبير عن صراعات انفعالية لا شعورية لا يعرف المرء مصدرها أو صلتها بالأعراض التي يعاني منها. وبعبارة أخرى، فالمرض النفسي هو السلوك أو الحالة التي تتميز بوجود صراع عنيف بين دوافع الفرد ورغباته من ناحية وبين الواقع ومقتضياته من ناحية ثانية والأنا الأعلى أو الضمير الأخلاقي من ناحية ثالثة، بحيث لا تستطيع ذات الفرد أن توفق بين هذه القوى وأن تتخذ قراراً حاسماً بشأن الفعل أو السلوك.

ومن ثم تنشأ حالة مؤلمة من القلق والتوتر النفسي لا بد للذات أن تخرج منها. فإذا كانت ضعيفة مضطربة وكان الضمير ضعيفاً مضطرباً هو الآخر، فإن الفرد يلجأ إلى عمليات لا شعورية دفاعية مختلفة كالكبت والإسقاط والتعويض المسرف والتكوين العكسي وغير ذلك، وتظهر آثار هذه العمليات فيما يصطنعه المريض من أعراض نفسية مختلفة القصد منها التخفيف من حالة القلق والتوتر النفسي لديه والوقوف في وجه الوضع والرغبات التي يؤدي خروجها إلى ضميره إلى تعارض مع الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه.

فالمريض النفسي ما هو إلا مجموعة من النماذج السلوكية، وهي نماذج مخففة فاشلة يصطنعها الفرد في محاولاته الجاهدة للاحتفاظ بتوازنه الانفعالي الذي اختل نتيجة الصراع بين دوافعه المجرمة وضميره والواقع. ومن النماذج السلوكية الممثلة للمرض النفسي أو العصاب معاناة مشاعر قلق عام لا مصدر معروفاً له، ومعاناة أفكار ونزعات غريبة على المريض لا يرى لها تبريراً ولا يستطيع منها فكاكاً، والمخاوف المرضية كالخوف من بعض الحيوانات أو الأماكن المفتوحة أو المغلقة، والأحلام المزعجة، والأفكار المتسلطة، والأفعال القهرية مثل غسيل الأيدي عشرات المرات دون مبرر، والعمى أو القيء أو الشلل الهستيري، إضافة إلى العديد من الأعراض التي يضيق بها المريض ويشعر بغرابتها وبرغبته في التخلص منها؛ فهو لا يختلف عن الشخص العادي من حيث قدراته العلمية وعلاقته بالعلم وتوافقه وتكيفه معه.

وسلوك العصابي لا يعتبر أساساً – من وجهة نظر علم النفس – سلوكاً إجرامياً، لأن العصابي مجرم في نظر نفسه وليس في نظر المجتمع لأن أعراضه المرضية غالباً ما تكون ذاتية لا تحمل تعارضاً مع المجتمع أو القانون.

غير أن العصابي أو المريض النفسي قد يتجه إلى السلوك الإجرامي في بعض الحالات عندما تشتد بالمريض عقده النفسية ودوافعه اللاشعورية، وبخاصة تلك التي تدور حول مشاعر الإثم أو النقص أو الخوف أو الحقد أو الكراهية أو الغيرة، والتي تدفعه إلى الجريمة عندما تضعف قدرته على احتمال الحرمان والنور والضيق والقلق الذي تسببه دوافعه اللاشعورية المكبوتة. ويحدث ذلك بسبب العنف في تكوين جهازه النفسي وعدم استئناس دوافعه وغرائزه نتيجة لفشل

عملية التربية والتنشئة الاجتماعية والعلاقة بالآخر. والمجرمون الذين تضطرب نفوسهم على هذا النحو يطلق عليهم المجرمون المرضى نفسياً أو المجرمون العصابيون.

ومن الجرائم التي يقع فيها هؤلاء المجرمون: السرقة القهرية والتخريب والإتلاف والإحراق والاعتداء والانحراف الجنسي.

وتتميز الجرائم عصابية المنشأ بالخصائص التالية:

1) لا تصدر عن تدبير سابق أو خطة بل تتم بطريقة تلقائية جبرية.
2) ليست تعبيراً مباشراً عن رغبة في الكسب أو الانتفاع، أو عن حاجة أو عدوان تجاه من يوجَّه له الاعتداء.
3) انعدام التحوُّط عند ارتكابها؛ فكثيراً يحدث أن يترك المجرم لا شعورياً ما يدل عليه عند ارتكابه الجريمة.

وترجع جميع صور الاعتداء إلى الكراهية اللاشعورية المكبوتة نحو الأب، ولكنها غير موجهة مباشرة إلى شخص الأب ذاته، بل مزاحة ومنقولة في أشكال العدوان والجريمة على كل ما يمثل سلطة الأب وقيوده.

والخلاصة أن القسوة والحرمان الشديدين في معاملة الطفل في الموقف الأوديبي تولدان الكراهية للسلطة الأبوية ولكل ما يمثلها، وبسببهما يرتكب الفرد السلوك الإجرامي.

تكوين الذات (الأنا) والسلوك الإجرامي:

الذات (الأنا) مسؤولة عن الفعل، وهي في جملتها مسؤولة عن ربط العلاقات وتنسيقها بين الفرد ونفسه وبين الفرد والعالم الخارجي. ويقوم كل ذلك على أساس تجنب الألم بالنسبة لإشباع حاجات الفرد وفي الوقت نفسه تجنب ما لا يقره المجتمع وما لا يرضى عنه الضمير. ويحدث السلوك السليم إذا كانت الأنا أو الذات قد نمت نمواً سليماً ناضجاً نتيجة لتربية مواتية وخبرات انفعالية ملائمة وعلاقات إنسانية سليمة. غير أن الأنا أو الذات إذا نمت نمواً غير سليم، فقد تصاب في وظائفها كلها أو بعضها باضطراب أو ضعف من شأنه أن يؤدي إلى الاضطراب النفسي أو السلوك الإجرامي.

وفي الحالة الأخيرة، يبدو بوضوح طغيان دوافع الفرد ورغباته ومن ثم سيادة اللذة وإهمال الواقع. وهنا نجد المجرم البالغ تنطوي نفسه على ذات هزيلة ضعيفة غير قادرة على أداء وظيفتها على نحو متوافق مقبول من الواقع. فهو فاقد القدرة على ضبط التعبير والتحكم في دوافعه ورغباته والتوفيق بينها وبين مقتضيات الواقع، ومن ثم فهو معرض للوقوع في ضروب مختلفة من السلوك الإجرامي كبديل عن الاضطراب أو المرض النفسي.

تكوين الذات العليا او الضمير الأخلاقي والسلوك الإجرامي

ترى مدرسة التحليل النفسي أن السلوك الإجرامي لا يرجع إلى ضعف الذات واضطرابها فحسب، وإنما يرجع كذلك إلى اضطراب الضمير الأخلاقي أو ضعفه وسوء العلاقة والصراع بينه وبين الذات أو الأنا. فالمجرم تنطوي نفسه على

ضمير لم ينضج على نحو كافٍ يؤهله لأن يؤدي وظيفته بشكل سليم متزن من حيث التحكم في الذات وتصرفاتها ومن ثم ضبط السلوك على النحو المتزن المطلوب.

إن علاقة الفرد بالقانون والمعايير الاجتماعية المختلفة هي في جوهرها علاقة بالضمير الأخلاقي أو الذات العليا التي نشأت أصلاً من الوالدين أو من يقوم مقامهما، ثم انتقلت إلى كل ما يمثل السلطة الوالدية أو يرمز إليها بما في ذلك القانون.

والمفروض أن يكون لدى الإنسان السوي ضمير قوي ناضج متزن وظيفته الأداء الحسن في انسجام مع ذات الفرد ودوافعه وحاجاته من ناحية ومع ما يتطلبه المجتمع والواقع من ناحية أخرى.

ولا ينشأ الضمير سوياً وما يتبعه من سلوك ناضج متوافق مقبول بغير النمو السليم والتربية الناضجة والإشباع المتزن لحاجات الفرد المادية والنفسية في إطار من التعليم والتدريب الصحيح والعلاقات الودية خلال المراحل المختلفة لنمو الشخصية من الطفولة الباكرة حتى الرشد. والنمو المريض أو المضطرب للضمير يأخذ أشكالاً مختلفة تبدو في الضمير شديد القسوة، والضمير الضعيف، والضمير المتأرجح بين القسوة والتراخي. وقد يؤدي الضمير الذي تحمله نفسية المجرم أو الجانح إلى السلوك الإجرامي كما قد يؤدي إلى أنماط سلوكية أخرى تدخل في نطاق المرض النفسي. وبجانب ذلك يوجد من الناس من يقع في السلوك الإجرامي بالرغم من أنه يحمل ضميراً سوياً ناضجاً وشخصية سوية بشكل عام.

المرض العقلي والسلوك الإجرامي

إن المريض عقلياً قد يقع في مختلف أشكال السلوك الإجرامي كالقتل والتحطيم والإتلاف والحرق والسرقة والاعتداءات الجنسية وغير ذلك.

ويحدث هذا كله نتيجة لاضطراب عقل المريض وفساد حكمه على الأشياء وضعف بصيرته أو انعدامها، وكذلك نتيجة لما يعانيه من هلاوس أو هذاءات.

الضعف العقلي والسلوك الإجرامي

للضعف العقلي تعريفات كثيرة وإن اتفقت جميعاً في جوهرها والمحور الذي تدور حوله، وهو التخلف أو الانخفاض الملحوظ في درجة أو مستوى ذكاء الفرد.

ومن تعريفاته ما يلي:

الضعف العقلي Mental Deficiency هو نقص القدرة العقلية عند الأفراد، وما يترتب على هذا النقص من تخلف في الوظائف الأخرى.

ويصف بعض العلماء الفرد ضعيف العقل بأنه:

1- متخلف في النمو والبلوغ مع قصور عقلي.

2- متخلف في الذكاء منذ الميلاد والطفولة المبكرة.

3- قاصر اجتماعياً؛ بمعنى أنه غير قادر على إحداث التوافق بين حاجاته ورغباته من جهة وواقعه ومجتمعه من جهة أخرى، وهو بذلك لا يستطيع أن يرعى شؤونه.

4- غير قابل للعلاج.

والخلاصة أن ضعف العقل حالة يتوقف فيها نمو الذكاء نتيجة نقص أو عدم اكتمال نمو المخ بسبب عوامل وراثية أو مرض أو إصابة في أثناء الحمل أو الولادة أو قبل المراهقة ويترتب عليها نقص في الإدراك والتفكير والقدرة على التعلم والتكيف الاجتماعي السليم.

ويجب التفرقة بين الضعف العقلي والمرض العقلي – أي الجنون- حيث يخلط البعض بينهما، وإن كانت بعض حالات الضعف العقلي تشتمل على أعراض المرض العقلي.

فالضعف العقلي حالة وليس مرضاً تشتمل على انخفاض في درجة الذكاء عن المتوسط العادي، أما المرض العقلي فهو مرض قائم بذاته له نشأته وتطوراته ويعبر عن اختلال أو اضطراب في الاتزان العقلي والانفعالي. وعلى ذلك، فقد يكون المجنون ذكياً – بل قد يكون عبقرياً – ومن ثم فليست هناك علاقة بين الضعف العقلي والمرض العقلي أو الجنون.

كذلك يجب ملاحظة أن الضعف العقلي لا يصيب الفرد بعد المراهقة، وذلك لأن نمو الذكاء يستمر من الميلاد خلال مراحل الطفولة حتى سن الثامنة عشرة تقريباً. والضعف العقلي يعبر عن درجة منخفضة من درجات الذكاء تقل عن درجة المتوسط العادي من الناس. وهو لذلك وصف في ثلاث طبقات:

1- طبقة المعتوهين

وهم أحط طبقات ضعاف العقول، والمعتوه نسبة ذكائه تقل عن 25 ؛ فهو إذن على قدر ضئيل جداً من القدرة العقلية والذكاء؛ إذ لا يستطيع حماية نفسه من الأخطار المادية المألوفة. ويتميز المعتوه بخصائص جسمية تميزه عن الأفراد العاديين وتعرف بوصمات الانحلال، كالتشوهات والعاهات المختلفة في عضو أو أكثر من أعضاء جسمه. كما يتميز بخصائص جسمية وعقلية انفعالية تدل على التأخر الشديد في النمو. ومن أبرز خصائصه في هذا الصدد، النقص في الحواس، والقابلية للإصابة بالمرض، وعدم تكامل نمو الأسنان والعضلات، ضعف التخيل والتذكر، عدم القدرة على الاستنتاج، وضعف الإدراك، إلى غير ذلك من مظاهر الضعف العقلي الذي يعوقه ويعجزه عن التكيف والتوافق الاجتماعي والاستفادة من التعلم والخبرات. كما يعجز المعتوه عن التفاهم مع الغير، ويعبر بكلام غامض ومشوه وغير مفهوم لا يعدو أن يكون مقاطع وأصواتاً بسيطة. وأفراد هذه الفئة لا يمكنهم الاعتماد على أنفسهم إطلاقاً وهم محتاجون إلى الرعاية والإشراف باستمرار.

ويلاحظ عليهم سهولة انقيادهم للغير وعدم إدراكهم وتقديرهم المسؤولية، ولا يفهمون معنى القانون أو التقاليد أو العادات الاجتماعية.

ونتيجة لهذه الخصائص يقع المعتوهون في أخطاء خلقية ويسلكون سلوكاً مضاداً للقانون والمجتمع قد يصل إلى حد ارتكاب الجرائم الكبرى، ومن صور هذا السلوك حالات الاعتداء الجنسي وإتلاف الممتلكات والسرقة أو البغاء لدى الإناث. والمعتوهات لا يزيد عمرهن العقلي عند البلوغ - أي في سن ستة عشر عاماً- عن عمر طفل بلغ 7 سنوات.

2- طبقة البلهاء

هي أرقى قليلاً من طبقة المعتوهين. والبلهاء يختلفون عن المعتوهين في السمات والخصائص المختلفة التي ذكرناها في الدرجة. وتقع نسبة ذكائهم تقع بين 25 و 50 ، وهم من ناحية الحركة والكلام ووظائف العقل والأداء الانفعالي يتخلفون إلى الحد الذي يمكّن العابر من غيرهم أن يميزهم بمجرد الانتباه البسيط. غير أن هذه الفئة يمكن تدريبها على بعض الأعمال اليدوية والآلية البسيطة تحت الإشراف المباشر، وعمرهم العقلي لا يتعدى عند المراهقة 7 سنوات وذلك في أحسن الحالات. ونظراً لقصور إدراكهم وضعف بصيرتهم وتفكيرهم وسهولة انقيادهم، فهم أيضاً معرّضون للوقوع في الأخطاء الخلقية والسلوكية التي قد تصل إلى الجريمة.

3- طبقة الأغبياء

تتراوح نسبة ذكاء أفراد هذه الطبقة من 50 إلى 75 ، وهم غير قادرين على متابعة الدراسة في الفصول الدراسية العادية؛ فإدراكهم ومستواهم العقلي عند المراهقة لا يتجاوز مستوى إدراك ذكاء طفل في الثامنة أو العاشرة من عمره. وهم -بالعناية والرعاية الخاصة وفي فصول خاصة- يمكن تعليمهم القراءة والكتابة وبعض الحرف والأعمال البسيطة. كذلك يمكن بالتدريب والتعليم أن يصلوا إلى حد الاعتماد على أنفسهم في كسب عيشهم. وهذه الطبقة أيضاً يمكن أن تقع في السلوك الإجرامي بل في ارتكاب جرائم خطيرة لأن هذه الفئة إذا أهملت رعايتها فإن ذلك من شأنه تعريض أفرادها إلى الإغواء والإغراء والاستغلال ومن ثم الوقوع في الجريمة.

والخلاصة أن الضعف العقلي في طبقاته الثلاث يمكن أن يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجريمة في أشكالها الكبيرة والصغيرة، وإن كانت جرائم ضعاف العقول بصفة عامة من النوع البسيط التافه.

مشكلة الإدمان

مقدمة:

يستخدم مصطلح الإدمان في العديد من السياقات لوصف الاعتياد النفسي اللاإرادي أو المفرط، مثل الاعتياد على المخدرات وألعاب الفيديو والجريمة والمال والعمل والإفراط في تناول الطعام والقمار والحاسوب والنيكوتين والمواد الإباحية، وغير ذلك.

وفي الطب يعرّف الإدمان بأنه اضطراب عصبي بيولوجي مزمن يؤثر على كل من الجوانب الجينية والنفسية والاجتماعية والبيئية. وهو إما استخدام مادة باستمرار بالرغم من آثارها السلبية وعدم القدرة على الامتناع عن استخدامها (سلوك لاإرادي)، أو استخدام مواد مخدرة لأغراض غير علاجية (فيما يُعرف بالحنين للمخدرات) ويكون الإدمان عادة مصحوباً بسلوكيات منحرفة كسرقة الأموال وتزوير الوصفات الطبية للحصول على المخدرات. كما تستخدم كلمة الإدمان أحياناً بالمعنى الإيجابي بين العامة للإشارة إلى شخص لديه شغف بشيء، مثل الكتب والإنترنت والشوكولاته وغيرها.

وبالرغم من أن اكتشاف المخدرات ليس شيئاً حديثاً في عمر الإنسانية، إلا أن تزايد أعداد المدمنين وظهور أشكال جديدة للإدمان قد جعل المشكلة عالمية بحقّ؛ إذ من الثابت أن أربعة من المخدرات الخطيرة قد عرفتها الإنسانية منذ القدم،

وهي: الأفيون والحشيش والكوكايين والكحول. لذا فإننا نتفق مع ما أورده مصطفى سويف (1996) من أن المخدرات موضوع ذو ماضٍ وحاضر ومستقبل. أما الماضي فيصل إلى فجر الحياة الاجتماعية الإنسانية، وأما الحاضر فمتسع يشمل العالم بأسره، وأما المستقبل فأبعاده متجددة وليست محدودة (مصطفى سويف، 1966).

وبالرغم من عدم وجود إحصاءات علمية يمكن الاعتماد عليها في تقدير حجم المتعاطين، فإن المؤشرات (العالمية على الأقل) تشير إلى الأرقام الآتية:

- عدد من يتعاطون الحشيش من سكان العالم يتراوح بين 40 و 50 مليون نسمة.
- مدمنو الهيروين يبلغ عددهم مليوني نسمة.
- مدمنو الكوكايين يبلغ عددهم 0.5 مليون نسمة (الأمم المتحدة، 1975).
- تزايدت أعداد من يستخدمون المهدئات والمنبهات في العالم؛ فقد قدّر عدد هؤلاء في مطلع الستينيات من القرن الماضي بخمسة ملايين فرد، ثم زاد هذا العدد ليصبح عشرة ملايين مدمن في نهاية سبعينيات القرن نفسه. (فاروق عبد السلام، 1977).

أما مشكلة الإدمان في مصر فإنها تعد من المشاكل المستفحلة التي تتحدى كافة أجهزة المجتمع. وقد تبين من ندوة علمية (ندوة الأهرام، 1982) أن المخدرات في مصر بكل أنواعها تعتبر غُولاً يفترس تنمية المجتمع المصري؛ إذ إن ما تدفعه مصر

ثمناً للمخدرات المهربة إليها من الخارج بالعملة الصعبة يقدر بـ 70 مليون جنيه مصري، وقد كان هذا الرقم في ذلك الوقت (1982) يساوي:

- نصف ثمن الصادرات المصرية من صناعية وزراعية وغيرها فيما عدا البترول.
- عائدات مصر العالمية من قناة السويس.
- دخل مصر من السياحة.
- ثلث مجموع ما تدفعه الدولة من دعم للسلع الغذائية الأساسية.
- نصف مجموع مرتبات كل العاملين في القطاع العام.
- أكثر من مجموع ما تحصّل من ضرائب على الإيراد العام وعلى الدخول. هذا إضافة إلى ما تدفعه الدولة للإنفاق على أجهزة مكافحة المخدرات والعلاج، ناهيك عما يدفعه المدمنون في مصر ثمناً لشرائها، بجانب الضرر الذي ينزل بمتعاطي المخدرات وبأسرهم وينقص من قدرتهم على العمل والإنتاج (جمال أبو العزايم، 1984).

ومن خلال تتبع خريطة المخدرات وأنواعها في مصر – وفقاً لما قدمه (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان – لجنة المستشارين العلميين) في التقرير التمهيدي (1999) انضمّ الهيروين إلى قائمة المخدرات المعروفة في مصر في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، وكذلك الكوكايين ولكن بنسبة أقل كثيراً، وهذا بالإضافة إلى المواد النفسية الدوائية، وانتشار الماكستون فورت، وفي الوقت نفسه

زاد المعروض من الحشيش زيادة كبيرة وبقي الأفيون على ما هو عليه (المجلس القومي لمكافحة وعلاج الإدمان، 1991).

وبالرغم من أن مصر لم تكن - حتى وقت قريب - زارعة للمواد المخدرة، وكانت مثلها مثل العديد من الدول (دولة ترانزيت) تمر المخدرات عبرها من الشرق إلى الغرب من خلال قناة السويس، وميناء القاهرة الجوي، وغيرهما من الطرق، فإن الأرقام التقريبية التي توصل إليها الباحثون تؤكد أن شباب مصر على حافة الهاوية؛ لأن الأرقام - التقريبية - تؤكد ما يلي:

- 21 مليار دولار حجم ما يصرف على المخدرات.
- يبلغ عدد المدمنين حوالي مليوني مدمن.
- 15 شاباً يموتون يومياً تقريباً نتيجة تعاطي جرعات زائدة (محمد حسن غانم: 524).

ولكي تحدث ظاهرة الإدمان لا بد من توافر ثلاثة عوامل أو شروط هي:

المحور الأول: المواد المخدرة، وتنقسم إلى:

أ- **المواد المخدرة الطبيعية مثل:** الحشيش Ccannabis، والخشخاش، والأفيون Opium، ونبات الكوكا Coca، والقات Khat.

ب- **المخدرات الصناعية**: ومنها الهيروين Heroin وهو أحد مشتقات الأفيون وأقوى من المورفين خمس مرات، وسيطرته على المتعاطي سريعة، وقد تزايد الإقبال على إدمان الهيروين بصورة مفزعة في العديد من دول العالم.

ج- **المخدرات التخليقية**: وقد صنفتها هيئة الصحة العالمية عام 1973 على (3) أنواع هي:

1- عقاقير تؤدي إلى التنبيه الشديد وتسمى العقاقير المنبهة.

2- عقاقير تؤدي إلى الهبوط وتسمى العقاقير المهدئة.

3- عقاقير تؤدي إلى تنشيط الإدراك والانتقال والتفكير وسرعة الحركة، وتسمى العقاقير المهلوسة. هذا إضافة إلى مواد مخدرة أخرى مثل: الخمر والمواد الطيارة والتبغ والكافيين.

وسوف نقصر حديثنا فيما يتعلق بهذه المواد المخدرة على مادتين مخدرتين لوحظ في الآونة الأخيرة انتشارهما بين قطاع عريض من الشباب في مصر؛ ألا وهما: البانجو والتبغ (الشيشة والسجائر).

أولاً: البانجو Bhango: انتشر إدمان هذا العقار بصورة لافتة للنظر، بحجة أنه غير ضار، وأن له العديد من الفوائد، وخاصة زيادة النشاط، وتنشيط الإدراك للأمور، وسلامة التفكير، إضافة إلى زيادة الرغبة الجنسية، بالرغم من أن الواقع العملي يثبت عكس ذلك تماماً. والبانجو هو نفسه نبات القنب (الحشيش)، وله أنواع ومسميات متعددة مثل: 'الكمنجة' و 'الماريجونا'. وهذه الأسماء تطلق على الناتج أو

المحضر أو المستخرج من أزهار نبات القنب الهندي أو أوراقه أو سيقانه أو جـذوره ذكراً كان أو أنثى.

والنبات – بما أنه طبيعي – فقد عرف منذ فترة بعيدة تقدر تقريباً بأكثر من ستة آلاف عام، وكان يستخدم استخداماً طبيعياً لدرجـة أنـه يقـال إن الإمبراطـور الصيني "شن ننغ" امتدح النبات، بل وطالب السكان أن يواصلوا زراعتـه؛ ذلـك أن أليافه كانت تـستخدم في صـناعة الحبـال، وبـذوره تـستخدم في اسـتخلاص زيـت الطعام، بل كان النبات يستخدم في العديد من المناسبات الدينية، حيث كانت تحرق أجزاؤه ويتم استنشاق بخوره، وكان هذا يتم في المعابد مما أكسب هذا النبات صـفة "القداسة".

وقد بدأ الهنـود يـستخدمونه للكيـف إلى جانـب اسـتخدامه مخـدر، وكـان الكرضة – بعد ظهور المسيحية – يتعاطونـه في أثنـاء الحفـلات والطقـوس الدينيـة وتقديم القرابين لاسترضاء الآلهة، إضافة إلى استخدامه في التخدير في العديـد مـن الأغراض الطبية.

وعموماً – وبدون الدخول في تتبع تاريخ هذا المخدر– فإن تقـارير خـبراء الإدارة العامة لمكافحة المخدرات ترجع أسباب انتشار تجارة مخـدر نبـات الحـشيش الجاف (البانجو) إلى العوامل الآتية:

1- سوء الأحوال الاقتصادية وانخفاض مستوى الدخل مما ظهر أثـره واضـحاً في قلة الطلب على المخدرات الأخرى الأكثر تكلفة.

2- ارتفاع أسعار المخدرات الأخرى (الأفيون والهيرويـن والماكـستون فـورت ... إلخ).

3- سهولة زراعة البانجو، وخاصة في الوديان والسهول وفي الصحراء مترامية الأطراف، وخاصة في سيناء الشمالية والجنوبية، إضافة إلى إمكانية زراعته في الفرندات والبيوت مثلاً.

4- ضعف إمكانات الأجهزة المعنية بمكافحة المخدرات في تتبع ظاهرة تعاطي البانجو وزراعته، حيث تحتاج قوات المكافحة إلى الكثير من الطائرات وأجهزة رش المبيدات، ناهيك عن أن المساحات المزروعة بالبانجو في سيناء – على سبيل المثال – لا توجد لها سجلات تشير إلى حيازة هذه الأراضي وتحديد مالكيها.

تأثير البانجو: هذا العقار – كما يقولون – ظاهره الرحمة وباطنه العذاب؛ فله التأثيرات المؤقتة التالية (وهي قد تشجع على تعاطيه بسبب الأفكار الخاطئة):

- زيادة انشراح المزاج.
- تنشيط الإدراك.
- الاسترخاء والراحة.
- زيادة الشهية للطعام.
- خفض تقلصات العضلات.
- توهم زيادة الإبداع والتركيز والاستيعاب.
- إدرار البول.

- المساعدة على الهضم.
- قبض الأوعية والأنسجة في حالات النزف.

هذا عن 'الرحمة' التي يتوهمها فيه كثيرون. أما 'العذاب' الذي في باطنه فيتمثل في:

- زيادة تشنج بروتوبلازم الخلايا العصبية مما ينتج عنه زيادة التوتر والخرف والتبلد وضعف السمع والهلع وفقدان القدرة على الاستيعاب والفهم والتعلم والتركيز، إلى جانب التهابات الأوردة وتمددها واحمرار ملحمة العين والضعف الجنسي.
- الصداع والقلق والتشويش.
- الغثيان.
- اضطراب معدل خفقان القلب مع اضطراب ضغط الدم.
- حالة من التعب الشديد بعد جرعة كبيرة.
- تخيلات وهلوسة – حسب الجرعة.
- فقدان الوقار والرزانة. (مدحت أبو زيد، 1999).

لذلك فإن البانجو يؤثر على كافة أجهزة الجسم لأنه يؤثر في المقام الأول على خلايا الجهاز العصبي، وقد يتسبب في تدمير خلايا المخ وإصابة المدمن بالتخلف العقلي. وبالرغم من أن الإقلاع عن إدمان (البانجو) يعد أمراً سهلاً

بالنسبة للمدمن، فمن الصعب شفاؤه من المرض العقلي حتى بعد إقلاعه عن الإدمان ليظل فريسة للوساوس والهلاوس وجنون العظمة طوال حياته.

وقد أكدت الإحصاءات أن ما نسبته 80% من مدمني (البانجو) يتم شفاؤهم من أعراض المرض العقلي بعد إقلاعهم عن الإدمان، بينما يبقى ما نسبته 20% من الحالات ضحية للتخلف العقلي طوال الحياة بسبب تأثير المخدر على خلايا الجهاز العصبي وتدميره لخلايا المخ لدرجة أن مدمني (البانجو) أنفسهم يقولون عنه إنه "يلحس" المخ.

ثانياً: التبغ : بالرغم من عدم وجود إحصاءات دقيقة عن المدخنين، فإن عدد المدخنين في الولايات المتحدة الأمريكية يتجاوز (50) مليون نسمة يشكلون ما نسبته حوالي 23% من إجمالي تعداد السكان. وفي كندا فإن 45% من التعداد الكلي للسكان هم من المدخنين. وفي المملكة المتحدة تبلغ نسبة الذكور المدخنين 68% ونسبة النساء المدخنات 43% من عدد السكان الكلي. أما في ألمانيا فتصل نسبة المدخنين إلى 60% من العدد الكلي للسكان (عادل دمرداش، 1983).

والمشكلة الأشد خطورة الآن هي ازدياد نسبة المدخنين للشيشة لدرجة أنها قد أصبحت "موضة" وعلامة من علامات الرقي، بل نجد العديد من فنادق الدرجة الأولى – مثلاً في شهر رمضان – تعلن عن مخيم لسهرات رمضان مع الشيشة، مما جعل العديد من المهتمين بالصحة يحذرون من عودة "السل" مرة أخرى، وذلك من خلال تناول "مبسم" الشيشة وانتقاله من فم لآخر، ناهيك عن الإعلانات المتعددة لأنواع من التبغ بطعم التفاح والمانجو والفراولة وغيرها.

مكونات التبغ:

1- **النيكوتين:** وهو مادة شبه قلوية سامة جداً، ويكفي وضع نقطتين أو ثلاث من محلول النيكوتين النقي (30 – 40 ملغم) على لسان إنسان غير مدخن لتقتله. وليس للنيكوتين النقي رائحة إلا أنه يتحلل إذا تعرض للهواء ليصبح لونه بنياً داكناً وتصبح له رائحة التبغ.

2- **أول أكسيد الكربون:** وهو غاز سام جداً يوجد في عوادم السيارات، وينتج عن احتراق الفحم غير الكامل، ويؤثر على الجسم من خلال حرمان الخلايا من الكميات الكافية من الأكسجين، الأمر الذي يؤدي إلى تلف جدران الشرايين مما يقود إلى تراكم السوائل فيها ثم ترسب الكولسترول عليها، وهي الحالة التي تعرف باسم تصلب الشرايين.

3- **القطران:** ويترسب في جدران الحويصلات في الرئتين فيعطل تبادل الغازات فيهما. والقطران هو المادة التي تسبب سرطان الرئة، ويقوم المدخن بطرد نسبة من القطران في المخاط الذي يبصقه في أثناء السعال الذي ينتج من تأثير القطران المهيج.

4- **غازات أخرى:** يحتوي التبغ على غازات أخرى ضارة بالصحة منها سيانيد الهيدروجين الذي يتلف الأغشية التي تبطن الجهاز التنفسي وأكسيد النيتروجين المرتبط بحدوث أمراض الرئة المزمنة.

أضرار التدخين: يسبب التدخين الأضرار التالية مع مراعاة أن الشخص غير المدخن الذي يوجد مع شخص مدخن يتأثر هو الآخر ويعرف ذلك بالتدخين السلبي:

1- **أمراض القلب:** يؤدي التدخين إلى أمراض شرايين القلب والجلطة، ويبلغ عدد الوفيات السنوية نتيجة أمراض القلب نصف مليون نسمة يتسبب التدخين في 25% منها. والتدخين من أهم أسباب الوفيات في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال.

يؤدي التدخين إلى تراكم الدهون في جدران الشرايين مما يؤدي إلى تضيقها وتخثر الدم في أماكن التراكم، فتتكون بذلك الجلطة. وقد وجدت الدراسات أن الأشخاص المفرطين في التدخين ترتفع نسبة الإصابة بينهم بالجلطة والوفاة الفجائية إلى ثلاثة أمثال ونصف. ويسبب التدخين أيضاً جلطة المخ وارتفاع ضغط الدم وأمراض شرايين الساقين التي تضيق مما يؤدي إلى الغرغرينا وبتر للساق. هذا بالإضافة إلى آلام الذبحة الصدرية.

2- **أمراض الجهاز التنفسي:** يؤدي التدخين إلى الإصابة بالسعال المزمن وإفراز المخاط والتهابات الصدر وهبوط وظيفة الرئتين، كما يقود إلى ارتفاع نسبة الإصابة بالتهاب الشعب المزمن أو تمدد الرئتين، وهي حالة تنتج من انفجار حويصلات الرئتين نتيجة للسعال المزمن، فيحبس الهواء داخل تجاويف الرئة، فيشعر المصاب بصعوبة في الزفير وضيق التنفس في أثناء الراحة والمجهود. كما يضاعف التدخين من نوبات الربو الشعبي في المصابين به.

3- **السرطان:** يرتبط سرطان الرئة بتدخين السجائر بصورة خاصة، وبعدد السجائر التي يستهلكها المدخن ومحتواها من القطران، وهل السيجارة بفلتر أم بدون فلتر. وهي حالة ترتبط أيضاً بتدخين الشيشة، وربما تكون الأضرار أكثر. ويسبب التدخين أيضاً سرطان الحنجرة والفم والمثانة والكلى والبنكرياس، وترتفع نسبة الإصابة بالسرطان بين مدخني الغليون.

أضرار أخرى:

- زيادة نسبة حدوث قرحة المعدة والاثني عشر بين المدخنين إلى مثلي نسبتها بين غير المدخنين.
- قد يسبب التدخين أحياناً العمى، وهي حالة يعاني المصاب بها من فقدان النظر البؤري وخاصة بالنسبة للوّنين الأزرق والأحمر. وترتبط هذه الحالة عادة بسوء التغذية.
- يؤدي التدخين المفرط في الرجال إلى العقم وإلى النفور الجنسي، لأن رائحة المدخن الكريهة قد تؤدي إلى أن تنفر زوجته منه (أو العكس بالنسبة للسيدات المدخنات).
- التأثيرات التي تصيب الجنين إبان فترة الحمل، وخاصة إذا كانت الأم مدخنة أو توجد في مكان فيه عدد كبير من المدخنين.

المحور الثاني: الفرد المدمن، حيث تطرح التساؤلات التالية:

التساؤل الأول: هل أي شخصية معرضة للإدمان أم إن الإدمان تقع فيه شخصيات تتسم بسمات وخصائص معينة؟

في الواقع، فإن العديد من الدراسات والأبحاث قد أشارت إلى وجود سمات تميز الشخص المدمن – أو حتى المستهدف بالإدمان. فقد أشار لانج (Lang, 1990) مثلاً إلى أن المدمنين يتسمون بأنهم:

1- غير ناضجين انفعالياً.

2- متهورون.

3- معتمدون إلى درجة كبيرة.

4- أقل تحملاً للإحباط والتوتر.

5- أقل قدرة على تحمل الألم والشعور بالذنب والحزن من معظم الناس.

6- غير قادرين على مواجهة المشكلات بطريقة مباشرة.

7- يجدون صعوبة في تأخير إشباع رغباتهم؛ فهم مثل الأطفال يريدون الإشباع الفوري وبدون تأخير (Lang, 1990).

- أما عادل صادق (1986) فيرى أن الإدمان ينتشر بين أربعة أنواع من الشخصيات هي:

1- الشخصية الاكتئابية Depressive Personality

صاحب هذه الشخصية هو إنسان أميل في مزاجه العام إلى الإحساس المستمر بالحزن وافتقاد الرغبة والحماس لكثير من الأشياء التي تثير حماس الناس، وهذا الشخص معرض لنوبات من هبوط الحالة المعنوية، والإحساس القوي بالحزن والاكتئاب لعدة أيام. ومن هنا فإن اللجوء إلى المخدرات قد يجلب له بعض السرور الذي يفتقده بشكل دائم.

2- الشخصية الفصامية Schizoid Personality

صاحب هذه الشخصية يتسم بالخجل والانطوائية ويفضل العزلة، ويهرب من الناس ومن التجمعات، ولا يقوى على التعبير عن رأيه، ويشعر باضطراب شديد حين يضطر للتعامل مع الناس، لأنه خجول وغير واثق من نفسه.

3- الشخصية المكروبة Stressed personality

هي شخصية تتسم بالقلق والتوتر الدائم بدون أي سبب، وصاحب هذه الشخصية في عجلة من أمره في كل شيء، وهو إلى جانب ذلك شديد الاندفاع لا يستقر له قرار وفي حالة دائمة من المعاناة.

4- الشخصية المضادة للمجتمع Antisocial Personality

يتسم صاحبها بالعدوان والعنف، وهو كثير الكذب، يهرب من المدرسة أو العمل. ويرجع الباحثون هذه الشخصية إلى العديد من السلوكيات المنحرفة منذ الصغر (عادل صادق، 1986).

التساؤل الثاني: هل الإدمان وراثي أم بيئي أم يجمع بين الأمرين؟

في الواقع، لقد أجري العديد من الدراسات في محاولة للإجابة عن هذا التساؤل، وقد استخدمت طرق متعددة للدراسة مثل: دراسات التوائم ودراسات التبني والعلاقة بين الإدمان والأمراض الوراثية ودراسة الحيوانات في المختبر. وبالرغم من تضارب النتائج في بعض الدراسات، فقد ذكر نورمان ميلر ومارك جول (1991) – مثلاً– أن الدراسات التي أجريت على أطفال أسر المدمنين في كل من شمال أمريكا وغرب أوروبا أوضحت أن الأطفال الذين ينتمون إلى آباء مدمنين للكحوليات يشيع بينهم الإدمان أكثر من الأطفال المولودين لآباء غير مدمنين (Norman and Miller, 1991: 3).

كذلك وجدت دراسات حديثة أن الأبناء الذين ينحدرون من آباء مدمنين للكحوليات يزيد معدل انتشار الإدمان بينهم نحو أربعة أمثال معدله بين الأبناء الذين ينحدرون من آباء غير مدمنين، وذلك رغم التنشئة في بيئات التبني حيث لا يوجد إدمان (Anthenelli and Schvckitm, 1992 : 39 – 50).

والخلاصة أن الأمرين كليهما يمكن أن يلعبا دوراً في نشأة الإدمان، ونقصد بهما الوراثة والبيئة. والآباء المدخنون نجد نسبة كبيرة من أولادهم مدخنين على عكس حال الآباء الذين لا يدخنون؛ ذلك لأن الأب قد يكون قدوة لابنه. من ناحية أخرى، تكون هناك رغبة لدى الشخص في بداية مرحلة المراهقة في أن يلفت الأنظار وأن يشعر بالرجولة من خلال التدخين، الذي يعد بوابة الولوج إلى عالم الإدمان بكل لغاته ومفرداته.

المحور الثالث: وجهة نظر المجتمع في الإدمان

لاحظ العلماء وجود فروق حضارية وثقافية فيما يتعلق بمشكلة تعاطي المخدرات، حيث يكون بعضها مفضلاً في ثقافة معينة دون أخرى؛ فنجد مثلاً أن إدمان الخمر منتشر في فرنسا وإيرلندا واسكتلندا والسويد. وينتشر الخمر والمنشطات كذلك في اليابان. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فترتفع نسبة إدمان الخمر والهيروين. وأما عن المخدر المفضل في البلاد العربية فهو الحشيش.

وهنا يبرز هذا التساؤل: ما هو الاحتياج النفسي الذي يشبعه مخدر ما في ثقافة معينة؟ وما هي الأسباب التي تجعل "مخدراً ما" مفضلاً في ثقافة ومرفوضاً في ثقافة أخرى؟

إنّ المخدر إنما يكون استجابة طبيعية لطبيعة الشعب في مرحلة ما في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على إشباع العديد من الاحتياجات النفسية. فعلى سبيل المثال، استخدم الشعب الصيني الأفيون لأنه يتناسب وطبيعته. فالصيني بطبعه مهذب وهادئ ومطيع، عكس الحال في الجزيرة العربية – التي كان يسودها طابع العنف في الجاهلية قبل الإسلام؛ فكان الخمر هو المخدر المفضل. أما في مصر فإنه في عصور الانكماش والاستعمار انتشر تعاطي الحشيش. وكتب "المقريزي" الذي جاء إلى مصر في القرن الرابع عشر الميلادي عن شيوع تعاطي الحشيش بين الفقراء في مصر، حيث كانت الطبقات الدنيا تدمن عليه، كما ذكر أيضاً أن الحشيش كان يؤكل في بلاد الشام والأناضول والعراق، وكان يوجد في مصر ما يسمى "ضامن الحشيش"، وهو شخص كان يحتكر بيع "الصنف"، وكان هؤلاء الأشخاص المحتكرون كانوا يدفعون جزءاً من المال إلى السلطة الحاكمة إبان العصر المملوكي، حتى جاء

الظاهر بيبرس وألغى وظيفة ضامن الحشيش عام 1266م، وأمر والي مصر بجمع ما فيها من حشيش وحرقه، ثم توالى إصدار التشريعات – حتى وقت قريب – دون أن تتوقف زراعة المخدرات أو تعاطيها.

وقد قام بيتمان Pittman بتقسيم الحضارات المختلفة من حيث اتجاهاتها نحو شرب الخمر مثلاً إلى:

أ- **حضارات ممتنعة**: وهي حضارات أو ثقافات تحرم شرب الخمر كلية، وتتصف بسيادة مشاعر سلبية قوية نحو الخمر ومن يتعاطونها.

ب- **الحضارات الازدواجية**: وتختص هذه الحضارات باتجاهات متناقضة نحو الخمر؛ إذ نجد في بعض المجتمعات اتجاهاً يتمثل في أن تعاطي الخمر يقود إلى اللذة، إلا أن المجتمع في الوقت نفسه يستنكر الإسراف في التعاطي والوصول إلى درجة 'السكر البينْ' واختلال السلوك. وهنا يصبح الفرد في حيرة من أمره وقد ينخرط في الإدمان.

ج- **الحضارات المتساهلة**: وهي حضارات تشجع تعاطي الخمر، لكنها تستنكر السكر والتعاطي بإسراف.

د- **حضارات مفرطة في التساهل**: وتتجه هذه الحضارات إلى تشجيع شرب الخمر، ولا تستنكر السكر أو انحراف السلوك نتيجة الخمر (عادل دمرداش، 1983).

الأطفال والإدمان

ركزت كافة الدراسات على إدمان الشباب بصفتهم أكثر الفئات المستهدفة لهذا النوع من الإدمان.

بيد أننا لم نجد الكثير من الدراسات التي نبهت إلى تسلل الإدمان إلى فئة الأطفال، وخاصة إدمانهم للمواد المتطايرة. وهذا الإدمان قد أخذ في الانتشار بين المراهقين والأطفال بشكل خاص وهو ما يعد كارثة لأي مجتمع ينخرط أطفاله في تعاطي ما تسمح به إمكاناتهم. ومثل هذه المجتمعات التي تصاب في شبابها وأطفالها بكارثة الاعتماد على المخدرات، تكون قد خسرت الحاضر والمستقبل معاً.

محكات التعرف على الشخص المدمن

استطاع العلماء المهتمون بمجال الإدمان تحديد عدد من العلامات التي يتم من خلالها التأكد مما إذا كان الشخص مدمناً أو بدأ السير في طريق الإدمان.

في المنزل:

- يتجنب أفراد الأسرة.
- يتجنب التقاء عينيه بعيون والديه.
- تقلب حالته المزاجية.
- ينزع إلى المجادلة حول أي شيء.

- يتجاهل القواعد والأعراف ويتمرد عليها.
- يتمرد دائماً بداعٍ وبلا داعٍ.
- يستخدم لغة غير مهذبة.
- يروي أكاذيب.
- يحيط تصرفاته بالسرية والمبالغة.
- ينغمس في الاستماع للموسيقى الصاخبة.
- تكون عيناه حمراوين، ويشتاق إلى تناول الحلويات.
- يكثر من النوم أو يظل يقظاً لساعات طويلة.
- يتسلل إلى الخارج ليلاً.
- يتلقى مكالمات هاتفية مريبة.
- تمر به فترات طويلة من هبوط الروح المعنوية.
- يخالف القانون.
- قد يقدم على الانتحار.

في المدرسة أو الجامعة:

- يكون تركيزه ضعيفاً.
- يفتقر للدافعية.
- تتناقص الدرجات التي يحصل عليها.

- قد يوصف بأنه عاجز عن التعلم.
- يلقي باللوم على المدرسة أو الإدارة فيما يواجه من مشاكل.
- يكون معروفاً تماماً لدى الإدارة.
- يغش ويسرق ويحطم.
- يفتعل المشاجرات مع زملائه.
- يتسكع حول الأماكن التي يسمح فيها بالتدخين.
- يتوقف عن المشاركة في أي نشاط.

بالنسبة للوالدين:

- يجدان صعوبة في التفاهم معه.
- لا يرتاحان إلى مظهره.
- لا يرتاحان إلى أصدقائه.
- لا يعرفان أصدقاءه.
- يخافان منه أو من التعرض لاعتداء بدني من جانبه.
- يتجادل كل منهما مع الآخر بشأنه.
- يشعران بأنهما بلا حول ولا قوة تجاهه.
- يشعران بأن أموره تتدهور.
- قد يلجأ الوالدان إلى أساليب متنوعة لوقف تدهور حالة الابن.

أما عن علامات الإدمان ، فتبدو في المظاهر الآتية:

1- يبدو المدمن كالهائم على وجهه.

2- يعاني من احمرار في العينين.

3- قد يستخدم الرش (Spray) للتغطية على رائحة يديه.

4- قد يستخدم العلكة أو النعناع للتغطية على رائحة النفس.

5- يسلك سلوكاً عدائياً تجاه الآخرين.

6- يهمل واجبات الحياة العائلية.

7- يعاني من اضطراب في النوم.

8- قد يشعر بالرجفة والقشعريرة لأتفه الأسباب.

9- يتجنب الجلوس مع أفراد الأسرة أو غيرهم.

10- يعاني من قلق حاد.

11- لديه اختلال في الإحساس بالوقت.

12- اختفاء النقود أو الأشياء الثمينة من المنزل.

13- يمتلك ذاكرة ضعيفة.

14- يتحدث بسرعة أو بصوت منخفض جداً (إبراهيم نافع، 1991).

الباب الثالث

مشكلة تلوث البيئة

Pollution

تعريف التلوث

التلوث Pollution هو سمة العصر، ورغم ذلك تعددت التعريفات التي قدمت له.

- فالتلوث هو تغيير في مكونات عناصر البيئة.
- وهو أي تغيير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية، لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابها دون أن يختل توازنها.
- وهو كل ما يؤثر في جميع العناصر البيئية بما فيها الإنسان والحيوان والنبات، وكذلك في كل العناصر الطبيعية غير الحية (مثل الهواء والتربة والبحار ... الخ (أحمد مدحت إسلام، 1990: 19).

أنواع التلوث

أولاً – تلوث الهواء

يتكون الهواء من مجموعة من العناصر الموجودة في الحالة الغازية. ضمن مجالات ونسب محددة تتذبذب بشكل طبيعي بين زيادة ونقصان. ومن أنواع التلوث البيئي ذلك الذي ينتج من عمليات الاحتراق سواء كانت طبيعية أو صناعية، كما تساعد البراكين في إحداث تلوث تتفاوت حدته حسب المكان والنشاط البركاني، ويتسبب أول وثاني أكسيد الكربون وأكاسيد الكبريت والنيتروجين والمواد الهيدروكربونية الناتجة عن احتراق أنواع الوقود المختلفة أو التفاعلات الكيميائية في تلوث الهواء.

ومن الممكن الكشف عن تلوث الهواء من خلال:

أ- حاسة الشم.

ب- الرؤية والإدراك.

ج- أجهزة كشف نسبة التلوث.

أسباب تلوث الهواء

1- زيادة أعداد السيارات ومن ثم زيادة نسبة العادم.

2- كثرة المباني العالية التي تعوق حركة الهواء وتجديده.

3- كثرة إشارات المرور مما يعمل على اختناق حركة السيارات علماً بأن التوقف أو التباطؤ ثم الإسراع في حركة السيارات يؤدي إلى زيادة كمية عادم السيارة.

4- زيادة أعداد المصانع وازدهار حركة التصنيع.

5- زيادة نسبة الاحتراق.

ثانياً: تلوث الماء

يعد الماء ثاني ضروريات الحياة بعد الهواء. قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾.

وتنقسم مصادر المياه التي يستعملها الإنسان إلى:

أ- مياه جوفية.

ب- مياه سطحية.

والماء سلاح ذو حدين، لأنه يمكن أن يكون نقياً فيقود إلى زيادة إنعاش الإنسان (والنبات والحيوان)، كما يمكن أن يكون ملوثاً فيقود إلى العديد من الأمراض.

وقد زادت مشكلة تلوث الأنهار والمحيطات في الوقت الراهن، **وأسباب ذلك متعددة، وأهمها:**

أ- إلقاء القاذورات في المياه.

ب- قضاء الحاجة في الأنهار.

ج- غسيل الأواني والملابس في الأنهار.

د- إلقاء مياه المصانع ومخلفاتها في مياه الأنهار.

هـ- استخدام مياه البحر أو المياه العذبة لتبريد المحركات وتوربينات المصانع والسفن.

و- زيادة حركة السفن والنشاطات البحرية المختلفة التي تؤدي إلى زلزلة استقرار الحياة البحرية في المناطق المائية الضيقة مثل قناة السويس وخليج العقبة والبحر الأحمر.

ز- لجوء الكثير من الصيادين إلى رش مبيدات سامة لقتل الأسماك مما يسهل اصطيادها هذا يقود إلى:

1- تلوث الماء.

2- تلوث الطعام (الكائنات البحرية).

الأضرار الصحية الناجمة عن المياه الملوّثة

أولاً: الأضرار الصحية:

- الإصابة بالتيفؤيد.
- الإصابة بالديزنطاريا.

- الإصابة بالكوليرا.
- الإصابة بالبلهارسيا.
- الإصابة بشلل الأطفال.
- الإصابة بالأمراض الناتجة من نقص العناصر الكيميائية في الماء، ومنها:
  - تورم الغدة الدرقية بسبب نقص اليود.
  - تسوس الأسنان بسبب نقص الكلور، الذي يسبب تآكلاً لمينا الأسنان.
  - الإصابة بالأمراض المعدية والكلوية بسبب زيادة بعض المواد الكيميائية في الماء (سوزان أبو رية، 1999 : 116).

ثالثاً: تلوث التربة:

التفاعل بين الإنسان والتربة قديم قدم الجنس البشري؛ تشبع الكثير من رغباته واحتياجاته. وقد نتج عن السعي إلى إشباع الحاجات البشرية مع الزيادة السريعة في أعداد السكان تزايد ملحوظ في الضغوط على البيئة الطبيعية باستنزاف مواردها وقصورها عن استيعاب النفايات الناتجة من الأنشطة البشرية.

أما أهم مصادر تلوث التربة فهي:

1- الأسمدة الكيميائية.

2- مبيدات الآفات الزراعية.

3- صرف مياه المجاري.

4- الصرف الصناعي.

5- تلوث مياه الري.

6- تلوث الهواء.

7- دفن النفايات السائلة والصلبة.

8- الأمطار الحمضية (عبد القادر علي، 1995).

رابعاً: تلوث السمع

تعرف هذه المشكلة أيضاً بمشكلة الضوضاء. والصوت عبارة عن تغيير في ضغط الهواء ينتج عن حركة موجات الهواء التي تسببها أدوات اهتزازية متحركة. وتوصف موجات الصوت في ضوء تكرارها أو سعتها، وتحدد هذه الخصائص درجة الصوت الذي نسمعه وشدته، والضوضاء مفهوم سيكولوجي يعرف بأنه الصوت غير المرغوب، وتؤثر الضوضاء في أذن السامع التي تدرك الأصوات العالية المتكررة وغير قابلة للتنبؤ والمتقطعة على أنها ضوضاء، وخاصة إذا تداخلت مع نشاط يقوم به الفرد.

وقد تم تحديد ثلاثة أبعاد رئيسية تؤثر في اعتبار الضوضاء ظاهرة بيئية مزعجة، وهي:

أ- ارتفاع الصوت؛ إذ كلما زاد حجم الصوت أدى ذلك إلى إعاقة الاتصال اللفظي وإلى زيادة الاستثارة والتوتر مما يؤدي إلى تركز الانتباه على الضوضاء نفسها.

ب- الضوضاء غير المتوقعة وغير المنتظمة، حيث يقود عدم توقع الضوضاء إلى زيادة الاستثارة والشدة.

ج- إدراك عدم القدرة على التحكم في الضوضاء؛ إذ يؤدي نقص التحكم المدرك في منع الضوضاء إلى الضيق والانزعاج بل والشعور بالتهديد.

وهناك العديد من البحوث التي رأت أن هناك مجموعة من العوامل التي تقود إلى تأثر السلوك بالضوضاء، مثل:

- إدراك الضوضاء على أنها غير ضرورية.
- إدراك الأشخاص الذين يحدثون الضوضاء أنهم غير مبالين بالآخرين الذين يتعرضون للضوضاء.

وإن الشخص الذي يستمع إلى الضوضاء قد يصفها بأنها خطيرة بالنسبة للصحة العامة له. ثم يربط الضوضاء بالخوف. ويصبح غير راضٍ عن بيئته.

أضرار الضوضاء

1- **فقدان السمع**: إن الارتفاع الشديد للصوت، كأن يصل إلى (150 ديسيبل)، حيث الديسيبل وحدة قياس مستوى الصوت، يؤدي إلى تلف طبلة الأذن أو غيرها من أجزاء الأذن. ومشكلة فقدان السمع يعاني منها ملايين من الناس، وقد قدرت وكالة حماية البيئة عدد الذين فقدوا السمع نتيجة

الضوضاء في المجتمع الأمريكي وحده عام 1972 بحوالي ثلاثة ملايين إنسان.

2- **تأثر الصحة الجسمية** وجدت الأبحاث أن ثمة علاقة بين حدوث بعض الأمراض الجسمية وازدياد التعرض للضوضاء، ومن الأمراض التي تصيب الجسم نتيجة تعرضه للضوضاء ما يلي:

- تقود الضوضاء تقود إلى زيادة النشاط الكهربي للجلد، وانقباض الأوعية الدموية الطرفية، وازدياد إفرازات الغدد، وذلك من التغيرات الفسيولوجية المرتبطة بردود الأفعال إزاء الضغط والشدة.
- يقود التعرض الشديد للضوضاء إلى ارتفاع ضغط الدم وإلى السكتات القلبية.

3- تقود الضوضاء إلى العديد من الأمراض العقلية، ويرتبط التعرض للضوضاء بأعراض مرضية مثل كثرة الصداع، والغثيان، وعدم الاستقرار، والثرثرة، والقلق، والتقلب المزاجي.

4- تقود الضوضاء تقود إلى عدم الكفاءة في أداء الفرد لعمله مما يؤدي إلى الدخول في مشاكل متعلقة بالإنتاج والعمل.

5- يعوق التعرض للضوضاء التحصيل الدراسي والنمو التعليمي للتلاميذ.

6- تقود الضوضاء إلى السلوك العدواني.

7- تؤثر الضوضاء في طبيعة التفاعل الاجتماعي لأنها تحول دون تواصل الحوار بين الشخص والآخرين (فيولا الببلاوي، 1992).

خامساً: التلوث الغذائي

يعني وصول ملوثات إلى الطعام سواء كانت ملوثـات كيميائيـة أو فيزيائيـة أو ميكروبية. والملوثات الكيميائية للغذاء كـثيرة، وتـشمل معظـم المـواد العـضوية والعناصر السامة مثل الزئبق والنحاس والكلور والرصاص، أما التلوث الميكروبي فينشأ من وصول بكتيريا أو فطريـات سـامة إلى الغـذاء تـؤدي إلى تـسممه Food Poisoning .

وقد حدثت في الفترة الأخيرة زيادة في استخدام المبيدات مما قاد إلى العديد من الأمراض. وفي دراسة علمية عن الأضرار التي تحدثها المبيـدات الحـشرية علـى الإنسان والبيئة، أجريـت في مـصر، وجـد أن المبيـدات الحـشرية تحـدث الأضـرار الآتية:

1- التأثير الشديد على الكبد.

2- التأثير الشديد على الكلى.

3- نقص المزايا الموجودة في الكبد والكلى في إفراز بعض المواد.

4- تلوث البيئة.

سادساً: التلوث الإشعاعي

ينتج التلوث الإشعاعي عن مصدرين:

الأول طبيعي ويتمثل في الأشعة الكونية.

والثاني صناعي ويتمثل في المفاعلات الذرية والصناعات الإشعاعية.

- وتتمثل الأشعة الكونية فيما يصدر من النشاط الإشعاعي الطبيعي للعناصر المشعة وما يتسرب من أشعة فوق بنفسجية من الشمس عن طريق تآكل طبقة الأوزون.

- أما التلوث الإشعاعي الصناعي فيتمثل فيما ينتج ويتسرب من المفاعلات والصناعات الذرية، سواء كان هذا التسرب عن طريق الأخطاء كما حدث في مفاعل تشرنوبل في روسيا أو بطريقة مقصودة كما حدث في الحرب العالمية الثانية في مدينتي هيروشيما ونجازاكي في اليابان بفعل إلقاء القنابل النووية عليهما. وفي كافة الأحوال، فإن تأثير التلوث الإشعاعي يختلف عن غيره من أنواع التلوث في أن تأثيره قاتل، لأن تأثير الأشعة يكون مباشراً على المادة الوراثية والمادة الحية لخلايا الكائنات الحية المختلفة، الأمر الذي يؤدي إلى إحداث الدمار والتشوهات الخلقية والفسيولوجية أو حتى نشوء كائنات ذات صفات جديدة قد تكون خارجة عن المألوف (سوزان أبو رية، 1999).

ولعل ما ما تبثه وسائل الأعلام المختلفة عن التشوهات التي ما زالت موجودة حتى الآن ويتم توارثها في بعض أفراد الشعب الياباني تلقي بظلالها على هذه المشكلة رغم مرور كل هذه الأعوام.

سابعاً: الزحام

يدخل الزحام ضمن أهم مشكلات الإنسان البيئية لأن الزحام في الأساس حقيقة مادية تصف زيادة عدد البشر الموجودين في مكان ما على نحو يفوق الإمكانيات الاستيعابية لهذا المكان. وبهذا المفهوم، يمتد الزحام ليشمل جميع الأماكن، كما يمكن أن يوجد الزحام في بعض البيئات داخل المدن من خلال الإسكان العشوائي حيث المساكن المكتظة التي ليست فيها شبكة مرافق من طرق ومياه وكهرباء وصرف صحي، أو قد توجد فيها شبكة مرافق متهالكة ومنهارة. وفي جميع الأحوال، تعاني تلك المساكن من كثافة سكانية عالية فيها تخلق العديد من الاضطرابات في نسق القيم والتفاعلات والعلاقات (محمد الجوهري، 1991). وقد تناول علم النفس البيئي الزحام بالدراسة والتحليل، وقدم العديد من التجارب والنظريات التي تحاول تفسير سيكولوجية الزحام .

كيفية المحافظة على البيئة

أولاً: المفهوم الديني – الإسلامي

حذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أن التلوث له انعكاسات ضارة على صحة الإنسان. وفي هذا ورد العديد من الأحاديث التي تحض على الاهتمام بالصحة والنظافة.

- (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

- (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم وساحاتكم).
- (اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل).

كذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن الضوضاء والجلبة بقوله: (لا تروعوا المسلم فإن روعه المسلم ظلم عظيم).

وكان كذلك يحث على حماية النباتية، ومن أجل ذلك أوجب على أمته الحفاظ على الخضرة بقوله: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليفعل).

كما كان يحرص على الحفاظ على البيئة الطبيعية، فكانت دوماً نصائحه لقواده المقربين: (... ولا تحرقن نخلاً ولا تخربن عامراً).

ومما يحض على الحفاظ على البيئة قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: 74).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: 85)، (رضا عبد الحكيم إسماعيل، 1997).

ثانياً: في علم النفس البيئي

يحرص علم النفس البيئي على إثارة الاتجاهات الإيجابية تجاه البيئة، وذلك يمكن أن يتم من خلال المحاور الآتية:

1- **طريقة طرح الأسئلة والاستفتاءات والحوار:** وذلك من خلال عرض صور التلوث وقضايا السلوكيات البيئية مع عددٍ من العبارات التي تستدعي استجابة الفرد نحو المضمون السلوكي الذي تحتويه. وهذا يمثل في حد ذاته أسلوباً نفسياً لتنشيط الوعي نحو قضية تؤثر في حياة الفرد والجماعة.

2- **النمذجة الاجتماعية:** من خلال بناء نموذج اجتماعي يقوم على التعليم بالملاحظة مما يؤدي إلى تكوين عادات سلوكية تؤدي إلى الحفاظ على البيئة، وعلى الأخص عندما يلقى السلوك تدعيماً أو مكافأة، سواء كان ذلك معنوياً أو مادياً.

3- **أسلوب تكوين النواة البشرية:** حيث تقوم الدولة بتكوين وتدريب فرق من الشباب والفتيات مهمتهم توعية الجمهور بالمحافظة على البيئة من خلال الحوار واللاصقات وغيرها في الجوامع والكنائس والمدارس، وبالتالي تتزايد مساحة الوعي بأهمية الحفاظ على البيئة.

4- **أسلوب العمل الثقافي والإعلامي:** حيث يتم على فترات زمنية متقاربة التحذير في وسائل الإعلام والمنشورات الثقافية من خطورة التلوث، إضافة إلى مناقشة الأفكار المرتبطة ببعض قضايا تلوث البيئة.

5- أسلوب الترغيب – الترهيب: ويأتي ذلك عن طريق زيادة الوعي بخطورة تلوث البيئة في صوره المختلفة من خلال اتباع أسلوب الثواب والعقاب؛ إذ يكافأ المحافظ على البيئة بطرق مختلفة بينما يعاقب من يسهم في تلويث البيئة.

وفي هذا السياق يتم عرض صور ونماذج مدعمة بالإرشادات والنصائح مع التركيز على الجانب الديني.

والخلاصة أن التوعية البيئية لا تهدف فقط إلى توفير المعلومات بقدر ما تهدف إلى تغيير سلوك الأفراد وتغيير أسلوب صناعة القرار. فالتعاون والإقناع مطلب أساسي، ويتجه علم النفس البيئي الآن نحو تطبيق قوانين تكون العادات السلوكية التي توصل إليها علم النفس التجريبي في مجال تعديل الاتجاهات السلوكية نحو البيئة من أجل التفاعل بين **المنظومات الثلاث الآتية:**

أولاً: النظام المعرفي الذي يتضمن عرض وتقديم المعلومات البسيطة الموجهة إلى أهمية المحافظة على البيئة، ويتضمن ذلك إدخال هذا الموضوع ضمن المقررات التي يدرسها طلاب المدرسة والجامعة.

ثانياً: النظام الوجداني الانفعالي: ويتضمن ذلك تقديم نماذج إيجابية مصورة أو من خلال أعمال الشعراء والفنانين تؤدي إلى خلق مناخ للتعاطف مع البيئة وحمايتها من كافة صور الاعتداء عليها.

ثالثاً: النظام السلوكي: ويتضمن عرض نماذج من السلوك الفعلي الذي يقوم به البعض للحفاظ على البيئة مع تقديم جوائز من خلال مسابقات لطلبة المدارس وهكذا تتوالى الجهود وتتضافر من أجل حماية البيئة من جور الإنسان (عبد الوهاب محمد كامل، طارق سويف، 1995).

علاقة علم المشكلات النفسية الاجتماعية بغيره من العلوم

يرتبط علم المشكلات النفسية الاجتماعية بالعديد من العلوم الأخرى، مثل:

1- علم النفس Psychology وهو ذلك العلم الذي يهتم بدراسة كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك سواء كان مباشراً أو غير مباشر. لذا فإن علم النفس - شأنه شأن العلوم الأخرى- يتبع في تناوله للظواهر النفسية أصول المنهج العلمي، وأحياناً يطوع المنهج حتى يكون مناسباً للطبيعة الخاصة للظواهر النفسية؛ فهو يستخدم القياس والتجريب والملاحظة وضبط المتغيرات والمعالجات الإحصائية والتحليلات الكيفية والمقابلات الاكلينيكية وجمع البيانات السابق تسجيلها من جهات الاختصاص حول ما يتعلق بالظاهرة موضوع الدراسة، وإن كان الفرد هو محل اهتمام علم النفس في المقام الأول.

2- علم الاجتماع Sociology وهو العلم الذي يهتم بالدراسة العلمية لتكوين الجماعات المنظمة والمجتمعات القائمة ونظمها ومؤسساتها ووظائفها والتفاعلات الاجتماعية بين أعضائها، وكل ما يسهم في التفاعل الاجتماعي أو الجماعي أو يندرج تحت الظواهر الاجتماعية المختلفة كظاهرة الأسرة أو القيم أو الصراع الاجتماعي أو الروح المعنوية أو تماسك الجماعة.

فمثلاً، إذا طرح سؤال بشأن انتشار الإدمان في فترة زمنية معينة على عالم النفس وعالم الاجتماع، فسوف نجد أن عالم النفس العارف بالعمليات النفسية -

وراء الإدمان – سوف يذهب إلى التعميم الاجتماعي فيلحق بـالمجتمع مـا يجـده في الفرد المدمن. أما عالم الاجتماع العارف بقواعد التغير الاجتماعي فـسوف يـذهب إلى التخصيص.

بعبارة أخرى، سوف يتجه عالم النفس إلى التعميم مـن الفـرد إلى الظـاهرة الاجتماعية، وسوف يذهب عالم الاجتماع إلى تخصيص الظرف الاجتمـاعي لـيعني فرداً معيناً هو الفرد المعياري، ولا شك في أن وقوع كل منهما في نقطة الاتصال – أو الانفصال – بين الفرد والمجتمع هو السبيل الوحيد للإجابة عن سؤالهما المشكل. ونظراً للتداخل وميوعة الحدود بين تخصصيهما، ظهرت تخصصات أخرى جديدة.

3- علم النفس الاجتماعي **Social Psychology** وهـو أحـد فـروع علـم الـنفس، ويركز على الدراسة السيكولوجية لمختلف الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تنشأ من وجـود المجتمـع أو الجماعـة وتفاعلاتهـا وتكويناتهـا وعـضويتها واحتكاكـات أعضائها، وما ينتج عن العلاقات بينهم مـن ظـواهر نفـسية واجتماعيـة كالتعـاون والتنافس والقيم والمعايير الخاصة بالجماعة.

4- علم الصحة العقلية **Mental Hygiene** وهو العلم الذي يدرس توافـق الفـرد مع بيئته وكافة المعوقات التي تعترض عملية التوافق. ذلك لأن الاضـطرابات تعـبر عن اللاسواء؛ فإذا كان السلوك هو محصلة التفاعـل بـين القـوى الذاتيـة والقـوى البيئية، فلا بد أن يكون التوافق تصالحاً بين الذاتية والموضوعية. كمـا يكـوّن عـدم التوافـق درجـة مـن درجـات الابتعـاد عـن الموضـوعية تبلـغ أقـصى صـورها في

الأمراض العقلية. ومعنى ذلك أيضاً أن علم الصحة العقلية يـدرس سـيكولوجية التوافق لهدف أساسي هو الوقاية مـن الوقـوع في مظـاهر الاضـطرابات الوظيفيـة المختلفـة، علمـاً بـأن الحـالات المرضـية مـا هـي إلا نتيجـة العجـز عـن مواجهـة الصراعات الداخلية فوقع أصحابها في براثن المرض.

5- **الخدمة الاجتماعية Social Work** وهي خدمة مهنية متخصصة تـؤدى للنـاس بهدف مساعدتهم كأفراد في جماعة للوصول إلى علاقات أفـضل وبلـوغ مـستويات تتماشى مع رغباتهم الخاصة وقدراتهم، بحيث تكون تلك العلاقات في توافـق مـع رغباتهم ورغبات المجتمع المحلي. والخدمة الاجتماعية ضرب مـن الأنـشطة المنظمـة التي تمارسها الحكومات أو الهيئات غير الحكومية وتـستهدف إعانـة مـن يواجهـون صعوبات في تأدية دورهم في الحياة الاجتماعية بصورة طبيعيـة، وترمـي كـل هـذه الجهود إلى إعادة التأهيل ومعاونة المرضى والمعوقين ممن تحول ظروفهم دون ممارسة دورهم بفاعلية ومشاركة.

6- **الإحصاء** Statistics وهو علم يستند إلى الأساليب الرياضية في معالجة البيانات الكمية (الرقمية) التي تجمع في البحوث العلمية المختلفـة (سـواء أكانـت نفـسية أم اجتماعية أم سكانية أم اقتصادية أم طبية ... إلخ) بهدف تحليلها واستخراج النتائج التي أجري البحث من أجل التوصل إليها، كما يهدف علـم الإحـصاء إلى اختبـار مدى الثقة أو الصدق الذي تتمتع به هذه النتائج.

7- **الديموغرافيا أو علم السكان Demographic** وهو الفرع من العلم الذي يعنى بدراسة كافة العوامل المتعلقة بالسكان، مثل المواليد والوفيات والهجرة والانتقال والنزوح من الريف إلى المدن أو خارج البلد، وأسباب ذلك. ويحاول علم السكان قدر الإمكان ربط هذه القضايا بكافة المتغيرات الاقتصادية والتاريخية المتابعة التي يستهدفها المجتمع.

مثال: أثبتت الملاحظات والدراسات والإحصاءات أن حالات الهجرة تتزايد من الريف إلى المدن وليس العكس، كما أثبتت زيادة المواليد والوفيات بين الأطفال في الريف عن المدن كمثال آخر.

8- **علم النفس البيئي**: وهو فرع حديث نسبياً من فروع علم النفس، ويهتم بدراسة علاقة الإنسان بالبيئة التي تؤثر في سلوكه تأثيراً يمكن قياسه وتقدير آثاره. ولا تمثل البيئة إلا ما يكون له تأثير في سلوك الكائن الحي أو في إكسابه خصائص معينة فقط. ويرى علم النفس البيئي أن التفاعل متبادل بين الإنسان والبيئة، وأن الإنسان بممارساته غير المسؤولة يساهم في إفساد البيئة مما ينعكس سلباً على صحة الإنسان وأنشطته وتفاعلاته في الغالب.

(تمت الاستعانة بتعريف فروع العلم المختلفة السابقة بموسوعة علم النفس والتحليل النفسي، فرج طه وآخرون، 1993 : صفحات متفرقة).

كانت تلك أهم فروع العلم المختلفة التي يتفاعل معها علم المشكلات النفسية الاجتماعية، وإن كان المجال – من وجهة نظرنا – ما زال رحباً لإدخال

فروع العلم الأخرى إلى هذا الميدان، مثل علم النفس الجنائي وعلم النفس الصناعي وعلم النفس الإكلينيكي وعلم التاريخ وغيرها.

التنبؤ بمستقبل علم المشكلات النفسية الاجتماعية

مع زيادة المشكلات النفسية الاجتماعية وانتشار العولمة والإنترنت وغيرها من الوسائل التي جعلت من العالم قرية صغيرة، فلا شك في أن ذلك له مزاياه وعيوبه، ذلك أن سرعة الانتقال والتفاعل فتحت الباب على مصراعيه أمام إمكانية نقل المشكلات بين بقاع مختلفة من العالم، وذلك بالرغم من إيماننا بالخصوصية الحضارية والثقافية لكل مجتمع على حدة والجدير بالذكر أن الأمل يظل قائماً في زيادة الاهتمام بهذا التخصص. وربما نشهد في المستقبل خروج العديد من العلماء عن تخصصهم الضيق المحدود إلى رحاب أكثر شمولية تمكنهم من فهم الظواهر والمشكلات النفسية الاجتماعية وسبر أغوارها. وقد يؤدي التنبؤ بحدوث مشكلة ما في مكان ما إلى العمل على الوقاية منها، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال فريق عمل بحثي تكون مهمته رصد كافة المتغيرات، والقيام بتحليل البيانات واستخراج النتائج ثم تحويلها إلى جانب تطبيقي. وهنا يكتسب العلم دوره وأهميته بل واحترامه وتقديره من قبل الجميع.

الباب الرابع

المجتمع والمشكلات الاجتماعية

المجتمع

الإنسان اجتماعي بطبعه، فمنذ ولادته ينخرط بمجتمع الأسرة التي تعمل على المحافظة عليه، وإشباع حاجاته المختلفة، وإكسابه اللغة وعادات سلوكية محددة وخبرات كثيرة، وتعمل أيضاً على تنميته وإبراز شخصيته الفردية والثقافية. وبعد ذلك ينضم الطفل إلى مجتمعه أكثر اتساعاً بعد دخوله المدرسة، وتزداد علاقاته تشابكاً، وتفاعلاته تعقداً. ومن ثم ينطلق بعد نضوجه ودخوله الجامعة إلى المجتمع الكبير؛ إذ يبدأ دوره في هذا المجتمع بالتحدد والتبلور، ويبدأ بالتعرف إلى حقوقه وواجباته ومسؤولياته فيه. وقد يتسع نطاق المجتمع الذي يعيش فيه ليشمل مجتمع أبناء عمره، أو مجتمع أبناء مهنته أو تخصصه العلمي، أو أبناء توجهه الفكري والأيديولوجي، وقد يتسع نطاق مجتمع الفرد أكثر ليشمل المجمع العالمي. وهذا ما تسعى إليه التربي الحديثة في إعداد الإنسان ليكون إنساناً عالمياً، منفتحاً على الثقافات والحضارات الأخرى الأخرى، ناقداً وممحصاً ومحللاً لها، آخذاً ما يناسبه منها ومضيفاً إليها بما يتناسب معه ومع مجتمعه وبيئته.

وهناك تعريفات متعددة ومختلفة للمجتمع نذكر منها ما يلي:

- المجتمع في أبسط معانيه هو «مجموعة من الأفراد والجماعات الـذين تـربطهم وحدة المكان والثقافة».

- المجتمع هو «مجموعة من الأفراد يعيشون معاً فوق بقعة ما بتعاون وتـضامن، ويرتبطون بتراث ثقافي معين، ولديهم الإحساس بالانتمـاء بعـضهم لـبعض والولاء لمجتمعهم، ويكوّنون مجموع من المؤسسات تقـدم خـدمات ضـرورية لهم في حاضـرهم، وتـضمن لهـم مـستقبلاً مـشرفاً في شـيخوختهم، وتـنظم العلاقات فيما بينهم».

- المجتمع هو «مجموعة من الأفراد التي تعيش في بيئة محددة، وتترابط مع بعضها من خلال مؤسـسات تـنتظم علاقاتهـا وتخـدم حاجاتهـا القائمـة والمنتظـرة، ويتشكل لدى هذه الجماعة تراث ثقافي مشترك، يجعلهم يـشعرون بالانتمـاء المباشر لبعضهم بعضاً ولمجتمعهم على حدّ سواء».

ونتبين من التعريفات المختلفة للمجتمع أن هنـاك شـروطاً ينبغـي توافرهـا قيام المجتمع وهي:

1. وجود أفراد يعيشون لفترة طويلة نسبياً في مكان ما (رقعة جغرافية).
2. وجود نظام اتصال محددة (لغة مشتركة) بين أفراد المجتمع.
3. وجود ثقافات ذات عموميـات مـشتركة بـين أفـراد المجتمـع، وخـصوصيات ثقافية مميزة توجه سلوك أفراد المجتمع.
4. وجود شعور جماعي بالوحدة الاجتماعية والتماسك الاجتماعي.

5. وجود نظم ومؤسسات تعمل على تحديد العلاقات الاجتماعية وتنظيمها، وتخدم حاجات المجتمع الحالية والمستقبلية، وتوجهه نحو بلورة حضارة معينة.

عناصر المجتمع

يتكون المجتمع كنظام من مجموعة من العناصر المترابطة والمتآلفة (نظم فرعية)، وهي: السكان، والبيئة الطبيعية، والبيئة الاجتماعية، والبيئة الثقافية، والبيئة التربوية، والبيئة الاقتصادية، والبيئة السياسية، والبيئة التكنولوجية؛ إذ يسعى كل عنصر (نظام فرعي) منها إلى تحقيق أهدافه الخاصة التي تترابط مع أهداف العناصر (النظم الفرعية) الأخرى، ومن ثم تحقيق الأهداف العامة للمجتمع. وجدير بالذكر أن لكل واحد من هذه النظم الفرعية تأثيراته الخاصة على النظام التربوي.

أولاً: السكان

السكان هم مجموعة الأفراد الذين يعيشون في المجتمع. وينقسم السكان حسب أعمارهم وطبقاتهم وأجناسهم وأصولهم إلى فئات مختلفة، ويؤثر عنصر السكان على التربية والتعليم من زوايا مختلفة؛ إذ قد يفرض تركز السكان في المدن، وهجرة السكان من الريف إلى المدينة طلباً للرزق، وتركز المدارس والخدمات التعليمية في المدن والمناطق الأكثر اكتظاظاً بالسكان أعباء كبيرة على نظام التربية والتعليم، كما قد لا تتماشى الزيادة السكانية أحياناً مع معدلات

التنمية التعليمية، وقد تعجز الدولة بمواردها المحدودة عن توفير فرص التعليم لأبنائها بمعدل يتماشى مع الزيادة السكانية، ولذلك يصبح معدل القبول في المراحل التعليمية المختلفة منخفضاً، وتزدحم الصفوف وتزيد نسبة تسرب الطلبة، ويصبح الاهتمام بالكم أكثر من الاهتمام بالنوع.

وتشكل مسألة التكوين العنصري للسكان تحدياً آخر للنظم التربوية المختلفة؛ إذ يفترض أن تقدم هذه النظم تعليماً موحداً لجميع الأفراد بغض النظر عن تكوينهم العنصري، إلاّ أن أرض الواقع خلال العقود السالفة بينت أن النظم التعليمية في بلاد مثل الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب إفريقيا وغيرها، قد قدمت للأجناس المميزة (السكان البيض) نظاماً تعليميً متقدماً من جميع النواحي، بخلاف الجنس الآخر (السكان السود) الذي قدمت له نظاماً تعليمياً متدنياً.

ويقع على عاتق النظم التربوية الحديثة أن تأخذ بعين الاعتبار عامل السكان والتغيرات السكانية لدى رسم سياساتها وخططها التربوية، وأن تعمل على تقديم نظام متقدم للتعليم لهم بغض النظر عن جنسهم أو أصولهم أو لونهم أو قومياتهم أو دينهم... الخ.

ثانياً: البيئة الطبيعية

البيئة الطبيعية هي الإطار البيئي والجغرافي الذي يعيش الأفراد فيه، وتشمل المناخ، والتربة، والتضاريس، والثروات الطبيعية كالمياه والغابات والبترول والمعادن... الخ.

ومن المعلوم أن للبيئة الطبيعية دوراً مهماً في تشكيل شخصية الأمة؛ إذ أن طبيعة البلد الساحلي أو الجبلي أو القاري تضفي على السكان ملامح معين. ويقع بذلك على النظم التربوية أن تتواءم مع الظروف الطبيعية للمجتمع. فالبيئة الجغرافية مثلاً تؤثر في طبيعة تفكير الفرد وخياله، وتشكل جانباً من خلقه وطباعه. فالبدوي على سبيل المثال ذو خيال خصب وواسع، وهو دائم الترحال والتنقل طلباً للكلأ والماء. لذلك، كان من الصعوبة بمكان على الحكومات إقناعه بالاستقرار أو بناء مدارس مستقرة وثابتة له، مما أدى إلى حرمانه من التعليم في أحيان كثيرة.

ويؤثر المناخ أيضاً على النظم التربوية من زوايا متعددة؛ فالمناخ قد يحدد سن بدء الدراسة، وفترة الإجازات المدرسية، وشكل المباني وأسلوب العمارة، ونوع مواد البناء المستخدمة في المدارس، ونوع الأثاث، وطبيعة وسائل المواصلات المستخدمة في نقل الطلاب.

ولطبيعة البيئة (بدوية أو زراعية أو صناعية) أيضاً دور في تحديد محتويات المناهج والبرامج، والمواد الدراسية، ونوعية المؤسسات التربوية (مدارس خاصة، وحكومية، ووكالة غوث... الخ) التي تخدم هذه البيئة. فالبيئة الزراعية أو الصناعية أو التكنولوجية تفرض نوعاً معيناً من النشاط الاقتصادي والتكنولوجي؛ لذلك تختلف المناهج بقدر الخدمة التي يقدمها النظام التربوي للمجتمع الذي يوجد فيه.

وتعد خصوبة الأرض، ووفرة المياه، وتوافر المناجم والمعادن والبترول مصادر مهمة للإنتاج والثروة، فباختلاف الثروات الطبيعية يختلف الإنفاق على

التعليم من بلد إلى آخر، وتختلف أيضاً الفرص التعليمية التي توفرها الدولة لأبنائها.

لقد فرض المجتمع المعاصر (المجتمع الصناعي) تغيرات عميقة على البيئة تمثلت في الاستغلال غير العقلاني للموارد الطبيعية، واستعمال غير مراقب للتقنيات الملوثة، وتخلخل واضح في مرتكزات العلاقة بين الإنسان والبيئة. وفي ضوء التغيرات البيئية هذه أصبح لزاماً على التربية أو تقوم بما يلي:

أ. الاهتمام في كل مستويات التعليم بالأخلاق البيئية الجديدة .

ب. إفهام الطلبة في كل المستويات مدى تعقدي البيئة المحيطة، ليكونوا مستعدين لدعم الأنشطة والفعاليات التي تهدف إلى حمايتها وإدارتها بصورة عقلانية.

ج. تزويد الطلبة والمتعلمين بمعارف علمية حول مشكلات البيئة، وحفز الاعتبار والاحترام للوسط البيئي لديهم.

د. إعادة التوازن في العلاقة بين الإنسان وبيئته، وذلك من خلال تعريف الطلبة بأهمية البيئة السليمة للوجود الإنساني، وإكسابهم اتجاهات إيجابية نحوها.

ثالثاً: البيئة الاجتماعية

البيئة الاجتماعية هي المناخ الذي يعيش في ظله أفراد المجتمع. وتشمل هذه البيئة المؤسسات الاجتماعية على اختلافها، كالأسرة، ودور العبادة، والإدارات الحكومية، وأيضاً الجماعات التي لها أنظمة خاصة كالغرف التجارية والصناعية

والجمعيات الخيرية والنقابات المهنية... الخ، وكذلك الهيئات والتجمعات والجمعيات المختلفة، مثل جمعيات المرأة، وجمعيات المكتبات والمعلومات، وجمعيات البنوك، وغيرها. وتتضمن البيئة الاجتماعية أيضاً العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد المجتمع من جهة، وبينهم وبين المؤسسات الاجتماعية الموجودة في مجتمعهم من جهة أخرى، كما تشمل علاقة المجتمع بغيره من المجتمعات.

وجدير بالذكر أن التركيب الطبقي وما يتصف به من تمتع طبعة معينة بالامتيازات الاجتماعية على غيرها من الطبقات، ينعكس أثره على النظم التربوية السائدة؛ فهناك على سبيل المثال مدارس عامة (حكومية) لعامة الناس، ومدارس خاصة للطبقات الغنية. وقد أصبح التعليم في كثير من المجمعات وسيلة للانتقال من طبقة إلى أخرى، ووسيلة للوصول إلى المراكز الاجتماعية والسياسية.

ويتطلب ما سبق من التربية ما يلي:

أ. أن تعي دورها في مجال تفاعل العوامل الاجتماعية والثقافية لكل مجتمع.

ب. أن تواجه الضغوطات الاجتماعية الجديدة لمصلحة تكافؤ الفرص.

ج. الاستجابة لمتطلبات الجماعات للذات الثقافية.

د. معالجة ظاهرة أوقات الفراغ والترفيه التي تزداد يوماً بعد يوم.

ه. إتاحة تكافؤ الفرص التعليمية لجميع أفراد المجتمع.

رابعاً: البيئة الثقافية

تشمل البيئة الثقافية العموميات والخصوصيات والمتغيرات الثقافية السائدة في المجتمع، مثل الدين والعادات والتقاليد واللغة والفنون وطرق التفكير ووسائل الاتصال والمواصلات والمهن والحرف وغيرها.

وتؤثر هذه المكونات الثقافية تأثيراً مباشراً وجوهرياً في النظم التربوية؛ إذ يلعب العامل الديني على سبيل المثال دوراً مهماً في تحديد محتوى المنهاج، أو حذف موضوعات معينة منه، وفي بلورة الأخلاق التربوية وصقلها بما فيها أخلاق المعلم والطالب والمؤسسة التربوية على حدّ سوا. كما يبرز أثر الدين في مسميات المدارس والمؤسسات التعليمية، وفي مباني المدارس والطرز المعمارية فيها، وفي الإدارة والفلسفة التربوية.

وتعد اللغة أيضاً من العوامل المهمة في تشكيل شخصية الأمة الثقافية، وفي نجاح النظام التربوي وتطوّره باعتبارها الوسيط الذي يتم من خلاله نقل المعلومات إلى المتعلمين، والتعبير عن المفاهيم والأفكار المختلفة في المنهاج. كما تمثل البؤرة الأساس في التخطيط التربوي والخطط التربوية.

وتلعب العادات والتقاليد أيضاً دوراً بارزاً في التأثير على النظم التربوية، وبخاصة في المجتمعين العربي والإسلامي؛ إذ حرمت العادات والتقاليد سابقاً – التي تقضي بعدم خروج الإناث من البيت إلا بصحبة ذويهن – كثيرات منهم من التعليم، فازدادت نسبة الأمية بينهن على نحو كبير مقارنة بالذكور، وظهرت نتيجة لعدم تشجيع المجتمع لمسألة الاختلاط مدارس خاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث، كما أثرت العادات والتقاليد أيضاً على مباني المدارس؛ إذ غالباً من

تكون أسوار مدارس الإناث أعلى من أسوار مدارس الذكور؛ وذلك لحماية الإناث من المتلصصين.

وإزاء هذا كله تقوم التربية بوظيفة مهمة تتمثل في نقل التراث الثقافي إلى الأجيال اللاحقة وتنقيحه وتنقيته وتجديده وتطويره، وأيضاً في جعل التغيرات والتطوّرات الثقافية موضوعاً للدرس والنقاش، وذلك بغرض مساعدة الفرد على التكيف مع المجتمع والتطورات الحاصلة فيه.

خامساً: البيئة الاقتصادية

تعدّ البيئة الاقتصادية للمجتمع من أهم العوامل المؤثرة على النظم التربوية في الوقت الحاضر، وتشمل القوانين والنظم والتشريعات الاقتصادية، والمؤسسات الاقتصادية (مثل البنوك، والأسواق المالية، والمصارف، ووزارات المالية... الخ)، والنقود والأوراق المالية، واستثمار، والإنتاج، وغيرها. وهناك علاقة تبادلية كبيرة بين الاقتصاد والتعليم؛ إذ يعدّ الاقتصاد أحد المقومات الأساسية لنجاح النظام التربوي وتطوّره، فبدون اقتصاد قوي وميزانية ملائمة لا يتوقع لأي نظام تربوي أن ينجح أو أن يتقدم، وبدون مخصصات مالية مناسبة لا يمكن أن تبرزت أي خطط تربوية مهما كانت إلى حيّز الوجود أو أن يتم نجاحها. وللاقتصاد علاقة أيضاً بالمناهج ومدى تطوّرها، وبإقامة المباني والتسهيلات، وبتدريب المعلمين وإعادة تأهيلهم، وبعلاقة المعلم بالمدرسة والولاء لها (الرضا الوظيفي للمعلمين)، وبالأخلاق التربوية، وبالمشكلات التربوية وبخاصة مشكلات الطلاب.

ويرى علماء الاقتصاد أن القوى البشرية المؤهلة والمدربة هي ثروة الأمة وهي رأس المال الثابت، وأن الإنسان هو أداة الإنتاج والتنمية الشاملة والتطوّر والتقدم. وهنا يأتي دور التربية في إعداد القوى البشرية المؤهلة علمياً وفنياً وتقنياً واللازمة لتطوير الاقتصاد. كما تعمل التربية على دراسة حاجات المجتمع من القوى العاملة وتوجيه التعليم وتخصصاته المختلفة خدمة لهذه الحاجات.

سادساً: البيئة السياسية

تتضمن البيئة السياسية النظرية السياسية التي يمارسها المجتمع، وطبيعة نظام الحكم (دكتاتوري أو ديمقراطي)، والتحديات والاستقرار الداخلي والخارجي ومن هنا تبرز نقطتان هما: أولاً: الظروف السياسية الدائمة التي يعيشها المجتمع الذي ينظم شؤون حياة أفراده بناءً على مبادئها وقوانينها، وثانياً: الظروف السياسية الطارئة التي تفرض نفسها على المجتمع فيضطر إلى تغيير سياسته وتعديلها بناء على هذه الظروف.

ومن المعلوم أن النظم التربوية تتأثر على نحو دائم ومباشر بنوع نظام الحكم السائد وفلسفته التي يطبقها على المجتمع. ففي الأنظمة السياسية الدكتاتورية يزداد تدخل الدولة في التربية والتعليم وتوجيهها خدمة لفلسفات السلطة الحاكمة ومصالحها، وتنعدم الديمقراطية التربوية، ويصبح دور المتعلم سلبياً، فلا يحق له التعبير عن رأيه، أو مناقشة أية قضايا أو أمور تربوية أو سياسية فرضتها السلطة الحاكمة، وأيضاً تشتد قبضة السلطة الحاكمة على النظام التربوي وتسوده تبعاً لذلك المركزية المطلقة. وعلى العكس من ذلك، ففي الأنظمة الديمقراطية يخف

تدخل الدولة في النظام التربوي على نحو كبير، وتسود الديمقراطية التربوية، ويصبح دور المتعلّم إيجابياً بدرجة كبيرة، وتصطبغ الإدارة التربوية فيه باللامركزية في السلطة واتخاذ القرار.

وتحت أي ظروف أو عوامل سياسية يتوجب على التربية ما يلي:

1. ألاّ تهدف إلى إعداد نخب من الشباب، بل يجب عليها أن تتيح تكافؤ الفرص التعليمية للجميع بما فيها تكافؤ فرص متابعة التعليم العالي.
2. أن تكون لها إسهامات مهمة في إنضاج أفراد المجتمع سياسياً، وفي تنمية قدراتهم على المشاركة الإيجابية والمسؤولية في الحياة العامة لمجتمعهم وبلدانهم، وبمعنى آخر تكوين المواطن الصالح سياسياً.

سابعاً: البيئة التكنولوجية

إن ظهور تكنولوجيا المعلومات وخاصة الحواسيب يعدّ قمة إنجازات الثورة العملي والتقنية في العصر الحديث. وقد غزت هذه التكنولوجيا المجتمع المعاصر على نحو غير معهود، وأصبحت الأداة الهم من أدوات تطوّر المجتمع الجديث وتقدمه وازدهاره، وجزءاً لا يتجزأ من كيانه ووجوده واستمراريته، حتى أضحى يطلق على المجتمع مسميات مختلفة متعلقة بهذا الأمر مثل (المجتمع الإلكتروني) و(المجتمع التكنولوجي) و(المجتمع اللاورقي)، وقد كان لتكنولوجيا المعلومات دور مهم في تغيير شخصية المجتمع المعاصر وبيئته وبنيته الأساسية، وستظل تعمل في هذا الاتجاه في المستقبل.

وقد امتد تأثير التكنولوجيا الحديثة ليشمل جميع قطاعات المجتمع بما فيها التربية والتعليم، وغدت من الموضوعات الرئيسة التي تحظى باهتمام جميع القائمين عليها والتربويين في جميع أقطار العالم. فقد أحدثت تكنولوجيا المعلومات، وما شهدته من تطوّر كبير خلال السنوات القليلة السالفة، تغيرات سريعة ومهمة في بيئة التربية والتعليم، وأدت إلى ظهور مفاهيم ومصطلحات جديدة وتطوّرها مثل: (تكنولوجيا التعليم) و(التعليم عن بعد) و(النظم التربوية) و(التعليم المبرمج)، وغيرها. وأتاحت هذه التكنولوجيا إمكانية تخزين ومعالجة حجوم هائلة من البيانات الرقمية والنصية والببليوجرافية والصوتية، والصور وغيرها، ومكنت من استرجاع المعلومات وبثها بسرعة كبيرة جداً وبتكلفة معقولة، مما ساعد القائمين على التربية والتعليم والتربويين أنفسهم على تخطي حواجز النظم التربوية التقليدية وعجزها عن إمدادهم بالمعلومات اللازمة لهم بالسرعة والدقة المناسبتين وفي الوقت المطلوب.

كما أصبحت التكنولوجيا الحديثة أداة أساسية من أدوات التربية الحديثة الناجحة، وأداة فاعلة في إنجاز وتطوير العديد من أنشطتها وخدماتها ومرافقها، ووسيلة مهمة لتحديث أنظمتها وأساليبها وآليات العمل فيها. وقد كان لتكنولوجيا الحواسيب أثر مباشر في حسن استخدام الموارد المتاحة، والتخفيف من حدّة الأعمال الروتينية، وزيادة كفاءة العاملين في مجال التربية والتعليم والقائمين عليها من خلال امتلاكهم وزيادة كفاءة العاملين في مجال التربية والتعليم والقائمين عليها من خلال امتلاكهم لمهارات وقدرات جديدة، وتحسين طرق الاتصال وتسهيلها، وتطوير أساليب العمل، وتبسيط الإجراءات، والارتقاء بمستوى الأداء والإنتاجية. وبالإضافة إلى هذا، فإن لهذه التكنولوجيا تأثيرها الكبير على المعلم

والطالب والمنهاج والمباني والتسهيلات المدرسية وطرق التعلّم والتعليم وجميع المناحي الأخرى للتربية والتعليم في العصر الحاضر، وبالتالي أصبح لزاماً على التربية والتعليم أن تعمل على ما يلي:

1. تعديل مضامين التعليم تحت وطأة التكنولوجيا الحديثة، بحيث تصبح المرونة والقابلية للتكيف صفة أساسية من صفات التربية الحديث.
2. التغيير والتطوير لمضمون المناهج التعليمية بشكل مستمر على جميع المستويات بما يتلاءم والتطوّرات التكنولوجية.
3. إبراز مواد جديدة تعالج موضوعات تكنولوجيا المعلومات والحواسيب ونظرية المعلومات والاتصال.
4. الاستعانة بالتقنيات الجديدة كوسائل تربوية تعليمية.
5. التركيز على التطبيق العملي، وقلّة الاعتماد على الاستذكار في المناهج، وتشجيع التعلّم الذاتي بوساطة الحاسوب.
6. الابتعاد عن الكتاب المنهجي كمصدر وحيد للمعلومات، وتشجيع المعلم والطالب على استخدام مصدر المعلومات الإلكترونية للحصول على المعلومات مثل الأسطوانات المدمجة CD's وشبكة الإنترنت، وغيرها.
7. إعادة النظر في المباني المدرسية القديمة، وتشييد مبانٍ مدرسية جديدة بما يتماشى ومتطلبات التكنولوجيا الحديثة وتطبيقاتها.

اشكال المجتمع

هناك أشكال رئيسية للمجتمع، هي:

1. الجماعات الأولية

الجماعات الأولية هي أولى الجماعات التي يحتك الفرد بها وينتمي إليها، ومنها الأسرة، وشلة الرفاق (رفاق اللعب)، وهذه الجماعات الأولية هي جماعات صغيرة نسبياً، وتلعب دوراً مهماً في تشكيل شخصية الطفل وتحديد ملامحه الاجتماعية والثقافية.

2. المجتمع المحلي

المجتمع المحلي هو تنظيم اجتماعي يتكون من مجموعة من الأسر والوحدات الاجتماعية الأخرى المتفاعلة فيما بينها، والمعتمدة على بعضها بعضاً اعتماداً تبادلياً، بغرض إشباع حاجاتها اليومية.

وتختلف هذه المجتمعات فيما بينها من حيث الكم والكيف، فبعضها صغير نسبياً، ويحتوي عدداً محدوداً من الأسر والوحدات الاجتماعية، كمجتمع القرية أو البادية، وبعضها يحتوي آلافاً من الأسر وعدداً من الوحدات الاجتماعية كمجتمع المدن الكبرى والعواصم، وهناك بعض المجتمعات المحلية التي تمتاز بدرجة عالية من التخصص كمجتمع الأطباء ومجتمع المهندسين، وغيرهم. وهناك بعضها الذي يحدد ضمن بيئة معينة، ومثالها المجتمعات المحلية التي تعيش حول آبار البترول، أو حول مناجم الفوسفات والبوتاس والحديد والفحم، وغيرها. وهناك مجتمعات محلية

أخرى لا تحدّدها بيئة معينة وإنما تنتقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، كما هو الحال في المجتمعات البدوية. وهنا أيضاً مجتمعات محلية غلب عليها الطابع الثقافي أو الاقتصادي أو السياسي، فأصبحت مراكز ثقافية أو اقتصادية أو سياسية.

3. الهيئات الاجتماعية

الهيئة الاجتماعية هي مجموعة متآلفة من الأفراد يجمعهم نظام خاص، ويؤدون خدمة معينة، ومن أمثلة ذلك الأحزاب السياسية، والأندية، والجمعيات (الجمعيات الخيرية، والجمعيات التعاونية).

تركيب المجتمع

يتركب المجتمع من أبعاد بنائية محددة، يمكن تلخيصها بما يلي:

1. **البناء الطبيعي أو الفيزيقي:** ويقصد به البنية الطبيعية للمجتمع من مناخ، وتربة، وتضاريس، وثروات طبيعية، وغيرها التي تؤثر في المجتمع ونظام حياتها وثقافته، وتتطلب من الفرد أو الجماعة التكيف معها أو محاولة التحكم بها أو حماية أنفسهم منها.
2. **البناء السكاني:** ويقصد به طبيعة السكان وجنسهم ودينهم وأصولهم وأعراقهم وتركيبهم العمري ولغاتهم... الخ.
3. **البناء المهني:** ويقصد به مجموع المهن التي ينتمي إليها أفراد المجتمع.

4. **البناء المؤسسي:** ويشمل جميع المؤسسات التي تقوم على خدمة المجتمع وأفراده، مثل الأسرة كمؤسسة اجتماعية، والمدارس، وأماكن العبادة، والدوائر الحكومية، والنوادي الاجتماعية والثقافية والرياضية، والجمعيات، وغيرها.

5. **البناء الطبقي:** ويقصد به الطبقات المكونة للمجتمع، مثل الطبقة العليا، والوسطى، والدنيا.

6. **البناء التنظيمي:** ويشمل هذا البناء الأنشطة التي يقوم بها المجتمع، وتقسيماته الإدارية التنظيمية، والعلاقات وأنماط الاتصال بين أفراده ومؤسساته، وطرق توزيع المسؤوليات والسلطات، وطبيعة القيادة وأسلوبها، ونظام الحكم السائد في المجتمع سواء كان ديمقراطياً، أو دكتاتورياً، أو جمهورياً، أو ملكياً... الخ.

أنواع المجتمعات

يمكن تقسيم المجتمعات إلى عدة أنواع بحسب الظروف السياسية والاقتصادية والحضارية السائدة.

أولاً: من الناحية السياسية

فبحسب طبيعة نظام الحكم السائد في المجتمع وفلسفته، تقسم المجتمعات إلى مجتمعات ملكية، ومجتمعات جمهورية، ومجتمعات أميرية، ومجتمعات ديمقراطية،

ومجتمعات دكتاتورية مستبدة، ومجتمعات شعبية. ومن المعلوم أن النظام التربوي وفلسفته وأهدافه في بلد ما يتأثر إلى درجة كبيرة بطبيعة نظام الحكم وفلسفته؛ ففي المجتمعات الديمقراطية مثلاً تسود اللامركزية في الإدارة التربوية، وتعطى الحرية للمعلم في مناقشة القضايا والأمور التي تهم المنهاج، ويصبح دور الطالب إيجابياً في مناقشة القضايا والمسائل المختلفة، ويغدو التفاعل بين الطالب والأستاذ والأخذ بالرأي والرأي الآخر أمراً مقبولاً ومشجعً، وبذلك تسود الديمقراطية التربوية، وعكس ذلك صحيح في المجتمعات الدكتاتورية التي تسيطر فيها السلطة الحاكمة على النظام التربوية على نحو مطلق، وتوجه أهدافه إلى خدمة مصالحها وأهدافها، ويصبح دور المعلم ناقلاً للمنهاج فقط، ويصبح دور الطالب سلبياً، وينبغي عليه أن يتقبل ما ينقل إليه من معارف وأفكار تدور في أساسها على تمجيد السلطة الحاكمة وتعظيمها.

ثانياً: من الناحية الاقتصادية

تنقسم المجتمعات بحسب النظام الاقتصادي الذي تمارسه إلى نظامين أساسيين، يضاف إليهما نظام ثالث هو مزيج من النظامين الأساسيين، والأنظمة المقصودة هي:

1. **المجتمع الرأسمالي:** يقوم النظام الاقتصادي في هذا المجتمع على حرية الفرد في التملك وفي التقدم والتطوّر، ويميل هذا المجتمع غالباً إلى الديمقراطية التربوية وقلّة تدخل الدولة في النظام التربوي واللامركزية في الإدارة

التربوية، وإلى إعطاء المتعلّم الحرية في التعلّم وحرية إبداء الرأي والنقاش، وتشجيعه على التعلّم الذاتي.

2. **المجتمع الاشتراكي**: يقوم النظام الاقتصادي في هذا المجتمع على خدمة الجماعة وخدمة الدولة. وينقسم هذا المجتمع إلى مجتمع اشتراكي متطرف، ومجتمع اشتراكي غير متطرف، أو مجتمع اشتراكي يميني ويساري، وفي مثل هذا المجتمع تذوب شخصية الفرد في الجماعة التي تعمل بشكل عام على خدمة الدولة، ومن ثم توجه أفكار الفرد نحو خدمتها، وتكون المعارف المنقولة إليه هي المعارف التي تريدها الدولة، وتسود المركزية الشديدة لضمان سيطرتها على النظام التربوية.

3. **المجتمع الهلامي غير المستقر**: ويمثل هذا المجتمع كثير من الدول النامية والدول التي استقلت حديثاً في القرن العشرين، التي حاولت الأخذ من المجتمعين السابقين (الرأسمالي والاشتراكي) بما يفيدها أو لا يفيدها، ويتصف هذا المجتمع بعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي على نحو عام، مما يؤدي إلى زيادة سيطرة الحكومة على النظام التربوي وإلى زيادة تدخلها فيه، وإلى ضعف الإنفاق على التربية والتعليم نظراً لضعف الاقتصاد وقلّة الإمكانيات المادية.

ثالثاً: من الناحية الحضارية

تنقسم المجمعات من الناحية الحضارية إلى ما يلي

1. **مجتمع الالتقاط:** وهو أبسط أنواع المجتمعات، ويعيش أهله على التقاط الثمار من الأشجار والغابات، وليس لهذا المجتمع نظام مكتوب بل له عرفه الخاص به، ويرأسه شيخ القبيلة أو ساحرها، وتسوده الأمية المطلقة.
2. **مجتمع الصيد:** وهو مجتمع بسيط أيضاً، إلا أنه أكثر تطوّراً من المجتمع السابق، وفيه شيء من النظام، وتحكم أفراده قواعد وأنظمة معروفة، وله تراث بسيط. وفي أرقى مجتمعات الصيد يمكن أن يكون هناك نوع من الكتابة (الرسم)، ومن الأمثلة على هذه المجتمعات مجتمع الأسكيمو.
3. **المجتمع الرعوي:** يتكوّن المجتمع الرعوي من مجموعة من الأفراد الذين يعيشون على الرعي وما تنتجه الماشية، وينتقلون على نحو دائم طلباً للماء والكلأ، ولهم عادات وتقاليد وقيم نظم معروفة، ويحكمهم شيخ أو رئيس له سلطة مطلقة، ومن الأمثلة على هذا المجتمع في العام العربي (البدو)؛ فقد أدت حالة التنقل والترحال الدائم للبدو في السابق إلى حرمانهم من التعليم، مما دفع بالأقطار العربية إلى السعي لاستقرارهم ودمجهم في مجتمعاتهم المحلية، الأمر الذي أدى إلى التحاق كثيرين من أبناء البادية بالمدارس والجامعات في الوقت الحاضر.

4. **المجتمع القروي الزراعي**: سكان هذا المجتمع عددهم قليل ومحدود، ويعملون في الزراعة أو الرعي، وليست لديهم مؤسسات كبيرة، وقد توجد عندهم مدارس ابتدائية، ويكون الجامع أو المؤسسة الدينية المكان الأمثل لتجمعهم ولقائهم، وقد يوجد في القرية مجلس قروي ينظم حياة أفرادها ويقدم لهم بعض الخدمات الضرورية، ومركز للأمن للمحافظة على القانون والنظام.

5. **المجتمع الريفي الحضري**: وهو أكبر من المجتمع القروي الزراعي السابق، ويعتمد بصورة أساسية على الزراعة، إلا أن فيه بعض الصناعات الخفيفة المتعلقة بالإنتاج الزراعي. وتكون في هذا المجتمع مؤسسات وجمعيات مختلفة، وبعض الدوائر الحكومية التي تقدم الخدمات الضرورية لأفراده.

6. **المجتمع الحضري**: وهو أكثر رقياً وتطوّراً من المجتمعات السابقة، ويعتد غالباً على التجارة والصناعة، وهو حلقة وصل بين القرى الزراعية والمدنية الكبيرة الصناعية، وفيه صناعات مختلفة زراعية وغير زراعية.

7. **مجتمع المدينة الكبرى Metropolitan**: وهو اكبر من المجتمع الحضري، ويجمع بين كثير من المتناقضات، وعدد سكانه كبير نسبياً، ومثال ذلك سكان أي عاصمة من عواصم الدول العربية.

8. **مجتمع المدينة العظمى أو المدينة الولاية**: وهو مجتمع المدينة الكبيرة جداً، المدينة الولاية التي تضم عدداً من المدن والقرى المجاورة، مثال ذلك مدن باريس وطوكيو وشنغهاي والقاهرة، وغيرها. ويتكون هذا المجتمع من خليط كبير من الجماعات المختلفة التي قد تعيش مستقلة كل الاستقلال عن

بعضها بعضاً في المكان الذي تحتله من المدينة أو في خدماتها، أو أنظمتها، أو مؤسساتها.

9. **المجتمع المغلق:** ويقصد به المجتمع الذي يتكون من تجمعات لها عادتها وتقاليدها ونظمها ومعتقداتها، وحياتها الخاصة، مثال ذلك المجتمعات الطائفية، والمجتمعات الطبقية، والمجتمعات المهنية. ويطلق على هذه المجتمعات عادة، تجمعات الأقليات التي تكون ضمن مجتمع أكبر في المدينة الكبيرة أو العظمى، وقد تعيش على نحو شبه منعزل أو منغلق على نفسها.

10. **المجتمعات الآنية أو المؤقتة:** يتجمع أفراد هذه المجتمعات لفترة زمنية محددة، وقد تتحول بعدها إلى أي نوع من أنواع المجتمعات السابقة، أو تزول بزوال الغرض الذي أنشئت لأجله. مثال ذلك مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية.

11. **المجتمع الشريطي:** وهو عبارة عن التجمعات السكانية التي تقيم بين مدينتين أو بلدتين، ولا تتبع أياً منهما، وقد تنضمّ لاحقاً لإحداهما.

حاجات المجتمع

تسعى التربية على نحو عام إلى تنمية الفرد تنمية متكاملة ليكون قادراً على تحمل مسؤولياته الكاملة في المجتمع. ومن هنا نرى أن التربية بالإضافة إلى اهتمامها بالفرد، فإنها تهتم أيضاً بالمجتمع. ويرى العلماء والباحثون في مجال التربية أن حاجات المجتمع ستٌّ، تمثل كل واحدة منها ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية،

وهي: الناحية الخلقية، والناحية المهنية، والناحية العائلية، والناحية الوطنية، والناحية الترويحية الاستجمامية، والناحية الصحية.

1. **الحاجة إلى التربية الخلقية:** ويقصد بها التمسك بالمبادئ والقيم والفضائل، والابتعاد عن الرذائل المتفق عليها في ثقافة المجتمع.

2. **الحادة إلى التربية المهنية:** وتعدّ هذه الحاجة من الحاجات الأساسية في المجتمع الصناعي الحديث؛ إذ تعمل التربية في هذا المجال على تشجيع التعليم المهني والفني والصناعي اللازم لهذا المجتمع، وتوفير مؤسسات التعليم المهني والطاقات البشرية اللازمة.

3. **الحاجة إلى التربية الأسرية:** تعدّ العائلة أول وحدة اجتماعية وأصغرها ينضم إليها الفرد منذ لحظة ولادته. فمن خلال الأسرة تتشكل شخصية الفرد الاجتماعية، ومنها يستقي عاداته وتقاليده وقيمه، ومنها يتعلم لغته ودينه، ومنها يتعلم طرق وأساليب التعامل مع الآخرين. وبذلك تعد الأسرة المدرسة الأولى في حياة الطفل؛ إذ تعمل على تنشئته اجتماعياً وثقافياً.

4. **الحاجة إلى التربية الوطنية:** يعدّ شعور الفرد بالحاجة للانتماء إلى وطن أو أرض وإلى جماعة وطنية من الحاجات المهمة بالنسبة له. وتسعى التربية جاهدة من خلال المنهج والمواد الدراسية المختلفة إلى أن تنمي هذه الحاجة لدى الأفراد، وأن توجهها الوجهة الصحيحة، وقد هدفت التربية منذ القديم إلى إعداد المواطن الصالح المحب لوطنه، المعتز بوجوده فيه وبانتمائه له، والمدافع عنه في كل الظروف والأحوال.

5. **الحاجة إلى التربية الاستجمامية:** يحتاج الفرد في الوقت الحاضر، وفي خضم ضغوطات العمل والضغوط الاجتماعية الأخرى، أن يستغل وقت فراغه بأشياء مفيدة، وأن يروح عن نفسه بغرض تجديد نشاطه وطاقاته، وإبهاج حياته. وهناك أنواع مختلفة من الأنشطة الترويحية التي تقدمها المدرسة للتلاميذ، مثل الأنشطة الرياضية والفنية والثقافية والرحلات وغيرها، التي تهدف إلى الترويح عن التلاميذ وشغل وقت فراغهم، وتوجيه طاقاتهم نحو القيام بالأعمال التي تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالنفع.

6. **الحاجة إلى التربية الصحية:** تعدّ الصحة بجميع مناحيها الجسمية والنفسية والعقلية والفكرية من ضروريات الحياة الفردية والاجتماعية. وبذلك ينبغي على التربية أن تولي الناحية الصحية الاهتمام الكافي. وقد عملت التربية فعلاً على تحقيق هذه الحاجة من خلال تركيزها على مبدأ العقل السليم في الجسم الصحيح، وتركيز المدرسة على صحة الطفل من خلال التفتيش على الأظافر ونظافة الملابس وحلاقة الرأس بين الحين والآخر، وعكس المناهج أيضاً لكثير من المظاهر الصحية، والعمل على توعية الفرد بأهميتها، وحثه على إتباعها واستعمالها، في محاولة لإيجاد الفرد الصحي وبالتالي المجتمع الصحي، الخالي من الأمراض على اختلافها.

التربية والمجتمع

من المعلوم أن الفرد يتعلّم من حياته أكثر مما يتعلمه على مقاعد الدراسـة، وبـذلك تلعـب البيئـة المحيطـة بـالفرد والمجتمـع دوراً مهمـاً في تـشكيل شخـصيته الاجتماعية وصقل خبراته ومعارفه، وإطلاق قدراته وإمكاناته. ومن المعلوم أيـضاً أن طبيعة النظـام الاجتمـاعي وفلـسفته وأهدافـه هـي الـتي تـشكل طبيعـة النظـام التربوي وفلسفته وأهدافه، على اعتبـار أن النظـام التربـوي هـو نظـام فرعـي مـن النظام الاجتماعي، وبذلك فإن أهدافه يجب أن تصب في بوتقة النظام الاجتماعي، وأن تعمل على تحقيق أهدافه. فالنظام الاجتماعي إذاً هو الذي يحدد نـوع وطبيعـة التربية التي ينبغي أن تـسود المجتمـع، وهـو الـذي يحـدد تفكـير الأفـراد في مناقـشة التربية، فيضع الخطوط العريضة التي يجري من خلالهـا البحـث والدراسـة، ويتـيح الفرصة أمام المختصين والمهتمين في إبـداء آرائهـم في أهـداف التربيـة وأغراضـها. ويلعب المجتمع دوراً مهماً في التخطيط التربوي ورسم السياسات التعليمية، وذلك لأنه يتم وضع الخطط التربوية، ويتم رسم السياسات التعليميـة المختلفـة في ضـوء حاجات المجتمع ومطالبه ورغباته وظروفه وإمكاناته.

هذا، وقد اختلفت النظرة نحو التربية باختلاف المجتمعات والباحثين في علم التربية. فهناك بعض الفلاسفة التربويين الذين يرون أن الفرد سـابق عـن الجماعـة والمجتمع، وأن المجتمع في رأيهم ما هـو إلاّ مجموعـة مـن الأفـراد، وأصـحاب هـذه النظرة يهتمون بالطفل كطفل، ويهتمون بالتلميذ كفرد، وكل ذلـك علـى حـساب المجتمع أو الجماعة.

وهناك نظرة أخرى يرى أصحابها أن المجتمع أهم من الفـرد، ومـا الأفـراد سوى وسيلة لغاية هي تحقيق أهداف المجتمع، ومن ثمّ فإن التربية في تنميتها للفـرد إنما تعمل على تحقيق أهداف المجتمع وتقدمه وازدهاره.

وظهرت نظرة ثالثة يرى دعاتها أن هناك عاملاً مشتركاً بين كل مـن الفـرد والجماعة، فكلاهما يسعى للتعايش معاً في ظل شـيء آخـر هـو الثقافـة، فالثقافـة تدخل في تربية الفرد وفي نظام المجتمع على حدّ سواء، وبذلك يجتمع الاثنان حـول هذا المفهوم.

ومن المفروض أن يُنظر إلى مفهـوم التربيـة في ضـوء الفـرد أو الجماعـة أو الثقافة على نحو كلي متكامل، فالتربية فردية اجتماعية ثقافية معاً، ولا يمكن الأخذ بأحدها دون الآخر. فالفرد عضو فاعل في المجتمع يسعى لتحقيق أهدافه، والمجتمـع عبارة عن مجموعة من الأفراد تسعى لتحقيـق الرفاهيـة والحيـاة الـسعيدة والتقـدم للجميع، وكل هؤلاء يعيشون في ظل ثقافة معينـة تقـوم بإرشـادهم وتـوجيههم في الحياة، وتعمل على تناسقهم وانسجامهم مع مجتمعهم وبيئتهم.

التغير الاجتماعي

مدخل نظري

التغير في ذاته ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع مظاهر الكون وشؤون الحياة المختلفة، وقديماَ قال الفيلسوف اليوناني "هيرقليطس Hericalitus: "إن التغير قانون الوجود ، والاستقرار موت وعدم". كما عبر عن التغير في قوله الشهير: "إنك لا تنزل إلى البحر مرتين فإن مياهً جديدة تجري من حولك أبداً".

وظاهرة التغير أوضح ما تكون في كل مناحي الحياة الاجتماعية، وهذا ما أدى ببعض المفكرين إلى القول إنه ليس هناك مجتمعات ولكن الموجود تفاعلات وعمليات اجتماعية في تغير دائم وتفاعل مستمر.

مفهوم التغير الاجتماعي

نعرّف التغير الاجتماعي بأنه "كل تحول يحدث في النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة". ولما كانت النظم في المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائياً ووظيفياً، فإن أي تغير يحدث في جانب لا بد أن يؤدي الى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة.

ويتطلب التغير في ميدان الحياة الاجتماعية ضرورة تكيف الأفراد لمقتضياته ووفقاً لما يتطلبه من مستحدثات، لأنهم اذا وقفوا جامدين غلبوا على أمرهم والتمسوا الفرار من ضغوط البيئة، ومعنى هذا أن الأفراد يجب أن يكونوا أدوات حية مرنة تستجيب لدواعي التغير لتتمكن من مسايرة ركب الحضارة ومواكبة عجلة التقدم .

والتغير الاجتماعي- كمفهوم متعارف في علم الاجتماع خصوصاً في الدراسة الديناميكية- سمة من السمات التي لازمت الإنسانية منذ فجر نشأتها حتى عصرنا الحاضر، لدرجة أصبح معها التغير أمراً لازماً لبقاء الجنس البشري. ويؤدي تفاعل أنماط الحياة على اختلافها باستمرار إلى تحقيق أنماط وقيم اجتماعية جديدة يشعر في ظلها الأفراد بأن حياتهم متحركة ومتجددة، وأنها في حركتها تتطلب منهم الحركة الدائبة والمسايرة الكاملة دون تخلف أو تشبث بالقديم.

والتغير في أبسط صوره ينحصر في أن عدداً كبيراً من الأشخاص يؤدون جهوداً تختلف عن تلك التي كان آباؤهم يؤدونها في وقت معين، وهذا في حد ذاته عملية مكملة لواحدة أو أكثر من العمليات الاجتماعية السائدة في المجتمع.

ويدل التغير على أنماط من العلاقات الاجتماعية في تنظيم اجتماعي معين تفرض التغير في فترة زمنية معينة دون التعرض للوضع الاجتماعي العام.

وظاهرة التغير الاجتماعي قد تحصل في فترة زمنية قصيرة وبشكل سريع، أو قد تستغرق كل التاريخ الحضاري للإنسان؛ فعامل الزمن هذا جدير بالاهتمام. ويعني التغير الاجتماعي كذلك القدرة على فصل العلاقات المتغيرة عن تلك التي تتغير ببطء شديد أو تكون ثابتة تماماً، فالاختلاف بين المجتمعات يكشف عن

اختلافات محددة، لكن التركيز على الأشياء المتشابهة والثابتة في حضارة معينة يبرز كصفة رئيسية.

ونظراً لأن علم الاجتماع يحصر اهتمامه في العلاقات الاجتماعية، فإن التغير الاجتماعي ما هو إلا تغير في العلاقات والبناء الاجتماعيين، وما هو إلا رابطة من العلاقات الحاضرة، ومن ثم فإن أي تغير في هذه العلاقات ينعكس على البناء الاجتماعي في جملته.

والواقع أن التغير الاجتماعي ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع مظاهر الكون، والمجتمعات الإنسانية بجميع ظواهرها خاضعة للتغير المستمر، إلا أن هناك ظواهر أسرع في تغيرها وتطورها من الأخرى. أما الجمود في أية ناحية من نواحي الحياة الإنسانية فأمر لا يمكن التسليم به أو الموافقة عليه؛ إذ يكفي أن ننظر إلى المجتمعات الإنسانية المختلفة لنرى مدى التغير الذي أصابها عبر حقب التاريخ.

ويتعرض كل من جيرث (Gerth) وملز(Mills) إلى ماهية التغير الاجتماعي، ويعتبران أن التغير الاجتماعي هو التحول الذي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد، وكل ما يطرأ على النظم الاجتماعية وقواعد الضبط الاجتماعي التي يتضمنها البناء الاجتماعي في مدة معينة من الزمن.

ويذهب جنزبرج (Ginsberg, 1972) إلى أن التغير الاجتماعي هو كل تغير يطرأ على البناء الاجتماعي في الكل والجزء وفي شكل النظام الاجتماعي، ولهذا فإن الأفراد يمارسون أدواراً اجتماعية مختلفة عن تلك التي كانوا يمارسونها خلال حقبة من الزمن؛ بمعنى أننا اذا حاولنا تحليل مجتمع في ضوء بنائه القائم وجب أن

نظر اليه من خلال لحظة معينة من الزمن؛ أي ملاحظة اختلاف التفاعل الاجتماعي الذي حدث له. هذا هو التغير الاجتماعي.

كما أضاف جنزبرج قائلاً: "إني لا أفهم تغيراً يتم ، إلا في بناء المجتمع، أي في حجمه وتركيب أجزائه وشكل تنظيمه الاجتماعي، وحينما يحدث هذا التغير في المجتمع يمارس أفراده مراكز وأدواراً اجتماعية مغايرة لتلك التي كانوا يمارسونها خلال فترة زمنية سابقة". والتغير الاجتماعي في نظره هو الذي يتيح للأفراد أوضاعاً اجتماعية مغايرة لأوضاعهم السابقة في بنائهم الاجتماعي، وتكون هذه الأوضاع بذاتها عرضة للتغير، وإن الزمان هو العامل الرئيس في إحداث التغير. لذا فهو يعرف التغير الاجتماعي بأنه "ذلك التغير الذي يحدث في طبيعة البناء الاجتماعي مثل الزيادة أو النقص في حجم المجتمع أو في النظم والأجهزة الاجتماعية، كما يشمل التغيرات في المعتقدات (Beliefs) والمواقف (Situations).

وفي ضوء التعريفات السابقة للتغير الاجتماعي، يمكن تعريف التغير الاجتماعي بأنه "كل تحول يحدث في البناء الاجتماعي والمراكز والأدوار الاجتماعية، وفي النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن". ولما كانت ظواهر المجتمع مترابطة ومتساندة، فإن أي تغير يحدث في جانب من جوانب الحياة الاجتماعية تقابله تغيرات أخرى في كافة الجوانب وبدرجات متفاوتة، وبناء على ذلك فإن التغير الاجتماعي لا يقتصر على جانب واحد دون آخر من جوانب الحياة الاجتماعية. وحينما يبدأ التغير فمن الصعب إيقافه لما بين النظم الاجتماعية من ترابط وتساند وظيفي.

وأوضح آرنولد (Arnold, 1967) أن "التغير الاجتماعي يشير إلى نمط من العلاقات الاجتماعية والأشكال الثقافية في وضع معين يظهر عليها التغير أو الاختلاف خلال فترة محددة من الزمن، وأن هذا التغير يخضع لعوامل موضوعية؛ بمعنى أنه لا يحدث بطريقة عشوائية لا إرادية ولكن وفقاً لضوابط وقواعد معينة.

يُعد التغير الاجتماعي ظاهرة موجودة في كل المجتمعات، ولهذا يجب تحديد معنى التغير الاجتماعي تحديداً علمياً، وفي هذا الصدد يمكن الاكتفاء بالتعريف الذي صاغه "جي روشي" (Guy Rocher , 1968) الذي أفرد جزءاً من كتابه "**التغير الاجتماعي**" ليبين أن التغير الاجتماعي يعني كل تحول (Transformation) في البناء الاجتماعي يلاحظ في الزمن ولا يكون مؤقتاً سريع الزوال، ويحدث لدى فئات واسعة من المجتمع بحيث يغير مسار حياتها.

وللتغير الاجتماعي عند "جي روشي (Guy Rocher, 1968) صفات هي:

1- التغير الاجتماعي ظاهرة عامة، توجد عند أفراد عديدين، وتؤثر في أسلوب حياتهم وأفكارهم.

2- التغير الاجتماعي يصيب البناء الاجتماعي؛ أي يؤثر في هيكل النظام الاجتماعي في الكل أو الجزء، فالتغير الاجتماعي المقصود هنا هو التغير الذي يحدث أثراً عميقاً في المجتمع، وهو الذي يطرأ على المؤسسات الاجتماعية كالتغير الذي يطرأ على بناء الأسرة أو على النظام الاقتصادي أو السياسي وما إلى ذلك. هذا التغير هو الذي يمكن تسميته بالتغير الاجتماعي.

3- يكون التغير الاجتماعي محدداً بالزمن؛ أي يبدأ بفترة زمنية معينة وينتهي بفترة زمنية معينة، من أجل مقارنة الحالة الماضية بالحالة الراهنة، ومن أجل الوقوف على مدى التغير، ولا يتأتى إدراك ذلك إلا بالوقوف على الحالة السابقة؛ بمعنى أن قياس التغير يكون انطلاقاً من نقطة مرجعية في الماضي.

4- يتصف التغير الاجتماعي بالديمومة والاستمرارية، وذلك من أجل إدراك التغير والوقوف على أبعاده. أما التغير الذي ينتهي بسرعة فلا يمكن فهمه؛ فالتغير الاجتماعي يتضح من خلال ديمومته.

وبناء على ذلك فإنّ التغير الاجتماعي عند جي روشي كل تحول في البناء الاجتماعي يلاحظ في الزمن ولا يكون مؤقتاً سريع الزوال ويحدث لدى فئات واسعة من المجتمع ويغير مسار حياتها.

ويشير عاطف غيث إلى التغير الاجتماعي بأنه "التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي؛ أي في بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة والمختلفة".

ويرى أن التغيرات الاجتماعية تكون في صور شتى على النحو التالي:

1- التغير في القيم الاجتماعية، تلك القيم التي تؤثر بطريقة مباشرة في مضمون الأدوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي، كالانتقال من النمط الإقطاعي للمجتمع إلى النمط التجاري الصناعي، الذي يصحبه تغير في القيم التي ترتبط بأخلاقيات الطبقتين الإقطاعية والتجارية الصناعية في النظرة إلى العمل وقيمة القائمين عليه .

2- التغير في النظام الاجتماعي؛ أي في البنى المحددة مثل صور التنظيم ومضمون الأدوار؛ أي في المراكز والأدوار الاجتماعية، كالانتقال من نظام تعدد الزوجات الى نظام وحدانية الزوج والزوجة، ومن الملكية المطلقة إلى الديمقراطية، ومن النظام الذي يقوم على المشروعات الخاصة إلى الاشتراكية.

3- التغير في مراكز الأشخاص، ويحدث ذلك بحكم التقدم في السن أو نتيجة الموت. ومن المهم أن ندرك الأهمية الدائمة التي تكون للأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية معينة، لأنهم بحكم مراكزهم يستطيعون التأثير في مجريات الأحداث الاجتماعية.

ويرى جونسون (Johnson, 1970) أن التغير الاجتماعي ما هو إلا تغير في بناء النظام الاجتماعي من حالة كان فيها ثابتاً نسبياً، كما يرى أن هذه التغيرات البنائية ناتجة في الأساس عن تغيرات وظيفية في البناء الاجتماعي وصولاً إلى بناء أكثر كفاءة وأكثر مقدرة على تحقيق الإنجازات.

وأما ماكيفر وبيج (Mac Iver and Page, 1952) فقد أوضحا أن التغير هو تغير في العلاقات الاجتماعية، أو تغير في شكل العلاقات الاجتماعية وطبيعتها بحيث يشمل هذا التغير بناء هذه العلاقات ووظيفتها.

كما أشار (عبد الله الرشدان، 1999)، في كتابه علم اجتماع التربية إلى أن التغير الاجتماعي يعني الآتي:

- التحول74 الذي يحدث في النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية معينة.
- الاختلاف عن أنماط الحياة المقبولة سواء كان هذا الاختلاف راجعاً الى التغير في الظروف الجغرافية أو في الإمكانات الثقافية أو التكوين السكاني أو في الآيديولوجية أو نتيجة الانتشار أو الاختراع داخل الجماعة.
- التحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي (Social Organization)، سواء في تركيبه (Structure) وبنيانه، أو في وظائفه (Functions) ، كما رآه كنجلسي ديفز (Kingsley Davis, 1950) .

ولا شك في أن التعريف العملي للتغير الاجتماعي يحتوي على ستة أجزاء مرتبطة مع بعضها بعلاقات تبادلية ، وهذه العوامل هي: كيفية تعريف الحقيقة (identity) ، والمستوى (level) ، وتأثير عنصر الزمن من حيث البقاء أو الدوام (duration)، والاتجاه (direction) ، والأهمية (magnitude) ، ومعدل التغير (average).

ويلاحظ مما سبق أن المفكرين متفقون في النظرة العامة لماهية التغير الاجتماعي؛ كل تغير يطرأ على البناء الاجتماعي في الوظائف والقيم والأدوار الأجتماعية خلال فترة من الزمن، وقد يكون هذا التغير إيجابياً فهو تقدم، وقد يكون سلبياً فهو تخلف؛ فالتغير ليس له اتجاه محدد.

ويحتوي المجتمع على عمليات اجتماعية، تحاول أن تدعم البناء وتحافظ عليه من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، وبعض هذه العمليات يحاول تغيير شكل البناء ووظيفته من أجل مستقبل أفضل؛ فالتغير في بناء الأسرة يتبعه تغير في

وظائف أعضائها، فالانتقال من نظام الأسرة الأميّة (نسبة إلى الأمّ) (Matriarchal Family) إلى نظام الأسرة الأبوية (Patriarchal Family) يتبعه تغير في وظيفة الأم في الأسرة. كما تنشأ نتيجة هذا الانتقال وظائف بينما تنقرض أخرى.

آليات التغير الاجتماعي

تختلف مصادر التغير الاجتماعي، وتتعدد نظرة المفكرين بهذا الشأن. ولكن يمكن القول في البداية إن هناك مصدرين للتغير هما:

1- المصدر الداخلي: أي القائم في داخل النسق الاجتماعي، والذي يكون إطاره المجتمع نفسه؛ بمعنى أنه نتيجة لتفاعلات تتم داخل المجتمع.

2- المصدر الخارجي: أي الذي يأتي من خارج المجتمع نتيجة اتصال المجتمع بغيره من المجتمعات.

وعلى أية حال، فسواء أكان المصدر داخلياً أم خارجياً، فإن التغير الاجتماعي يقوم على آليات محددة هي:

1- **الاختراع والاكتشاف:** ويبدو ذلك في ابتكار أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل. ومن أمثلة ذلك: اختراع الكهرباء والسيارة والهاتف، أو في تحسين كفاءة مخترعات قديمة، كتحسين الآلة البخارية، وتحسين صناعة القطارات والطائرات. وكل ذلك يؤدي بطبيعة الحال إلى تغيرات ثقافية قد تتراكم وتؤدي إلى تغيرات اجتماعية. وكذلك الأمر بالنسبة **للاكتشافات** التي تعني معرفة

أشياء كانت موجودة أصلاً لكنها لم تكن معروفة، كاكتشاف القارة الأمريكية ورأس الرجاء الصالح، أو اكتشاف عناصر جديدة في الطبيعة، أو اكتشاف القوانين المختلفة وغيرها، وهذه بدورها تؤدي في النهاية الى تغيرات اجتماعية؛ أي تشكل ميكانزمات (آليات) للتغير الاجتماعي. وبطبيعة الحال، فإن الحاجة هي التي تدعو الى الاكتشاف والاختراع، وقديماً قيل: الحاجة أم الاختراع، والحاجة - كما نعلم- قضية اجتماعية في المقام الأول.

2- **الذكاء والبيئة الثقافية:** ليس بمقدور أي فرد عادي الاختراع أو الاكتشاف، لأن ذلك يتطلب مستوى مرتفعاً من الذكاء؛ بمعنى أن الذكاء يؤدي الى الاختراع. ويرى علماء النفس أن الذكاء يكون موروثاً ومكتسباً، ولهذا لن يكتب النجاح للفرد الذكي ما لم تتوافر له البيئة الثقافية التي تساعده في الاكتشاف أو الاختراع.

3- **الانتشار:** ان المخترعات لن يكتب لها النجاح ما لم تنتشر بين أفراد كثيرين في المجتمع حتى تشيع وتعم، وتؤدي إلى التغير. والانتشار يعني قبول التجديد من قبل أفراد المجتمع، ولهذا لن تقبل الاختراعات والاكتشافات إذا لم تصادف هوى وقبولاً لدى أفراد المجتمع أو لدى مجموعة كبيرة منهم. وطبيعي أن عملية القبول لا تأتي فجأة وإنما عبر مراحل معينة تتنوع حسب أفضلية المخترعات والمكتشفات عما كانت عليه في السابق، ومع بداية العصر الحديث ظهرت حركة فكرية تدعو إلى التفاؤل بالمستقبل.

وقد بين ويل ديورنت (Will Durant) أن الإنسانية خلال تقدمها الاجتماعي الارتقائي مرت بعدة مراحل :

1- النطق.

2- النار.

3- استئناس الحيوان.

4- الزراعة.

5- التنظيم الاجتماعي.

6- الأخلاق.

7- الآلات – الصناعة.

8- العلوم.

9- التربية.

10- الكتابة.

والنظرة إلى التقدم نظرة نسبية؛ فالتقدم في مجتمع قد يكون تخلفاً في مفهوم مجتمع آخر، حيث يدخل الجانب الخلقي. في الموضوع نظراً لأن التقدم يحمل جوانب متعددة يصعب تقييمها من جهة واحدة، فالأهداف المتحققة نتيجة للتقدم تختلف النظرة إليها، وذلك نظراً لصعوبة قياس الأهداف، ناهيك عن صعوبة

حصر الوسائل المؤدية إليها؛ فعلى سبيل المثال: هل التقدم هو التقدم الاقتصادي أم التقدم الاجتماعي أم كلاهما معاً؟

وإذا نظرنا إلى التغير الاجتماعي مرحلياً أمكننا القول بهذا الصدد إن كل مرحلة أفضل من سابقتها، وهذا يعني أنه في نهاية المطاف يعني التحسن المستمر الدائم.

ويقول جون بوري (John Bury): حينما تسعى الإنسانية إلى تحقيق أهداف كالحرية، والتسامح، والمساواة، والاشتراكية، فإننا نلاحظ أن قسماً منها قد تحقق اليوم، وليس هناك من سبب يدعو إلى عدم تحقق القسم الآخر سواء في المجتمع أو في المجتمعات كافة، لا بسبب وجود صواب أو خطأ فيها، وإنما بسبب نظرة المجتمع المتباينة إلى مدى تحقيق تلك الأهداف. هذا من ناحية مفهوم التغير الاجتماعي الذي يتضمن عدة جوانب منها أنه: نسبي، وقيمي، وارتقائي، ومستمر.

أما من الناحية التاريخية، فإن فكرة التقدم تعود إلى عصور قديمة، وأول من استعمل هذا المصطلح هو لوكريتس (Lucretius) عام 60 ق. م.، إلا أن نظريات التقدم الاجتماعي لم تصبح موضوعاً من موضوعات البحث الاجتماعي إلا منذ بداية القرن السابع عشر؛ فقد ذهب كل من فرنسيس بيكون (Bacon) وديكارت (Descartes) إلى أن الإنسان يستطيع أن يحقق تقدماً لا حدود له عن طريق مجهوداته وإرادته.

ويرى فونتينل (Fontenelle) (1657– 1757) أن تجمع المعرفة الإنسانية يساعد في التقدم المستمر للإنسان، ويتفق معه في ذلك كل من: بودان (Bodin) وكوندرسه (Condercet) وكانت (Kant).

ولهذا بدأت تظهر نظريات التقدم الاجتماعي مع ظهور الثورة الصناعية التي أدت الى ظهور فلسفة التقدم بوجه عام، وقد وضعت السيدة جون مارتن Mrs. John Martin كتاباً بعنوان "هل البشرية تتقدم؟ **Is Mankind Advancing?**" بينت فيه مدى تقدم الإنسانية. وقد اتجهت جهود المفكرين في بحث مشكلة التقدم نحو التركيزعلى عوامل التقدم، وقد أشار مونتسكيو (Montesquieu) إلى أهمية البيئة في هذا المجال، وهناك آخرون تعرضوا لهذه العوامل، إلا أن أفكارهم كانت ناقصة في الغالب.

ويعرف هوبهاوس (Hobhouse) التقدم بأنه "نمو اجتماعي للجوانب الكمية والكيفية في حياة الإنسان"، ويعد تصور هوبهاوس للتقدم تصوراً قيمياً أو ذاتياً ينبع من الملاحظة، وهو يشير إلى أن التطور يمكن أن يكون في بعض الأحوال تقدماً، وفي بعضها الآخر تخلفاً وأن التطور إنما يتمثل في الانتقال التدريجي من وضعية اجتماعية معينة إلى أخرى أفضل منها بفعل توفر الإمكانات المادية والبشرية والمثابرة والعمل والاجتهاد. وقد يقاس التقدم الاجتماعي بمؤشرات خاصة في مجال الصحة والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية بينما يصعب قياس التقدم فيما يخص السلوكات لأنها تخضع للثقافة والقيم.

ويذهب كارايف (Karayev) إلى أن التقدم "هو تطور تدريجي يدل على نمو المجتمع، وتصاحبه مؤشرات تدل على مداه" . وأوجه التقدم عديدة؛ فالأفكار والنظريات تدل على تقدم المجتمع، وكذلك الزيادة السكانية، فالزيادة تعني التقدم بالرغم من أن زيادة السكان مسألة مختلف عليها أهي تقدم أم تخلف.

وقد تطور مفهوم التقدم الاجتماعي في القرن التاسع عشر، خاصة لدى رواد علم الاجتماع، الذين كانوا في الغالب ينظرون نظرة "تفاؤلية" إلى تطور الإنسانية، أمثال سان سيمون وكوندرسه وأوجست كونت وغيرهم.

والخلاصة أن فكرة التقدم التي كانت تطرح من قبل الفلاسفة والاجتماعيين لا تتطابق وواقع التقدم لدى المجتمعات. وكما تبين في السابق، فقد بقيت فكرة التقدم سائدة عند المفكرين الى أن وضع أوجبيرن كتابه **التغير الاجتماعي** عام 1922، فأخذت فكرة التغير الاجتماعي تحل محل فكرة التقدم الاجتماعي.

ومن هنا يستدل على الاختلاف بين المفهومين: التقدم الاجتماعي والتغير الاجتماعي؛ إذ الأول يحمل معنى التحسن المستمر نحو الأمام، أي يسير في خط صاعد ، في حين أن التغير قد يكون تقدماً أو تخلفاً، ومن ثم يكون مصطلح التغير أكثر علمية لأنه يتوافق وواقع المجتمعات (واقع التقدم وواقع التخلف)، فالمجتمعات ليست دائماً في تقدم مستمر وإنما يعتريها التخلف أيضاً.

مشكلة التخلف الاجتماعي

قبل الخوض في توصيف وتحليل هذه المشكلة الاجتماعية الواسعة الانتشار في حياتنا الاجتماعية المعاصرة، لا بد من القول إن تشخيص هذه المشكلة والوقوف على أسبابها ومعرفة أبعادها لا يدعو إلى اليأس ولا يزعزع ثقتنا بأنفسنا أو يدفعنا للانكفاء أو الانطواء. إننا الآن نحصد ما ورثناه عن الماضي الذي تضمن عللاً داخلية وتسلطات أجنبية وتطورات تكنولوجية سريعة وهائلة أصابت حضارتنا فركدت بعدما كانت مزدهرة ومبدعة وقدمت عطاءات إنسانية متميزة.

فالعلة إذن ليست في التخلف بحد ذاته بل العلة هي أن ننطوي ونعجز عن استجماع الإرادة والتصميم والعزم على تشخيص أسباب التخلف وكيفية معالجتها. وهذا يحتاج إلى تضحيات سخية من وقتنا وقدراتنا وأنانياتنا الذاتية وإلى وضع إمكاناتنا في خدمة المجتمع العربي والإنسان العربي والثقافة الاجتماعية العربية والتربية العربية. وإذا أردنا أن نعرّف مفهوم التخلف فإنه يعبر عن مجموعة من العناصر المرتبطة بنيوياً بمرحلة التبعية وما سبقها من تاريخ اجتماعي في ظل الهيمنة الأجنبية؛ فهو إذن ليس توصيفاً كمياً. والتخلف الاجتماعي ظاهرة موضوعية تختلف بشأنها زوايا الرؤية ومناهج التحليل، ومع ذلك فإن إحصاء

عناصر التخلف بكل ما ينطوي عليه من تحليلات متعارضة يساعدنا في المقارنة والوقوف على الجوانب العامة التي تصلح معايير موضوعية.

ويعني التخلف من بين ما يعنيه الفشل أو القصور في تبني الأنماط الجديدة من الفكر والسلوك التي من المفترض أن تقود المجتمع إلى وضع أفضل. ويعني أيضاً قصوراً في الإمكانات المادية والمعنوية والسياسية أو في رأس المال المادي والبشري يؤدي بدوره إلى عدم إمكان توفير الرفاهية الاجتماعية للمواطنين. ويفيدنا الأستاذ قسطنطين زريق في هذا الخصوص فيميز بين نوعين من التخلف هما:

1- التخلف النسبي: أي مدى تخلف المجتمع العربي بالنسبة إلى المجتمعات المتقدمة؛ فمجتمعات اليوم تخوض سباقاً حثيثاً في مجالات التقدم، وأي وقوف أو تباطؤ من المتخلف يؤدي إلى توسيع الشقة بينه وبين المتقدمين ويضاعف خطرها ويعيقه عن اللحاق بهم بل يحول بينه وبين المحافظة على موقعه ومرتبته.

2- التخلف الذاتي: أي قعود المجتمع العربي عن تحقيق ما هو قابل للتحقيق، الأمر الذي يؤول إلى زيادة تخلفه سوءاً وشراً بما ينتج عن ذلك من خلخلات اقتصادية واجتماعية تضاف إلى علله وأمراضه الموروثة، وبما يسببه ذلك من أخطار وشرور تنبعث من القوى ذات الحول والطول المندفعة بأطماعها القديمة والجديدة.

مظاهر التخلف الاجتماعي

تحت هذا العنوان نعرض مجموعة من الحالات الاجتماعية التي تشكل تخلفاً اجتماعياً كامناً في بعض قيمنا الاجتماعية وواقعنا الاجتماعي المعاصر المتفاعل مع تاريخ مجتمعنا العربي .

1- **ضيق ولاءاتنا وتأصل الفردية والعشائرية في نفوسنا:** كان النظام السائد لدى الشعوب السامية هو النظام القبلي والرابطة المسيطرة هي العصبية القبلية. وفيما يتعلق بنا - نحن العرب - نرى أن هذه العصبية عميقة الجذور متغلغلة في ثنايا الماضي المديد وفعلها واضح، ليس في موطنها الجزيرة العربية فحسب، بل في كل الأصقاع التي انتقل إليها العرب وبسطوا فيها سلطتهم. إن العصبيات والولاءات الضيقة يجب أن تنصهر في البوتقة الوطنية - القومية.

2- **النفاق الاجتماعي**: من جملة القيم السلبية الفاسدة التي ورثناها من عهود الركود والانحطاط الحرص على السلامة بأية وسيلة ولقاء أي ثمن؛ فلقد مني أسلافنا في تلك العهود بقوافل متتابعة من الحكام الجائرين المستبدين كانت الحياة في ظلهم رخيصة والجهالة والمذلة مستحوذة على السواد الأعظم من الناس، فلم يكن هناك - لضمان عيش أو لنيل حظوة- بُدّ من مداراة الحكام وممالأة أصحاب السلطة والنفاق والمخاتلة. وهذا كله يتجلى في بعض أمثالنا الشعبية المتوارثة كقولهم (من يأكل من خبز

السلطان يضرب بسيفه) و (اليد التي لا تستطيع أن تقطعها قبّلها وادْعُ عليها بالكسر). لذا فإن النفاق هو وليد الذل الاجتماعي.

3- **الاستمتاع المادي:** لا شك في أن مجتمعنا ظل قروناً طويلة محروماً من هذا الاستمتاع، وما زال معظمه يفتقر إلى العيش الكريم وإلى أبسط مستلزمات الصحة. وحريٌّ بشعوبنا أن تنهض للمطالبة بحقوقها الأساسية وأن تسعى لنيلها. أما أن يغدو التنعم غرضاً لذاته وأن يصبح التنافس غير الشريف والتكالب على اغتنام الفرص والاستزادة من المغريات المادية وإلهاب النفوس بشهواتها الشغل الشاغل لجميع فئات المجتمع وأن يصرفها عن البذل والعطاء الوطني فهذا أمر فائق الخطورة لأنه يعطل توليد قيم الانضباط والبذل والتعاون والتضحية والعدل وغيرها من مقتضيات الحياة الصحية والبناء القومي السليم. وتعظم هذه الخطورة في مجتمعنا العربي الحاضر، وذلك بسبب ضعف صناعته الخلقية الموروث من أجيال الركود السابقة وبسبب إغراء المال الجديد المتدفق عليه من شتى منابع الأرض، وكلاهما مبعث فساد وإفساد وتفكك.

4- **عدم استغلال الوقت في تنظيم حياتنا اليومية وعلاقاتنا الاجتماعية:** في ضوء تراثنا الثقافي خلقنا من الوقت شبحاً مخيفاً نشكو منه مر الشكوى ونلقي التبعية عليه في كل الأمور ونعيبه ولا نعيب أنفسنا؛ فالوقت أو الزمن عندنا مسؤول عن أشياء كثيرة لعل أهمها مصيرنا وما أصبحنا عليه هذه الأيام. لقد تركنا الوقت يسخّرنا بدلاً من أن نسخّره نحن، ويفعل بنا ما يشاء؛ فنحن نؤمن على المستوى النظري بأهمية الوقت ولكن نبض

الحياة عندنا لا يحقق هذا الإيمان؛ فنحن ما زلنا نقول (طول البال تهد الجبال) و (كل تأخيرة فيها خيرة) و(في التأني السلامة وفي العجلة الندامة). ويبدو نبض الحياة هذا واضحاً بشكل خاص في الريف والوقت مهدوراً ضائعاً. ولعل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي مررنا بها مسؤولة عن هذا الإهدار وهذا الضياع.

وفي الواقع، فإنّ الكيفية التي تستخدم فيها الجماعة الحضارية مفهوم الزمن الاجتماعي ومقدار تأثير القيم الاجتماعية في هذا الاستخدام تنطوي على أهداف بعيدة المدى تتعلق بمستقبل الجماعة الحضارية، لا سيما وان الحضارات (التقليدية) تسعى اليوم بخطوات حثيثة نحو ردم الفجوة الحضارية أو الفجوة الزمنية - كما يسميها البعض - بينها وبين الحضارات المتقدمة. وهي في سعيها هذا تعمل على الإسراع في كل شيء؛ بمعنى أنها تحاول قدر المستطاع أن لا تترك مجالاً لضياع الوقت وتجدّ في استثماره بأقصى ما يمكن. ولكن هذا الإسراع كان يصطدم دائماً بالقيم السلبية في المجتمع التي تعيق التقدم وتحول دون اللحاق بركب الحضارة الذي أشبه ما يكون بقطار سريع لا ينتظر، ومن يتأخر عنه سيظل يعاني المزيد من التخلف.

ومن أبرز مظاهر التخلف :

- ارتفاع نسبة الأمية، وانتشار الأمية الثقافية والعلمية والتكنولوجية.
- اتجاه أنماط الإنفاق نحو السلع الاستهلاكية (المأكل والمشرب والملبس).

- قلة المدخرات أو حتى انعدامها وتضاؤل الاتجاه نحو الاستثمار.
- ارتفاع معدل الولادات.
- ارتفاع معدلات الوفيات العامة.
- ارتفاع معدلات وفيات الأطفال.
- انخفاض مستوى الدخل إلى حدّ عدم تلبية الاحتياجات الأساسية للمعيشة.
- انخفاض المستوى الغذائي.
- انخفاض المستوى الصحي.
- نقص عدد المستشفيات.
- نقص عدد المدارس ودور الثقافة.

علاج مشكلة التخلُّف

بعد أن عرضنا بعض مظاهر التخلف الاجتماعي في الوطن العربي، ينبغي أن نبين كيفية معالجة هذه الآفة الاجتماعية (التخلف). فقد طرح الأستاذ قسطنطين زريق أربعة أنواع من المعالجات التي من شأنها أن تحدّ من التخلف في مجتمعنا العربي، وهي كما يلي:

1- **تطويع الطبيعة وتنظيم الحياة الاجتماعية بالعلم:** وهنا يتم التركيز على قدرة العقل المتمثلة بالعلم، وهذه القدرة تبدو في ميدانين هما: ميدان الطبيعة وميدان الإنسان. أما في الميدان الأول، فالأمر يتعلق بمعرفة نواميس الطبيعة والمشاركة في تطوير هذه المعرفة واستثمارها لاستخراج موارد الأرض واستغلال ثرواتها لرفع مستوى العيش وإغناء محتواه. وأما في الميدان الثاني، فالأمر يتعلق بمعرفة نواميس الحياة الإنسانية واستخدام هذه المعرفة في الرقي بالفرد وتنظيم المجتمع وتعزيز نتاجهما. وظاهرة هذه القدرة - لا سيما في الميدان الأول - هي التقدم التكنولوجي الذي يؤدي إلى التطورات الاقتصادية والتفوق العسكري والهيمنة السياسية وتوفير الوسائل الضرورية لمكافحة الفقر والمرض والجهل وسواها من العلل.

2- **تطويع الأنانية الذاتية للخلق والإبداع:** ويعمل ذلك على إثارة القدرة الخلقية الناتجة عن عمق الإيمان والسيطرة على الشهوات والأطماع والإقبال على البذل والتضحية والتعاون والمشاركة في سبيل تحقيق المثل العليا التي يطمح المجتمع إلى تحقيقها.

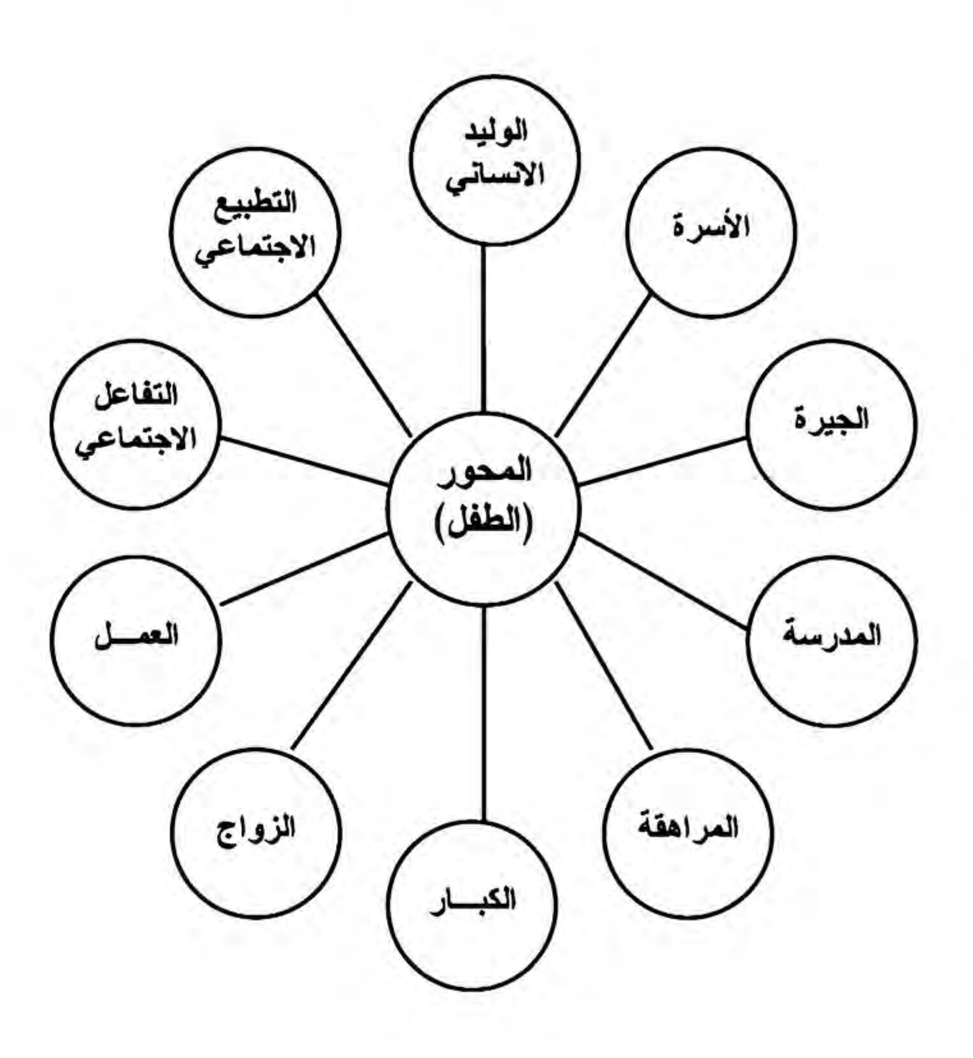
3- **ترويض المواطن على التحرر الخارجي والداخلي:** والأمر متعلق هنا بقدرة المجتمع على رد العدوان الواقع عليه من الخارج وعلى التحرر من الظلم الخارجي، وقدرته على إزالة التعدي والظلم الموجودين في داخله. وعدوان الشعوب بعضها على بعض وظلمها واستغلالها بعضها لبعض، إضافة إلى

العدوان والظلم والاستغلال داخل المجتمع الواحد، هي ظواهر عريقة في التاريخ البشري.

4- **الإسهام في البناء الوطني بالعلم والخلق معاً:** وذلك مرهون بقدرة المجتمع على تكوين "الوطنية" التي تعني القوام الذي تنتظم فيه الروابط التي تضم أفراد المجتمع وفئاته بعضها إلى بعض. ومعيار هذه القدرة درجة سلامة هذه الروابط وانتظامها وتلاحمها في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية وسواها. فالمجتمع القادر على الإبداع في هذه الناحية هو المجتمع المتميز بالانتظام والتعاطف والتماسك الممتلك لمؤسسات وأجهزة بشرية متطورة تترجم هذه الميزات إلى وقائع عملية حية.



الباب الخامس
الأسس الاجتماعية للتربية



التربية عملية تطبيع اجتماعي

يندرج كل طفل إنساني في مجتمع متكون بالفعل وينشئ علاقات مع أفراد إنسانيين لهم عاداتهم وتقاليدهم، وأنماط سلوكية. وطرق قيامهم بالأعمال المختلفة ونظرتهم إلى الأمور، ومشاعرهم وإحساساتهم. على أن الطفل في بدء حياته يكون بريئاً كل البراءة من هذه الأشياء، ولكنه في مدى سنوات قليلة يكون قد اكتسب معظم هذه الطرق والعادات كمكونات لشخصيته.

ويندرج الطفل الإنساني في المجتمع ولديه صفاته البيولوجية. هذه الصفات التي يشترك فيها مع غيره من الأطفال الإنسانيين على أننا نسارع فتقول إن هذا التشابه ليس معناه أن الأطفال يتكونون بنفس الطريقة، فلا يوجد فردان اثنان ينموان بطريقة واحدة هذا الطفل الإنساني الفريد في ذاته يفرض مطالبه على المجتمع، كما يفرض المجتمع مطالبه عليه من تناول طعام معين بطرق معينة في أوقات معينة مثلاً وأثناء مرور هذا الطفل الإنساني بعملية فرض مطالبه على المجتمع وتحقيق مطالب المجتمع المفروضة عليه، يبدأ في اتخاذ مكان له في المجتمع. وبهذا ينتقل من دور الفردية البيولوجية و الاجتماعية ، وبهذا يتأثر تأثيراً كبيراً بهذا المجتمع المعين الذي نشأ فيه، وبهذا أيضاً لا يؤثر الناس فيه فحسب بل إنه يؤثر فيهم أيضاً.

والتغيرات التي تحدث لهذا الوليد الإنساني منذ أن يولد حتى يتخذ له مكاناً مميزاً بين الكبار الناضجين هي في أساسها عملية التطبيع الاجتماعي وهي العملية التي سنفرد لها هذا الفصل . والطفل الإنساني عندما يمر بعملية التطبيع

الاجتماعي يؤثر بعد ذلك في تطبيع الآخرين ، وبذلك أي عندما يصبح شاباً ثم كبيراً ناضجاً يبدأ في الاشتراك في مناشط المجتمع المختلفة ، وتصبح له شخصيته المميزة ووسيلة تحقيق هذه النتيجة هي عملية الأخذ والعطاء. وهي عملية لا يمكن الاستغناء عنها في تنمية الشخصية، تماماً كما يكون التنفس هو نتيجة التفاعل بين الهواء من ناحية وبين الرئتين من ناحية أخرى أي أنه لا بد من وجود هذين العاملين: الذاتي والبيئي لتحقق الشخصية .

وتتمشى مع عملية التطبيع الاجتماعي عملية أخرى لا تقل أهمية عنها بالنسبة للمجتمع، إذ يصبح هذا الفرد الإنساني حاملاً للثقافة أي لطابع معين من الحضارة، أي أن هذا الفرد الإنساني قد استطاع أن ينقل الثقافة إلى داخله، بحيث أصبحت أنماط السلوك والعادات والتقاليد وطرق التفكير الموجودة في المجتمع أصبحت خاصة به هو وأصبح يعمل ويفكر ويرى الأشياء ، ويشعر بما حوله بطرق يشترك فيها مع غيره من أفراد المجتمع. وعلى هذا يصبح له دور مزدوج وهو أنه منتج ومستقبل لثقافة مجتمعة بعد أن كان قبل ذلك مستقبلاً فقط لهذه الثقافة. وينتج عن ذلك أن يعمل على استمرار طرق العمل والتفكير والنظر إلى الأشياء التي حوله. ولعل هذا هو السبب الأساسي في بقاء الثقافة واستمرارها ونقلها من جيل إلى جيل، إذ بدون ذلك لا بد أن تختفي . وفي الحقيقة كان لا بد أن تختفي جميع الحضارات ما لم توجد عملية التفاعل التي يؤثر عن طريقها الأفراد في الآخرين ويتأثرون بهم.

عملية التفاعل بين الأفراد الإنسانيين من التأثير والتأثر المتبادلين ينتج عنها إذن شيئان هامان هما. الشخصية الفردية، والحضارة الإنسانية. ولا شك أن هذين

الموضوعين من الموضوعات التي تهتم بها التربية. فمن الأهمية بمكان ان نفهم السلوك الاجتماعي وكيف يتكون وكيف يصل الفرد الإنساني من خلال هذا السلوك ومن خلال اتجاهاته المختلفة وقيمه ومعاييره الى تكوين شخصيته الفردية . ثم هذه الحضارة الإنسانية كيف تؤثر في بناء هذه الشخصية وكيف يقدر لها البقاء والاستمرار، وعلى أي المستويات يقدر لها هذا البقاء والاستمرار.

التربية اذن تبدا بقصة تشكيل الفرد الانساني والانتقال به من فرد بيولوجي الى فرد له شخصيته، يستطيع ان يسهم في مجتمعه وان ينقل ثقافته وهي تهتم لذلك بالمبادئ والقوانين التي يبنى عليها هذا الانتقال وهي لذلك تستعين بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم الدراسات الانسانية ، ثم تصل من ذلك الى قوانينها ومبادئها، ثم الى وسائلها التي ترجو بها ان تحقق التكامل في نمو هذا الفرد وفي نمو المجتمع وتطوره.

والتربية من ناحية اخرى تعني بعملية التشكيل الانساني للوليد البشري، ذلك لان السلوك الانساني سلوك مكتسب، اي ان سلوك يتعلمه الفرد بتعامله مع افراد المجتمع الاخرين. ففي كل مجتمع من المجتمعات نجد عمليات مختلفة للتدريب والتطبيع تكسب الفرد الافكار والقيم والمعايير، بل والانفعالات التي تناسب كل نوع من أنواع الأدوار الاجتماعية Social Roles في الاسرة والمهنة والدين والسياسة والتعليم والطبقة الاجتماعية.

ومما يساعد التربية على قيامها بمهمتها هذه كما قلنا ان المعايير الاجتماعية والافكار والانفعالات والسلوك الانساني ليس فطرية، اي ان الفرد يولد بها، ولكنها تكتسب نتيجة الاشتراك في مناشط المجتمع. وكما يقال يتعرض المجتمع كل

يوم لغزو جديد يقوم به عدد كبير من المتبربرين الصغار الذين يولدون حديثاً وهؤلاء المتبربرين هم الاطفال الذين لم يتشكلوا اجتماعياً، والذين يجب على المجتمع ان يدربهم على جميع الاشياء التي لها اهمية اجتماعية في المجتمع.

على ان الطفل الانساني لا يكتسب فقط المعرفة والأفكار اللازمة لقيامه بالادوار الاجتماعية المختارة ولكنه يتعلم ايضاً المعايير والقيم والانفعالات لان الافكار والمعايير والانفعالات ضرورية ((للفرد كما هي ضرورية للمجتمع)) وهي تتمثل جميعاً في الكلمات والتعبيرات اللغوية التي يتعلمها الطفل . فالتراث الثقافي للمجتمع يتمثل في اللغة التي يتكلمها هذا المجتمع ، وبذلك يتعلم الطفل لغته وادواه الاجتماعية في نفس الوقت .

وعملية التطبيع الاجتماعي هذه يجب ألا تفهم على انها عملية فردية تماماً، أو على انها عملية سيكولوجية فحسب فعلى الرغم من ان هذه العملية تتاثر بشخصيات الافراد الذين يشتركون فيها كالآباء ، وتتكون ايضاً من تنمية شخصية الفرد، لكنها في نفس الوقت عملية اجتماعية . فحيث ان معظم السلوك الانساني متعلم ولان المجتمع له اهتمام واضح ومحدد في سلوك افراده، فان عملية التطبيع الاجتماعي من المشكلات الوظيفية التي لا يمكن الاستغناء عنها في جميع المجتمعات وفي جميع الجماعات التي تتكون منها هذه المجتمعات.

وعملية التطبيع الاجتماعي تستمر وتبقى طول الحياة مع اختلاف في الدرجة فتعلم افكار جديدة ، معايير جديدة ، واكتساب انفعالات جديدة لا يتوقف مع فترة المراهقة او مع فترة الدراسة المدرسية ، ولكن هذا التعليم يستمر في مرحلة البلوغ وحتى الموت . فلا شك ان هناك ادواراً جديدة يكتسبها الانسان ، ويترتب

عليها انواع جديدة من السوك، وهناك ايضاً جماعات جديـدة ينـدمج فيهـا الفـرد، ومواقف اجتماعية يجب على الفرد ان يواجههـا عـن طريـق التـدريب بطريقـة او باخرى .

ولننظر الان في هذه المـستويات المختلفـة للعلاقـات الانـسانية الـتي يكتـسب خلالها الفرد خبرة بتعامله مع الافراد الآخرين، وبذلك يوسـع مـن ادراكـه للعـالم الانساني الذي يوجد حوله، ويستتبع بذلك ان يكيـف نفـسه مـع هـذه العلاقـات المختلفة في نظام سلوكي يقوم بتكوينه ويكـون مناسـباً لـه، هادفـاً الى تعاونـه مـع الافراد الاخرين في حياة اجتماعية سليمة. واولى العلاقات الانسانية الـتي يكونهـا الطفل تكون مع الاعضاء المكونين لعائلته، وهو يتعلم اولاً وقبل كـل شـيء مـن اولئك الذين يعنون به عنايـة مباشـرة ، واولهـم الام او الممرضـة او الاب او مـن يقوم مقامهم في بعـض المجتمعـات لحديثـة والحمايـة هـذه المرحلـة مـن العلاقـات الانسانية يمارس الحب والسلطة والاتجاه والحماية واقامة المثل . ففي كل لحظة من حياته الواعية يجد ان سلوك الكبار يؤثر في وعيه طبقاً لقدراته على تقدير معانيها ويستطيع في هذه الفترة ان يكون عادات نتيجة للمعاملة التي يلقاها منهم ، وطبقـاً للاستجابات التي يقوم بها حسب قدراته المورثة. وعندما ينمو ويكبر الطفل، يقلد سلوك والديه، ويتأثر بإيحاءاتهما التي تقـوده الى ان يكـون عـادات تـؤثر في حياتـه الاجتماعية تاثيراً أكثر عمقاً مما لا يستطيع إدراكه الا بعد سنوات عديدة ، وقد لا يدركه على الاطلاق.

فاذا كان للطفل اخوة واخوات في الاسرة فمـن المفـروض انهـم مـن نفـس الدم، وانهم قد ورثوا من نفس الوالدين صفات قد يشترك معهم في بعـضها وقـد

يختلف في البعض الاخر، ووجود هؤلاء الاخوة والاخوات يؤثر الى حد كبير، وبطرق مختلفة في نمو الطفل من الناحية الاجتاعية. فاختلاف استجاباتهم له وللوالدين وللمؤثرات الاجتماعية بصفة عامة ، يعطيه فكرة عن انواع من الاستجابات للسلطة وللتقاليد وللمثل العليا التي يقدمها الاباء او غيرهم، ممن يكون تقليدهم امراً مرغوباً فيه . على ان التفاعل بين الاطفال الاخرين في المنزل يكون بذلك عاملاً في سبيل التطبيع الاجتماعي.

وعندما يكبر الطفل ليخرج من المنزل، وليتعامل مع الاطفال الاخرين خارجه، فانه يتعرض لمجموعة من المؤثرات، تختلف عن المجموعة التي كان يتعرض لها داخل المنزل. اذ انه يضطر الى تكييف نفسه في دائرة اكثر اتساعاً تتكون من شخصيات مختلفة الانواع ، قد ربيت تحت ظروف مختلفة واكتسبت عادات ومثلاً عليا مختلفة كذلك. وهو يتعلم هذا التكيف الجديد ببطء، ربما بعد ان يقاسي بعض الالام. ففي كفاحه للسيطرة على زمائه في اللعب او لمنع السيطرة عليه من جانب الاخرين، يتعلم طرق التكيف مع الاخرين. وهذا التكيف جزء هام ايضاً من عملية التطبيع الاجتماعي.

وعندما ينتقل الطفل من المنزل الى المدرسة . فانه يواجه موقفاً اكثر تعقيداً. اذ يضطر الى التعامل مع الاطفال آخرين يختلفون عن الاطفال الذين سبق له التعامل معهم، ويضطر ايضاً الى التعامل مع افراد كبار يبدون غرباء بالنسبة له ونحو هؤلاء جميعاً كيف يكيف سلوكه وكيف يختار كلماته وكيف يعبر عن افكاره. وبانتقاله الى هذا الميدان الاكثر اتساعاً، يتعلم كيف يستجيب لعالم اجتماعي اكثر تعقيداً.

ثم ينمو الفرد تدريجياً ويتعامل مع عدد اكثر من الكبار فيعامل جيرانه بطرقهم المختلفة في التعبير، وبارائهم المتنوعة ،وبعاداتهم الخاصة بهم. فيتعامل مع صاحب الحانوت ومع عسكري المرور ومع غيره من كثير من الكبار الذين يلتقي بهم في طريقه كل يوم . وعندما يبدأ في القراءة لنفسه، أو عندما يقرا الآخرون له،تتسع دائرة اتصاله بالاخرين ،فتصل اليه افكار ،ويتعرف على اشكال جديدة من السلوك عن طريق القصص التي يقراها والتي تتحدى انتباهه. وتتسع خبرته مع الناس وتتسع معرفته بالاداب. ويصل الى معرفة مثل عليا جديدة يستجيب لها شعورياً او لا شعورياً ، فتتكون بذلك كثير من عاداته ، ويتقبل بذلك المثل العليا السائدة في المجتمع ، ويصبح بذلك اكثر اجتماعية .

وعندما يدخل الطفل مرحلة المراهقة ، فانه يواجه مشكلة تفرض عليه تكيفاً جديداً للحياة. فنموه الجسمي تنتج عنه احساسات جديدة وتظهر اسئلة جديدة حول سلوكه يجب ان يجد الاجابة عليها. ويمارس أنواعاً من الخوف والامل غريبة على خبراته السابقة. ولا يجب عليه في هذه المرحلة ان يعيد تكييف نفسه نحو الاخرين فحسب ولكنه يجب ان يشكل اتجاهات جديدة نحو الاطفال والاباء والكبار في المجتمع ، فيجد امامه في المجتمع بصفه عامة اتجاهات كثيرة يستطيع ان ينتقي منها نماذج سلوكية يختارها لنفسه حسب ما استقر عليه من مثل ومبادئ ولا شك ان هذه المرحلة من مراحل النمو تتضمن كثيراً من انواع الفشل في التطبيع الاجتماعي .

فإذا أكمل الفرد تعليمه بعد ذلك ، فان دائرة اتصاله بالكبار تتسع وتعمق. اذ يضطر الى ان يتكيف مع افراد على مستوى عال من التعليم في التخصصات

المختلفة . فاذا ما تزوج بعد ذلك فانه يواجه سلسلة جديدة من انواع التكيف في سلوكه الشخصي. اذ يبدأ في إدخال رغبات شريكه في اعتباره. مؤسساً هذا التكيف على عاطفة الحب مهما كان معناها الذي يختلف باختلاف المجتمعات. وتبدا الاتجاهات الانانية الفردية تختفي ليحل محـ.ـا حب الاخر ثم الاستمتاع بما ينتج عن ذلك من سرور. وهذا الشريك يكون في اغلب الاحيان قد نشا في ظروف مختلفة في طفولته ومراهقته ، وتكون النتيجة ان تختلف خبرات الشريكين اختلافاً قد يصل الى حد التناقض بينهما . فالعادات والمثل العليا والتقليد والاتجاهات قد تختلف في عائلة احدهما عنها في عائلة الاخر. فاذا استطاع كل من الشريكين ان ينجح في تكييف نفسه لهذه الظروف الجديدة وفي تكييف نفسه مع الطرف الاخر وتكيفه به كان هذا انجاحاً واستمراراً لعملية التطبيع الاجتماعي. واذا لم يستطع احدهما او كلاهما وفشلت عملية التطبيع الاجتماعي فان النتيجة تكون شقاء في الزواج قد يؤدي الى الطلاق .

وقد يرزق الفرد بعد ذلك باطفال، وحينئذ يواجه مواقف جديدة وضرورية تتطلب التكيف من جديد هذه الضرورة انه اصبح اباً فوجود الاطفال كثيراً ما يدفع الرجل الى بذل جهد اكبر في العمل ، والى محاولة الحصول على نجاح اعظم في مهنته . وعندما يكبر الاطفال يهتم الاباء بنجاحهم في الحياة . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قد يضحون بانفسهم وبراحتهم بل وبحياتهم . وقد يجدون في اطفالهم تحقيقاً لما لم يتحقق من أحلامهم . على اي حال ، يتعلم الاباء ان يكيفوا انفسهم وسلوكهم لهذه الضروريات الناتجة عن هذا الدور الجديد . وتستمر بذلك عملية التطبيع الاجتماعي .

وهنا يرى بعض العلماء ان عملية التطبيع الاجتماعي غالباً ما تنتهي عند هذه المرحلة وهم يؤسسون رايهم هذا على ان تقدم العمر يؤدي الى ان يفقد العقل كما يفقد الجسم مرونته وقدرته على التكيف، وبذلك تصبح انواع التكيف للمواقف الاجتماعية صعبة الحصول عليها ، كما يظهر ذلك في تغيير عادات الاكل مثلاً وبذلك تقف عملة التطبيع الاجتماعي عند كثير من الناس فالعادات التي تكون قد تكونت تكون صعبة المراس ترفض كل استجابة للمطالب الجديدة. على ان هؤلاء العلماء القائلين بهذه الفكرة يسارعون فيستدركون ، اذ يقولون بان هناك استثناءات لهذه القاعدة . فقد يرى الانسان أشخاصاً كبار السن يمتلكون نظرة للحياة يمكن وصفها بانها نظرة شابة ، ويجد الانسان ان هؤلاء الكبار قد نجحوا في تكييف حياتهم في هذه الفترة المتاخرة من عمرهم لطريقة الحياة التي يسير عليها الجيل الجديد وفي مثل هؤلاء الافراد تجد ان عملية التطبيع تستمر في نشاطها الى نهاية الحياة .

ونحن نرى ان عملية التطبيع الاجتماعي لا تنتهي الا بانتهاء الحياة الانسانية على انها قد تختلف في الدرجة لا في النوع في الفترة المتاخرة من عمر الانسان، حيث يكون الفرد الانساني قد ثبت على نمط سلوكي معين، وعلى عادات سلوكية معينة، قد لا يستطيع عنها حولاً ، على انه في هذه الفترة من حياته لا بد له من درجة معينة من التكيف مهما كانت حتى يستطيع الاستمرار في حياته، وحتى يستطيع الابقاء على العلاقات الاساسية الضرورية التي هي الحد الادنى الضروري لبقاء الانسان في مجتمعه. على ان هذه الدرجة من التكيف تزداد بازدياد قدرة الانسان على لنظر الى المواقف الجديدة نظرة متطورة . والنتيجة ان عملية

التكيف الاجتماعي تبقى مع الفرد الانساني طول حياته في درجتها باختلاف ما بين الافراد من فروق فردية.

هكذا يصبح الفرد كائناً اجتماعياً متكيفاً مع ظروف الحياة الاجتماعية ،ويتعلم بذلك ان يتعاون مع رفقائه في المجتمع ، وعن طريق الأخذ والعطاء وعن طريق التقليد واتباع المثل التي يقدمها له أولئك الذين يعجب بهم ويحترمه و رفض انماط السلوك لاولئك الذين يكرههم ، مستجيباً للمسؤوليات التي تلقى على عاتقه في ظروف الحياة المختلفة التي ترتبط بأولئك الذين يحبهم او من اجل اولئك الذين يشعر نحوهم بالواجب . بذلك كله تكون مثله السلوكية وعاداته في الحياة ، وتصبح جزءً من الحياة الاجتماعية التي تحيط به من جميع الجهات . فعملية التطبيع الاجتماعي اذن عملية تكيف من جانب الفرد للظروف والمواقف التي يحددها المجتمع الذي يكون الفرد عضواً فيه.

وحيث ان عملية التطبيع الاجتماعي عملية تكيف من جانب الفرد للظروف والمواقف الاجتماعية وكان هذا يعتمد على تعلم الفرد لاستجابات معينة يواجه بها هذه الظروف والمواقف الاجتماعية، ولما كانت التربية هي وسيلة الفرد والمجتمع لتحقيق ذلك، ولأن عملية التطبيع الاجتماعي هذه عملية دائمة مستمرة ما بقي للفرد نفس يتردد، فإن التربية أيضاً هي عملية دائمة مرتبطة بحياة الانسان منذ ولادته حتى مماته. فالتربية - بمعناها الواسع - تقوم بوظيفتها في جميع مراحل حياة الفرد الإنساني.

على أننا بعد هذا التقديم الموجز لعملية التطبيع الاجتماعي نعود فنفصّل الكلام عن العمليات الاجتماعية والسيكولوجية التي يمر بها الفرد الإنساني في

المجتمع حتى يستكمل صفته الاجتماعية. هذه العمليات تقوم أساساً على مبدأ التفاعل بين الفرد وبيئته المادية والاجتماعية؛ فلكي نعرف كيف يتصل الطفل ببيئته الاجتماعية يجب علينا أن ننظر ما يقدمه المجتمع لهذا الطفل مما يمكنه أن يتفاعل معه. فنحن نعرف أن الطفل لا يقابل المجتمع في كليته، وإنما يقابل ممثلين معدودين من هذا المجتمع، وهؤلاء الأفراد هم الأم والأب وأعضاء الأسرة التي يولد فيها الطفل، والطرق التي يقابل الطفل بها هؤلاء الأفراد تحددها عدة حقائق هامة .

أولى هذه الحقائق أن الأفراد الإنسانيين الذين يبدأ الطفل في التعامل معهم يميزهم على انهم كائنات حية نشطة، ويستطيع ذلك في الشهور الأولى من حياته. وليس معنى نشاطهم أنهم يروحون ويجيئون ويتحركون فقط، ولكن معنى هذا أنهم يسدون له حاجاته المختلفة من جوع وعطش وتعب وقلق. ومن هذه الحقائق أيضاً أن معاملة الكبار للطفل تتحدد بالطرق التي تكون الأم على معرفة بها بصفتها عضواً في مجتمع معين أو في طبقة معينة من هذا المجتمع. ومنها أيضاً أن الطرق التي يعامل الكبار الطفل على أساسها تتحدد أيضاً بالفروق الفردية في المزاج والشخصية وفي القدرات والاهتمامات؛ فالأم ضعيفة العقل مثلاً تعامل أطفالها بطرق لا تشترك فيها مع غيرها من الأمهات في المجتمع.

وهكذا نجد أن المجتمع يقدم للطفل عدداً قليلاً من الأفراد يلاحظونه ويتصرفون نحوه بطرق معينة. و يبدأ الطفل في ملاحظة هؤلاء الأفراد وفي الاستجابة لهم في الوقت الذي يلاحظونه هم ويستجيبون له. و بهذا يبدأ في تغيير نفسه تدريجياً حتى يشترك في هذا المجتمع ويكتسب في الوقت نفسه شخصية مميزة

له. هذه العملية التي يلاحظ فيها الطفل الآخرين ويستجيب لهم في الوقت الذي يلاحظونه هم ويستجيبون له تعرف بالتفاعل Interaction. وعملية التفاعل الاجتماعي هذه التي تحدث بين الفرد والآخرين وبين الآخرين والفرد معناها في الحقيقة أن ما يلاحظه الشخص ويقوم بعمله في المواقف الاجتماعية هو في الوقت نفسه استجابة لما لاحظه الآخرون وقاموا به. و هذا التفاعل وما ينتج عنه من تعلم لسلوك معين يعني التربية.

يتضمن مفهوم التفاعل الاجتماعي إذن الاستجابة الفعالة التي ينتج عنها التعلم. والتعلم يمثل التغير الذي يحدث للكائن الحي نتيجة الاستجابة او الاستجابات التي يقوم بها. والتفاعل الاجتماعي يصحبه دائماً تعلم. وإنّ أنواع التفاعل الاجتماعي وميادينه تختلف وفقاً لها أنواع التعلُّم و ميادينه . فما يقوم به الفرد من عمل ما هو إلا استجابة. وينظر السيكولوجيون إلى السلوك على أنه يشكل تشكيلاً سلبياً عن طريق تأثير خارجي، إلا أنهم ينظرون إليه أيضاً على أنه شيء يقوم به الفرد حتى يسد حاجاته و حتى يتمكن من التعامل مع العالم الخارجي. ومعنى هذا أن التأثيرات الاجتماعية تؤثر في الفرد عندما يختار بين المثيرات المختلفة ويضعها في نظام حتى يستجيب لها.

ومعنى هذا أن عملية التفاعل الاجتماعي تتضمن عملية تأثير وتأثر في معظم الأحيان؛ فهو يؤثر في غيره بحيث يستدعي استجابات معينة وهو يستجيب لغيره نتيجة سلوكهم نحوه. على أن الطفل لا يتأثر- كما قلنا – بما يوجد في ثقافته في مجملها وإنما يتأثر بما تقدمه له الثقافة من أفراد معينين أو مواقف معينة. وهؤلاء الأفراد يشتركون في نواحٍ كثيرة من هذه الثقافة، ويشتركون في مفاهيم ومدركات

عامة. هذه الحقيقة هي نتيجة هذا التفاعل الاجتماعي الذي يتضمن عملية التأثر والتأثير . فعن طريق التأثير في الآخرين والتأثر بهم تنتج المفاهيم والمدركات العامة التي يشترك فيها أفراد المجتمع.

التفاعل الاجتماعي وتكوين الاتجاهات

يؤدي التفاعل الاجتماعي إذن إلى تكوين أنماط سلوكية عامة مشتركة بين الجميع اذ ينتج عن التفاعل تكوين الاتجاهات العامة نحو الآخرين . فنحن نعرف أننا نميل إلى الاستجابة للآخرين لا على أساس ما يقولونه وما يفعلونه، بل على أساس شعورنا نحوهم كأشخاص. مثال ذلك أن تبسُّط الصديق في الحديث وإلقاءه بعض النكات والطرائف قد يقبل منه، ولكنه قد يعتبر إهانة من شخص آخر لا نحبه ولا نميل إليه. وترتبط اتجاهاتنا بهؤلاء الأفراد الآخرين باتجاهاتنا نحو أنفسنا؛ فعلم النفس الاجتماعي يؤكد لنا أن اتجاهاتنا نحو الأفراد الآخرين لا يمكن فصلها عن اتجاهاتنا نحو أنفسنا؛ إذ لا يمكن فهم احد هذين الأمرين منفصلاً عن الآخر. فاتجاهات الفرد نحو الآخرين وفكرته عنهم تؤدي إى فهم اتجاهاته نحو نفسه وفكرته عنها، وهذا وبلا شك عنصر هام في تكوين الشخصية الإنسانية واتجاهاتها؛ هذه الشخصية الإنسانية التي تعني التربية بوسائل تكوينها ومقوماتها والأسس التي تجعل منها شخصية سوية والعوامل التي قد تنحرف بها عن سواء السبيل. من هنا جاء اهتمام التربية بالتفاعل الاجتماعي بين الفرد وبين الآخرين في المجتمع وما ينتج عن هذا التفاعل من تأثير وتأثر يؤديان إلى تكون الاتجاهات

نحو الآخرين والفكرة عنهم كعنصرٍ من العناصر الأساسية لفهم الشخصية الإنسانية.

الاختيار وعملية التطبيع الاجتماعي

عندما يوجه الفرد سلوكه نحو هدف معين، فإنه لا يقوم بجميع أنواع السلوك الممكنة ولا يستجيب لجميع أنواع المثيرات الممكنة. فالتلميذ الذي يتأخر عن المدرسة في الصباح ويسرع الخطى حتى يصل في أسرع وقت ممكن، يقابله كثير من المثيرات مثل بائع الشوكولاته وإعلانات السينما وواجهات المحلات، ولكنه لا يعيرها التفاتاً، ذلك لأنه قد أقام سلوكه على نوع معين من الاختيار يحقق له الهدف منه. على أننا يجب أن نميز بين نوعين من الاختيار في السلوك. النوع الأول هو النوع الذي نلاحظه من السلوك كالمشي والكلام والتقطيب والكتابة؛ فمثل هذا النوع من السلوك يبنى على أساس الاختيار. فإذا وُجد الفرد الإنساني في جنازة مثلاً فإنه يختار من بين أنواع المشي التي يخزنها ما يناسب هذا الموقف، وهو أن يقف معتدلاً هادئاً مطأطئ الرأس، و هذا الشخص نفسه عندما يشاهد مباراة في كرة القدم، فإنه يختار أيضاً من مخزن السلوك الذي لديه نوعاً يناسب هذا الموقف ولكنه يختلف عن النوع السابق، فهو يهتف ويشجع ويهلل ويصفر.

أما النوع الثاني من الاختيار في السلوك فهو السلوك المدرك. فالفرد الإنساني لا يلاحظ أبداً كل مظاهر الموقف الذي يمر به؛ فعندما ينظر الإنسان إلى شخص معين مثلاً، فقد يلاحظه على انه طيب، وقد يلاحظه آخر على أنه يعمل في التجارة، وقد يلاحظه ثالث على أن له وجهاً أبوياً. والأفراد الذين يلاحظون هذه

الأشياء المختلفة في الفرد الواحد إنما يختارون أنماطاً معينة من سلوكه تتناسب مع ما لاحظوه . فاذا قدم لهم الفرد مساعدة وصفوه بالطيبة، وإذا ناقش في الأثمان فهو تاجر، وهكذا. على أن هذا يتضح أيضاً إذا رأى عالم الجيولوجيا حجراً ورآه شخص آخر يعمل بنّاءً مثلاً؛ فكل منهما ينظر إليه نظرة خاصة مختارة مبنية على اختلاف إدراك كل منهما له. فالبنّاء يدركه على أنه حجر يمكن أن يقيم منه بناءً، والجيولوجي ينظر إليه على أنه يمثل حقبة تاريخية معينة .

على أن هذين النوعين من الاختيار لا ينفصلان عن بعضهما؛ فالإدراك هو طريقة النظر في المواقف في صورة أنواع السلوك المختلفة التي يمكن أن يتضمنها الموقف. أما الاختبار المنجز فهو طريقة لتنفيذ واحد ة من الإمكانيات السلوكية المدركة.

المعايير الاجتماعية

سبق القول إن الاتجاهات التي يشترك فيها أفراد الجماعة والتي تيسر لهم سبل التفاعل والتواصل هي معايير اجتماعية للجماعة. وسنستخدم لفظ المعيار الاجتماعي بمعنى الإطار المرجعي المشترك الثابت إلى حد كبير، سواء كان ذلك كماً أو نوعاً . والحاجة إلى التواصل بين أفراد الجماعة تدفعهم إلى تنمية المعايير المختلفة المشتركة التي تؤدي إلى الاتجاهات المشتركة أيضاً .

وتصل الجماعات إلى تكوين المعايير الخاصة نتيجة معانٍ ثابتة للأشياء، وليس معنى هذا أن هذه المعايير الاجتماعية تكون بالضرورة نتيجة للسلوك المشترك من جانب أولئك الذين يشتركون في هذه المعاني. فأعضاء الجماعة غالباً

ما يعبرون عن أنماط سلوك متشابهة؛ ففي مباراةٍ لكرة القدم مثلاً بين فريقي الزمالك والأهلي المصريْين نجد أن جميع الأفراد المؤيدين لفريق الزمالك يهتفون ويبتهجون عندما ينتصر فريقهم، لأن نصر الزمالك له معانٍ مشتركة بينهم جميعاً. ولكن المعايير الاجتماعية تتضمن أيضاً سلوكاً من جانب أفراد الجماعة لا يكون متشابهاً، بل يتصف بالتميز والفردية. مثال ذلك ما يحدث في حفل التعارف في بداية العام الجامعي للطلاب الجدد؛ إذْ يبتهج الطالب ويبتهج الأستاذ، ولكن كلاً منهما يبتهج بطريقته الخاصة التي تميزه والتي تناسب وظيفته ومركزه. وهذا السلوك المتميز من جانب كل منهما يفهمه الحاضرون لأنهم يدركونه داخل الإطار المرجعي الذي يشتركون جميعاً في فهمه وهو مركزه ومنصبه. على أن هذه الأنواع من السلوك - رغم اختلافها - فالمعايير الاجتماعية التي تقف وراءها معايير مشتركة أقيمت على معانٍ ثابتة مشتركة.

والمعايير الاجتماعية للجماعة يمكن تنميتها نحو أي شيء في الوجود، سواء أكان هذا الشيء حقيقياً أم خيالياً؛ ففي العالم الإسلامي تتكون المعايير في الجماعة الإسلامية نحو أشياء معنوية كالله وقصة الخلق ووجود الجنة والنار. وتتكون كذلك معايير نحو الأشياء المادية كالميراث وتوزيع الثروة وحساب الأرباح والخسائر وغيرها .

أما كيف تكون الجماعة معاييرها الاجتماعية الخاصة بالأشياء المادية، فنحن نجد أن أعضاء الجماعة في تحديدهم لعلاقاتهم المختلفة مع بعضهم البعض لا يستطيعون إغفال الأشياء التي توجد في بيئتهم والتي يعتمدون عليها بطرق كثيرة متنوعة. و كلما كان الاعتقاد المشترك بين أفراد الجماعة على هذه الأشياء كبيراً

كان تكوين الجماعة للمعايير الخاصة بهذا الشيء ضرورياً ومؤكداً. ففي البيئة الصحراوية يستطيع الأفراد أن يتواصلوا فيما بينهم بواسطة الجمال، وفي بيئة الإسكيمو يستطيعون أن يتواصلوا بواسطة الثلج. وهكذا نجد أن المعاني المشتركة التي يكونها أفراد الجماعة نحو الأشياء المادية إنما تيسر لهم سبل التعامل فيما بينهم. فالاستجابة لشيء مشترك عندما يلاحظها شخص آخر تكون وسيلة من وسائل الاتصال بالنسبة لهذا الشخص الآخر، سواء كان يقصد بها عملية اتصال أم لا. فالشخص الذي يترك القمامة أمام منزله أو الشخص الذي يجمع الكتب النادرة، إنما يقوم بهذا العمل دون أن يقصد عملية اتصال بغيره، ولكن كلاً منهما على أي حال - سواء أدرك ذلك أو غاب عن إدراكه- فإنه يقوم بعملية تفاعل مع غيره من الناس، وتنشأ عملية تعامل بينهم ينتج عنها إدراك لهذا الفرد وفهم له على أساس المعنى المشترك الذي أضفي على هذه الأعمال. على أن المعايير التي تنتقل نتيجة لمثل هذا السلوك تعتمد طبعاً على معايير الجماعة التي يلاحظ أفرادها هذا السلوك.

ولا شك في أن الناس يعلمون دائماً حقيقة أن سلوكهم يلاحظه الآخرون، وأنهم نتيجة لذلك عندما يقومون بهذا السلوك يبدون وكأنهم يقولون شيئاً لهؤلاء الآخرين عن طريق معاملتهم للناس ومعاملتهم للحيوانات وجمعهم للكتب النادرة مثلاً. وعلى العموم فإنهم يقومون بذلك عن طريق أنماط سلوكهم المختلفة. وبذلك يكون المعنى الذي ينتقل بالفعل إلى الآخرين معتمداً على معاييرهم الاجتماعية، سواءً أكان الشخص يقصد نقل هذا المعنى إلى الآخرين أم لا يقصد ذلك. على أن انتقال هذا المعنى من الشخص الذي قام بالسلوك إنما يعتمد أيضاً على المعايير الاجتماعية التي افترض وجودها لدى الآخرين.

على أن فهم الفرد للمستويات الاجتماعية للآخرين قد لا يناسب بالضرورة مع معاييرهم الحقيقية. ومن ثم فإن هؤلاء الناس على حق في النتائج التي يصلون إليها وبشأن ما ينتج عن سلوكه. ولكن ما يحدث في الحقيقة أن الفرد يخطئ في افتراض أن أولئك الذين يلاحظونه يشتركون معه في المعايير الاجتماعية، وينتج عن ذلك أنْ تختلف اختلافاً كبيراً المعاني التي يقصد نقلها إلى الآخرين و ما ينتقل إليهم بالفعل. وإذا كانت جماعة من الجماعات ينقل أفرادها إلى الآخرين غير ما يقصدون نقله، فإن هذه الجماعة لن تدوم طويلاً، خاصة إذا كان ذلك يتعلق بالأشياء عظمية الأهمية بالنسبة لهم. و هكذا نجد أن المعايير الاجتماعية في الجماعة التي تنمو في جميع الاتجاهات تنتج عنها طرق معينة للاستجابة للأشياء المشتركة التي تحمل معاني معينة. وبعض طرق الاستجابة هذه تشمل كل أفراد الجماعة بينما يقتصر البعض الآخر منها على الأفراد الذين يحتلون وظائف معينة.

ولا يقتصر تكوُّن المعايير الاجتماعية على الأشياء المادية، وإنها تتكون أيضا نحو الأفراد الآخرين الذين تضمهم الجماعة. فمن الأهمية بمكان بالنسبة لأفراد الجماعة أن يصبحوا قادرين على الاشتراك والتعامل مع بعضهم على أساس نظرة كل منهم إلى الآخرين. فكل فرد في الجماعة مشترك بالنسبة للبعض إن لم يكن بالنسبة لجميع أفراد الجماعة. والطرق الرئيسية التي تستطيع فيها المعايير الاجتماعية أن تؤدي إلى المعاني المشتركة فيما يختص بأعضاء الجماعة تتكون عن طريق الوظائف التي يحتلها أفراد الجماعة وما يترتب على ذلك من أدوار مختلفة.

وتتكون المعايير الاجتماعية أيضاً بالنسبة للجماعات الأخرى؛ فالجماعات الأخرى وأفرادها ينظر إليها أفراد هذه الجماعة وتكتسب لديهم معنى يمكنهم أن يتعاملوا معها على أساسه. فالبيض في الولايات المتحدة الأمريكية ينظرون إلى الزنوج - وهم أفراد جماعة أخرى - على أنهم يشتركون معهم وفقاً لما تعينه هذه الجماعة بالنسبة لهم. وهكذا تصبح الجماعة ومعاييرها الاجتماعية هي الإطار المرجعي الأساسي الذي يقوم عليه بناء الجماعات الاجتماعية الأخرى .

كذلك تتكون المعايير الاجتماعية بالنسبة للمؤسسات الاجتماعية التي تسود المجتمع. ففي كل مجتمع هناك عدد من المناشط التي تعتبر ذات أهمية عظيمة بالنسبة للصالح العام المشترك. ومثل هذه المناشط تتضمن المشكلات الأساسية مثل: كسب العيش، والزواج، وتربية الأطفال، وفهم القوى الطبيعية المختلفة. وعبر التاريخ، عمل كل مجتمع من المجتمعات على التوصل إلى حلول لهذه المشكلات تتفق مع تكوين المجتمع، وذلك في شكل أنماط من النشاط مناسبة ومؤدية إلى تحقيق هذه الحلول. وهذه الأنماط من النشاط تتجمع حول قيم المجتمع، وهي أنماط نجدها في الزواج بواحدة في بعض المجتمعات والزواج بأكثر من واحدة في مجتمعات أخرى. هذا إلى جانب مؤسسات التعليم العام والبنوك وغيرها مما يمكن أن يسمى مؤسسات اجتماعية.

ولما كان من الضروري بالنسبة لأفراد الجماعة أن يشاركوا في مناشط تعتبر أساسية بالنسبة لصالح الجماعة، فإن المعايير الاجتماعية الخاصة بهذه المناشط كانت لا بد أن تظهر وتنمو. ويرتبط بهذه المعايير شعور مشترك نحوها نتيجة للسلوك المشترك نحوها. وعلى هذا يتم تنظيم المناشط ويبذل المجتمع جهده للتأكد

من أن هذه المناشط يتم تنفيذها والقيام بها على خير وجه. ومما يضمن تنفيذ هذه المناشط الضغوط الاجتماعية المختلفة التي تمارسها المؤسسات وتقع على الفرد، وكذلك القوة الأخلاقية التي تصاحبها. ومما يؤكد قيام الأفراد بها أيضاً ما يفرضه المجتمع من قوانين ومن عقوبات. وبذلك يحاط كل نظام خاص بالمؤسسة الاجتماعية بأنواع الثواب والعقاب المختلفة التي تضمن تنفيذ المناشط الرئيسية في المجتمع وبقاء القيم الأساسية التي تتركز حولها هذه المؤسسات. وبذلك تصبح هذه المؤسسات الاجتماعية مشتركة لا يمكن التخلص منها بالنسبة لجميع المشتركين في المجتمع. وهذه الأنماط الكلية للمناشط الأساسية التي تكون المؤسسة الاجتماعية بالإضافة إلى الضمانات المختلفة التي تؤدي إلى تنفيذها يدركها الفرد بمجموعها على أنها إطار مرجعي مشترك. وتصبح المؤسسة الاجتماعية ككل معياراً اجتماعياً تدرك على أساسه أنواع السلوك المتعلقة به، ويحكم عليها على هذا الأساس. وترتبط بكل مؤسسة اجتماعية مجموعة من الآراء والمعتقدات والمعارف يشار إليها غالباً على أنها آيديولوجية. فالآيديولوجية تتكون في جزء منها من معايير الجماعة للحكم على أنواع السلوك التي تتعلق بالمؤسسة الاجتماعية وتتعلق الآيديولوجيات دائماً- بطريق مباشر أو غير مباشر- بالخبرات الخاصة بالمؤسسة الاجتماعية، وتؤدي عادة إلى مساندتها وتبريرها، ويحاول أعضاء الجماعة دائماً أن يدافعوا عن الحق الذي يوجد في آيديولوجياتهم على الرغم من أنه في بعض الأحيان تكون هذه الأفكار التي يدافعون عنها مسائل لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها. فالآيديولوجية العربية تتكون من أفكار ومبادئ تخصّ حياة العرب واستقلالهم وتاريخهم الطويل المشترك الذي يمكن الاعتماد عليه في بناء حاضر مشترك وفي التطلع إلى مستقبل يعم فيه الخير على الجميع. وفي هذه الآيديولوجية

العربية أيضاً نجد مبادئ الاشتراكية وإزالة الحواجز بين الطبقات حتى يتكون مجتمع بعيد عن الاستغلال والاحتكار فلا تستغل طبقة بطبقة أخرى ولا تتحكم فئة بفئة أخرى، بل لا يستغل فرد فرداً آخر أو يسيطر عليه لتحقيق غاياته ومصالحه الخاصة. وتتضمن هذه الآيديولوجية العربية أيضاً مبادئ عن مناهضة الاستعمار واتخاذ الشعب العربي موقفاً إزاء التيارات والتكتلات المختلفة. وركيزة ذلك هي الإيمان بالأساس الثقافي والاجتماعي والسياسي للشعوب العربية الذي ينبع من صميم ثقافتها ومن صميم واقعها. كل هذه الأنواع من المعايير الاجتماعية تؤدي غرضاً واحداً هو إمداد الأفراد في المجتمع بمعانٍ موحدة يستطيعون على أساسها التعامل فيما بينهم، وعلى أساس هذه المعاني المشتركة يستطيع أفراد الجماعة أن يفهم كل واحد منهم الآخر بدرجة تفضل كثيراً الحالة التي ينعدم فيها وجود هذه المعاني، ونتيجة لذلك تتكون معايير مشتركة تشكل شروطاً أساسية ضرورية لتفسير كل شكل من أشكال السلوك. فإذا حكمنا على السلوك الفردي على الرغم من اختلافه عن سلوك الآخرين فإننا نحكم عليه بنفس بالمعايير نفسها ونفسره كذلك بالمعايير نفسها.

وتحدد المعايير الاجتماعية للجماعة سلوك الفرد الإنساني من ناحيتين:

الأولى: أنها تمده بالمعاني المشتركة لأن الفرد يعتمد على معايير الجماعة في اكتساب المعاني التي لا يستطيع بدونها أن يتصل بالجماعة اتصالاً اجتماعياً. وهي تمدّه كذلك بالأهداف المشتركة لأن الفرد لا يستطيع أن يتغاضى عن موافقة الأفراد الآخرين الذين يرتبطون بهذه المعايير أو عدم موافقتهم. فالفرد الإنساني حساس

كل الحساسية بالنسبة لاستجابات الأفراد الآخرين المشجعة أو المثبطة، وينتج عن ذلك أن يتجه الفرد نحو الأشياء التي تتحدد معانيها بالنسبة له على أساس المعايير الاجتماعية أو يتجه بعيداً عنها.

بهذا نكون قد تناولنا جزءاً هاماً آخر من عملية التطبيع الاجتماعي وهو تكوّن الاتجاهات المشتركة لدى الأفراد الذين يكوّنون الجماعة والمعايير الاجتماعية المشتركة. ولا شك في أن الجماعة تعمل من جانبها على أن تكسب أعضاءها هذه المعايير الاجتماعية المشتركة. وهنا تكون التربية هي الوسيلة التي تكفل للجماعة عوامل تماسكها ومقومات وجودها؛ إذ لا تستطيع أي جماعة أن تستمر و تبقى إلا باستمرار قيمها ومعاييرها الاجتماعية وآيدولوجيتها. ومن هنا كانت عملية إكساب أفراد المجتمع هذه المعايير والقيم والآيديولوجيات المشتركة عملية هامة في المجتمع. وهذه العملية جزء هام من العملية التربوية بعامّة؛ فإذا كانت العملية التربوية تهدف بصفة عامة الى تشكيل أفراد إنسانيين في مجتمع معين، فإنّ معنى هذا التشكيل أن يكتسب الافراد الانسانيون الاتجاهات المشتركة بين افراد المجتمع والمعايير الاجتماعية التي يشترك فيها افراد المجتمع والايديولوجيات التي تسود المجتمع وتوجهه. وبذلك يكون هذا الجزء من عملية التطبيع الاجتماعي جزءاً هاماً في إيجاد هذا التماسك بين افراد المجتمع وجزءاً هاماً من العملية التربوية .

الدور الاجتماعي

نتكلم الآن عن جزء آخر من عملية التطبيع الاجتماعي، وهو الدور الاجتماعي . فنحن نعرف ان كل فرد أنساني ولد في مجتمع معين قد استقر على

شكلٍ من الأشكال واتخذ لنفسه نوعاً من التنظيم. فالمجتمعات الإنسانية - حتى البسيطة منها - تتميز بتكوين اجتماعي معقد ومتداخل ، متشابك في أجزائه المختلفة إلى حد بعيد فإذا أرادت العملية التربوية ان تحقق هدفها باعتبارها عملية تطبيع اجتماعي ، فإنّ عليها أن تعرف النظام الاجتماعي الذي يسود المجتمع والتنظيمات الاجتماعية المختلفة التي يقوم عليها بناؤه. لذلك كان من الضروري أن تفحص التربية تنظيم الجماعات والمجتمعات؛ إذ إن هذا التنظيم يمدنا بالمعيار الاجتماعي الذي يدرك على أساسه أعضاء المجتمع الاخرين ويحكمون على سلوكهم. وكلما كان أعضاء المجتمع اكثر تكيفاً لوظائفهم وأدوارهم الاجتماعية كان قيام المجتمع بوظيفته اكثر كفاءة ويسراً .

ويمكن أن تحدد الطريقة التي يقوم عليها تنظيم المجتمع على أساس الوظيفة وعلى اساس الدور الذي تتطلبه هذه الوظيفة؛ فكل فرد في اي مجتمع يحتلّ على الأقل مركزاً واحداً حتى الطفل الوليد يحتل مركز الطفل . على انه بعد مرحلة الطفولة يحتل معظم الافراد مراكز عديدة فالمراهق ابن، وأخ، وتلميذ... وهكذا. والرجل قد يكون زوجاً وأباً موظفاً... وهكذا. وليس معنى هذا ان يحتل فرد واحد كل المراكز في المجتمع؛ اذ لا يوجد فرد واحد يستطيع ذلك. وبهذا لا يستطيع اي فرد في المجتمع ان يشترك في جميع مظاهر ثقافة هذا المجتمع . ولكنه يشترك في اجزاء من هذه الثقافة ولا يشترك في اجزاء اخرى منها. وتتحدد هذه وتلك على أساس المركز الذي يحتله الفرد في هذه الثقافة . فالطفل الذي ينشأ في ثقافة ما لا يشترك في المظاهر السياسية لتلك الثقافة مثلاً.

وهكذا نجد ان الفرد في المجتمع يحتل عددا كبيرا من المراكز، ولكن مركز الفرد في المجتمع هو المجموع الكلي لجميع هذه المراكز التي يحتلها. والمركز هو مجموعة من الحقوق والواجبات، ولأنّ هذه الحقوق والواجبات لا بد لها من افراد يقومون بها فإنّ من الصعب علينا ان نفصل بينها وبين الافراد الذين يقومون بها .

ولكل مركز معترف به في المجتمع أن أهدافه التي يسهم بها في تحقيق أهداف المجتمع بصفة عامة. وهذا الإسهام من جانب المركز في تحقيق أهداف المجتمع هو وظيفة هذا المركز فيه. وترتبط بكل مركز في المجتمع مجموعة من الآراء والمعتقدات التي تتعلق بوظيفته والتي تكوّن- كما سبق أن قلنا- نظام المعايير الاجتماعية للجماعة. ونظراً لأن المعايير الاجتماعية تختلف من جماعة إلى أخرى، فإن وظيفة مركز معين قد تختلف من ثقافة إلى أخرى. فوظيفة القسيس في بعض المجتمعات أن يساعد في نزول المطر ، وفي مجتمعات أخرى أن يرشد الناس إلى طريق الرشاد، وفي نظر علماء الاجتماع أن يساعد في تحقيق تماسك الجماعة.

والمراكز في المجتمع تتداخل وتترابط وتهدف إلى تحقيق أغراض مشتركة بين جميع أفراد المجتمع . فالمجتمعات والجماعات يمكن النظر إليها على أنها تنظيمات لمراكز مختلفة للوصول إلى أهداف معينة . ولما كان كل مركز على هذا الأساس جزءاً من نظام كلي للمراكز، فإن معنى المركز لا يمكن أن ينفصل عن معاني المراكز الأخرى التي ينتمي إليها. فمركز الأم لا يمكن أن ينفصل عن مركز الطفل مثلاً، ومركز القائد لا يمكن أن ينفصل عن مركز التابع . وهكذا نعرف أن المجتمع بصفة عامة مجموعة متداخلة مرابطة من المراكز، تعمل معاً في سبيل تحقيق أهداف

معينة تضعها الجماعة لنفسها ولا يمكن أن يفهم أي مركز فيها بمعزل عن المراكز الأخرى.

ويتضمن كل مركز وصفاً لأنواع السلوك التي يجب اتخاذها نحو أفراد المراكز الأخرى؛ فمركز الأم مثلاً يتضمن وصفاً تضمينياً لطرق السلوك مع الأطفال. وهكذا يحمل كل مركز أنماطاً معينة من السلوك يجب على من يحتل هذا المركز أن يقوم بها. هذه الأنواع من السلوك هي التي تسمى (الأدوار)، وبذلك يرتبط المركز بالدور ارتباطاً كبيراً، ويرتبطان أيضاً بالثقافة التي يظهران فيها. فإذا كانت الثقافة تنظيماً لأنواع السلوك المكتسب المتعلم، وهي أيضاً نتاج السلوك المشترك الذي ينقل من جيل إلى جيل ، فإذا حللنا هذه الأنواع من السلوك وجدنا أنها أعمال منظمة لأفراد معينين يقومون بها؛ فالأم تطعم أطفالها بطريقة معينة مثلاً. ولأنّ الأفراد هم أعضاء في مجتمع و المجتمعات تتكون من مراكز متعددة، فإنّ الأفراد يحتلون هذه المراكز، وتصبح هذه المراكز بذلك مجموعة من الحقوق والواجبات تنتظم حولها أعمال الأفراد فيما يسمى الأدوار الاجتماعية، ويكون الدور بذلك هو الأعمال التي يقوم بها الفرد الذي يحتل مركزاً معيناً .

على أننا ننظر إلى المركز الذي يحتله الفرد في المجتمع على أنه تنظيم اجتماعي يدل على مجموعة من التوقعات أو الاستجابات المكتسبة المتوقعة. ومعنى هذا أن الفرد يتعلم توقُّع استجابات معينة من الأفراد الآخرين، وأن الآخرين أيضاً لديهم توقعات منه. فالطفل مثلاً يتوقع ممّن أمه أو من يحل محلها أن يطعمه ويحميه ويحبه. وهذه التوقعات المختلفة تنتظم جميعاً حول مفهوم يتبلور فيما بعد ليصبح لفظ

(الأم) ويصبح مركز الأم بعد ذلك هو مجموعة الأفعال المتوقعة ممن تحتل هذه المراكز، ويصبح المركز بصفة عامة تنظيماً اجتماعياً لدور متوقع .

وبهذا يقوم كل من يحتل مركزاً من المراكز الاجتماعية بنمط معين من السلوك يرتبط بهذا المركز وبما يتوقعه أفراد ثقافة معينة ممن يحتل هذا المركز . هذا النمط المعين من السلوك هو الدور الاجتماعي . وقد عرف علماء الاجتماع الدور الاجتماعي تعريفات مختلفة، واعتبره بعضهم وحدة عملية التطبيع الاجتماعي، ومعنى هذا أن تصبح الذات والشخصية عملية (تشرب) للأدوار الاجتماعية المختلفة.

والدور الاجتماعي نمط من الاتجاهات والأفعال التي يقوم بها الفرد في المواقف الاجتماعية المختلفة . ويعرفه كوتريل تعريفاً دقيقاً ومحدداً؛ إذ يقول: الدور سلسلة من الاستجابات المرتبطة بموقف اجتماعي معين يقوم بها عضو من أعضاء المجتمع. وتمثل هذه السلسلة نمطاً من المثيرات لمثل هذه السلسلة من الاستجابات المرتبطة عند الآخرين بالموقف نفسه. وعلى هذا الأساس، عندما نتناول دراسة السلوك الإنساني على أساس دراسة الأدوار الاجتماعية، فإن علينا أن نضع السلوك الإنساني في مستوى يتضمن العلاقة بين الذات وبين الآخرين. ومعنى هذا أن الدور الاجتماعي تتابع نمطي لأفعال متعلمة يقوم بها فرد من الأفراد في موقف تفاعلي، وبذلك يرتبط الدور الاجتماعي لفرد معين بالأدوار الاجتماعية للأفراد الآخرين، وبذلك أيضاً يتضح ارتباط الدور بالمركز الذي يحتله والتأثير والتأثر الذي يحدث بينهما .

ويصبح المركز الاجتماعي نتيجة لذلك تنظيماً اجتماعياً لمجموعة من التوقعات الخاصة بالدور الاجتماعي . وهذه التوقعات نوعان : الحقوق والواجبات. والحقوق هي الأنماط السلوكية التي يتوقعها القائم بالدور الاجتماعي ممن يقوم بالدور الاجتماعي المقابل. مثال ذلك أنّ الوليد يحتل مركز الطفل وأمّه تحتل مركز الأم، والطفل في مركزه يقوم بدور معين يتوقع فيه حقوقاً معينة ممن يحتل مركز الأم؛ فهو يتوقع أن تحميه وتغذيه وتقوم برعايته . أما الواجبات فهي الأنماط السلوكية التي يتوقعها القائم بالدور الاجتماعي ليقوم بها نحو القائم بالدور الاجتماعي المقابل، ففي حالة الطفل والأم نجد أن الأم تتوقع أن تقوم بأنماط سلوكية معينة نحو طفلها تعتبر واجبات .

معنى هذا أن الشخص الذي يحتل مركزاً من المراكز الاجتماعية في المجتمع إنما يقوم بدور اجتماعي معين نتيجة لاحتلاله هذا المركز، وهذا الدور الاجتماعي يكون موجهاً نحو شخص آخر أو مجموعة أخرى لها مركز اجتماعي معين، ومن ثم لها دور اجتماعي. ويعني ذلك أن هناك في المجتمع دائماً تفاعلاً بين دور ودور، وينتج عن هذا التفاعل حقوق في ناحية وواجبات في ناحية أخرى، ثم حقوق وواجبات.... وهكذا، فعندما يقوم الطفل بدوره الاجتماعي إنما يجد أن عليه واجبات نحو أمه وأن له حقوقاً عليها، مما يؤدي إلى أن تكون للأم هي الأخرى حقوق وواجبات أيضاً اتجاه الطفل .

والأفعال التي تتخذ نمط الأدوار الاجتماعية يتعلمها الفرد بطريقتين : الطريقة الأولى هي التعلم القصدي، والطريقة الثانية هي التعلم العرضي. على أن هاتين الطريقتين قد تعملان جنباً إلى جنب في تعاون تام . فأي مجموعة من الأنماط

السلوكية المتوقعة بالنسبة لدور معين هي في أغلب الأحيان مزيج من التوقعات المكتسبة عن طريق التعلم القصدي والتعلم العرضي . أما التعلم القصدي فإن الثقافة هي التي تقوم به فتعلم أفرادها أفعالاً معينة لها أوصاف معينة، وطريقتها في ذلك أن تكافئ على الأعمال التي تقبلها وتعاقب على الأعمال التي لا ترغب فيها. وفي كلتا الحالتين نجد أن هناك نظاماً قصدياً مرسوماً لتعليم الطفل أنماطاً سلوكية معينة خاصة بدور معين .

ففي حياة الطفل الأولى يتعلم الأفعال التي تميزه عن غيره ؛ مثلاً من ناحية الجنس. والأولاد الصغار يثابون أو يعاقبون على أنواع معينة من الأفعال، والبنات الصغيرات يكافأن أو يعاقبن على أنواع أخرى من الأفعال . وبهذا يبدأ اكتساب الأفعال التي تهيئ كلاً منهما فيما بعد للقيام بدوره كعضو في جنس معين . ومعنى هذا أن الاستجابات التي يتعلمها الفرد للقيام بدور اجتماعي معين تتم بالتفاعل مع أفراد آخرين. ويصبح مركز هذا التفاعل ووحدته الأساسية الدور الاجتماعي. فالطفل يتعلم أن القيام بسلوك معين في دور معين وتوقُّع سلوك معين من الآخرين في الوقت نفسه وبذلك يكوّن الطفل النظام الخاص به من التوقعات السلوكية سواء من جانبه أو من جانب الآخرين .

أما التعلم العرضي فعن طريقه يكتسب الفرد طرق السلوك التي يجدها لدى الآخرين في بيئته. ومن الأشكال العديدة التي يتخذها التعلم العرضي اللعب. ولعله من أكثر الأشكال الملاحظة انتشاراً . ولقد كان جورج من أوائل العلماء الذين اعترفوا بأهمية اللعب في اكتساب الأدوار الاجتماعية وتعلمها. وتنتج عن اللعب على الأقل نتيجتان هامتان بالنسبة للأطفال. أولاً: اكتساب الأدوار، وثانياً:

اكتساب المهارات في الأدوار المختلفة. فمن خلال اللعب يستطيع الطفل أن ينتقل من دور إلى دور وهو يلاحظ المنطق الشكلي الذي يتبعه الكبار. هذه الحركة وهذا الانتقال من دور إلى دور يتيح للفرد أن يقوم بدوره وبدور الآخر، ولعل الانتقال من دور إلى دور وقيام الطفل بهذه الأدوار جميعاً واكتسابه المهارات المختلفة المرتبطة بهذه الأدوار يساعد في تسريع عملية التطبيع الاجتماعي وتعميقها. غير أن عدم وجود عدد من الأفراد الأساسيين في حياة الطفل وعدم وجود المهارات التي يمكن أن يكتسبها عن طريق الأدوار التي يقوم بها الغير والتي يمكن أن يقوم بها هو ، من شأنه أن يؤخر عملية التطبيع الاجتماعي ويؤدي إلى القيام بالدور الاجتماعي قياماً غير سليم. وفي اللعب أيضاً عمليات تخيلية كثيرة تقوم على أساس مناسبة المراكز، حقيقية كانت أو متخيلة . وتقوم هذه الأدوار والمراكز على أساس القصص الشعبية والخرافات والأساطير والأنواع الأخرى من القصص .

ويحتل الأفراد في المجتمع مراكزهم نتيجة عوامل مختلفة بعضها خارج عن إرادتهم كالمراكز التي تتصل بالعمل أو بالجنس كمركز الولد أو مركز البنت؛ فكل منهما لا يستطيع أن يغير مركزه هذا. وكذلك مركز الرجل العجوز ومركز الشاب الفتى؛ فكل منهما لا يستطيع أن يغير مركزه. وهناك مراكز أخرى يحتلها الفرد نتيجة لعمله وتحصيله الفردي كمركز المدرس أو المحامي أو الطبيب أو الرئيس أو الحاكم.

وبذلك نجد أن طرق السلوك المتوقعة من جانب الفرد الذي يحتل مركزاً معيناً تكون دوره الاجتماعي المرتبط بهذا المركز. ويعرف لينتون Linton الدور

الاجتماعي بأنه مجموع الأنماط الثقافية التي ترتبط بمركز معين، وبذلك تتضمن الاتجاهات والقيم والسلوك التي يصفها المجتمع لكل فرد يحتل هذا المركز، والدور الاجتماعي هو الجانب الديناميكي للمركز. وبذلك نجد أن المركز الاجتماعي يتضمن شيئاً ثابتاً لأنه مكان في التكوين الاجتماعي معترف به من جميع أفراد المجتمع يملأونه بفرد أو أكثر من أفراد المجتمع . ولكن الدور الاجتماعي شيء ديناميكي يشير إلى سلوك من يحتل المركز لا إلى جميع أنواع السلوك التي يقوم بها كفرد في مجتمع ، وإنما إلى السلوك الذي يقوم به كشاغل لهذا المركز. وبذلك يرتبط المركز بالدور ارتباطاً كبيراً لا يمكن معه الفصل بينهما؛ فالمركز لا معنى له دون أن يصاحبه دور معين والدور المعين ينطبق فقط على الأفراد الذين يحتلون مركزاً معيناً في مجتمع معين. فلكل مركز دور ، ولكل دور مركز.

وتمتد أنواع السلوك المختلفة التي يتضمنها الدور الاجتماعي من أنواع السلوك المفروض على كل من يحتل مركزاً من المراكز القيام بها إلى أنواع السلوك الأخرى المحرم عليه القيام بها؛ بمعنى أن هذه الأنواع من السلوك تمتد بين حد أقصى مرغوب فيه و حد أقصى آخر ممنوع. وبين هذين الطرفين أنواع أخرى من السلوك مقبولة وممنوعة على أساس قربها أو بعدها من أحد الطرفين.

ومعنى هذا أن الدور الاجتماعي يتكون من مجموعة محددة من أنواع السلوك يربطها جميعاً فهم مشترك لوظائف المركز الذي يرتبط به هذا الدور. على أن أنواع السلوك المختلفة المرتبطة بالدور ليس من الضروري أن يقوم بها كل من يحتل هذا المركز؛ فبعض أنواع السلوك ضروري وبعضها ثانوي. فإذا فرضنا مثلاً أن دور الأم يتضمن قراءة القصص لأطفالها أو روايتها لهم ، فليس معنى هذا أن

جميع الأمهات يقمن بهذا النوع من السلوك لأنه لا يعتبر ضرورياً، وكل ما هو مطلوب من الشخص الذي يحتل مركزاً من المراكز الاجتماعية أن يقوم بما يحقق الوظائف الأساسية لهذا المركز وأن يتجنب أنواع السلوك الممنوعة .

والدور الاجتماعي تحدده الثقافة التي ينشأ فيها الفرد. فالفرد الإنساني في مجتمع من المجتمعات عندما يقوم بدور من الأدوار الاجتماعية يجد هذا الدور معداً منظماً من قبل بأنواع السلوك التي يجب أن يقوم بها و بأنواع السلوك الأخرى التي يجب أن يمتنع عن القيام بها . والدور الاجتماعي يشبهه لينتون في هذا الصدد (بالحلة الجاهزة) يستطيع الفرد في مجتمع ما أن ينتقي قماشها وطريقة صنعها ولكنه لا يستطيع إلا أن يقبل الشكل العام لها من حيث كونها حلة؛ فلا يستطيع أن يغيرها إلى لباس الهنود أو الصينيين مثلاً، وبذلك يكون اختياره محدوداً في نطاق حجمه وفي نطاق المال الذي يستطيع دفعه. والأدوار الاجتماعية أيضاً هي أدوار (جاهزة) في مجتمع من المجتمعات، ومجال الاختيار منها محدود. وبذلك لا يستطيع الفرد إلا استطاعة محدودة أن ينتقي من بين ما يمكن الانتقاء منه لأنه يحتل مراكز معينة لا يستطيع التحكم فيها على أساس العمر أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية مثلاً.

وحتى تلك المراكز الاجتماعية التي يحتلها الفرد على أساس مجهوده الفردي تكون محدودة أيضاً. ويكون مجال الاختيار بينها بالنسبة له محدوداً أيضاً على أساس مميزاته الشخصية والظروف البيئية التي تتاح له والطبقة الاجتماعية التي يولد فيها ، وغير ذلك من العوامل؛ فهو لا يستطيع مثلاً أن يصبح طبيباً كما يريد وإنما لا بد له أن يختار على أساس قدراته الذاتية وقدرة العائلة المالية . فإذا

استطاع بعد هذا كله أن يختار دوراً اجتماعياً في حدود الإمكانات المتاحة له - الذاتية أو الاجتماعية، فإنه يجد بعد ذلك أن هذا الدور جاهز و معد من قبل، فيقوم به كما يجده . فإذا أصبح مدرساً مثلاً فإن علاقاته المختلفة بزملائه وبالآباء وبالتلاميذ تكون في معظم الأحيان قد حددت له من قبل. على أن هذا لا يمنع أن هناك اختلافات فردية ممكنة عند القيام بدور من الأدوار، بل إن بعض الأفراد يستطيعون أن يقوموا بين وقت وآخر بالتجديدات الاجتماعية في الأدوار التي يقومون بها، هي تجديدات عنيفة أو بسيطة ، ويكون هؤلاء غالباً هم قادة التطور والتغير الاجتماعي. أما في معظم الأحيان ، وبالنسبة لمعظم الأفراد الذين يحتلون مركزاً معيناً فإنهم يقومون بما يتوقع منهم في هذا الدور . ونتيجة لهذه التحديات المختلفة بالنسبة للأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد نجد أن جميع الأفراد الذين يحتلون مركزاً معيناً في مجتمع معين يتشابهون إلى حد كبير في سلوكهم وفي تفاعلهم مع الآخرين.

وفهم الفرد لدوره الاجتماعي وقيامه بواجبات هذا الدور قياماً سليماً يعتمدان من بين ما يعتمدان عليه على فهمه للأدوار الاجتماعية الأخرى التي يقوم بها أفراد المجتمع الآخرون. فقيام الزوجة بدورها يكتمل عندما تعرف دور الزوج أيضاً وتفهمه على أساس اجتماعي سليم، وقيام الابن بدوره يعتمد أيضاً على فهمه لدور الأم والأب. ومعنى هذا أن معرفة الإنسان لدوره تتوقف على معرفة تامة بالدور المكمل له، وبذلك لا يعرف الفرد فقط ما يجب عليه القيام به، بل يعرف أيضاً ما يتوقعه من الآخرين . وتتضح هذه الفكرة إذا طبقت على أدوار اللاعبين في فريق كرة القدم أو فريق التمثيل مثلاً ، فكمال قيام الفرد بدوره في

فريق كرة القدم أو في فريق التمثيل يتوقف إلى حد كبير على معرفته وفهمه للأدوار التي يقوم بها الآخرون.

ويتضح التأثير والتأثر بين الأدوار المختلفة فيما سبق قوله من أن الدور يتضمن نوعاً من الحقوق وآخر من الواجبات فلكل دور حقوق على أدوار الآخرين وعليه واجبات نحوها. فالزوجة لها حقوق على الزوج وعليها واجبات نحوه، وكذلك الأم لها حقوق على ابنها وعليها واجبات نحوه. و لو لا أن كل دور يتحدد في علاقة مع دور أو أكثر من الأدوار الأخرى، لما كانت هذه الحقوق وتلك الواجبات. ولا يمكن لهذه الحقوق والواجبات أن تتسق ما لم تكن هناك مفاهيم عامة مشتركة للجماعة كلها.

على أن هذا الاعتماد المتبادل بين الأدوار المختلفة في الإطار الاجتماعي العام وكذلك بين الأدوار المتقابلة يتضح إذا أدركنا أن أي تغير في دور أحد الأفراد يستدعي تغيراً مناسباً في الدور المقابل وذلك في حدود الإطار العام لهذه الأدوار؛ فدور الأم مثلاً يعتمد في نواحٍ مختلفة على الأدوار الأخرى في الأطر التي تكون الإطار العام لها. فدورها نحو الطفل يتغير إذا أصبح الطفل مراهقاً وإذا أصبح رجلاً، ويختفي دورها إذا توفي زوجها. ويعني ذلك أن مثل هذه التغيرات في أدوار الآخرين تؤدي إلى تغيرات في أنواع السلوك المتوقعة من الأم، ومعنى هذا أن دورها في أية لحظة يتأثر بالإطار الكلي الذي يكون دورها جزءاً منه.

كل دور إذن في جماعة من الجماعات له ذاتية فردية لأن له المركز الخاص به الذي يختلف عن المراكز الأخرى. ولكن جميع الأدوار الاجتماعية تشترك في حقيقة هامة هي أن أفراد الجماعة يدركونها في ضوء مجموعة من المعايير الاجتماعية

المشتركة التي تجعل الاتصال بين أفراد الجماعة ممكناً. ومعنى هذا أن الأفراد الذين يحتلون مراكز مختلفة يكون سلوكهم مختلفاً ولكنهم مع ذلك يشتركون في مفاهيم مشتركة عامة متعلقة بأدوار الآخرين وعلاقتها بدور كل فرد منهم، ومعنى هذا أيضاً أن الناس في أية جماعة من الجماعات عندما يحتلون المركز نفسه يكون سلوكهم متشابهاً إلى حد بعيد.

الباب السادس

الرؤى المستقبلية

الأسرة

تعريف الأسرة

تعددت آراء العلماء في تعريف الأسرة؛ فمنهم من عرفها كجماعة اجتماعية ومنهم من عرفها كنظام اجتماعي.

ومن أبرز تعريفات الأسرة ما يلي:

- تعريف مصطفى الخشاب: الأسرة هي الجماعة الإنسانية التنظيمية المكلفة بواجب استقرار المجتمع وتطوره.
- تعريف كولي: الأسر هي الجماعات التي تؤثر في نمو الأفراد وأخلاقهم منذ المراحل الأولى من العمر وحتى يستقل الإنسان بشخصيته ويصبح مسؤولا عن نفسه وعضوا فعالا في المجتمع.
- تعريف بل وفوجل: الأسرة هي وحدة بنائية، تتكون من رجل وامرأة يرتبطان بطريقة منظمة اجتماعية مع أطفالهم ارتباطاً بيولوجياً أو بالتبنّي.
- تعريف ميردوك: الأسرة هي جماعة اجتماعية تتسم بمكان إقامة مشترك، وقد تتعرض إلى مشاكل اقتصادية، ولها وظيفة تكاثرية تمد من خلالها المجتمع بأفراد لهم بصمات واعدة على ثرائها.

- تعريف هارولد كريستنس: الأسرة هي مجموعة من المكانات والأدوار المكتسبة من خلال الزواج.
- تعريف بوجاردس: الأسرة هي جماعة اجتماعية صغيرة، تتكون عادة من الأب والأم وواحد أو اكثر من الأطفال، يتبادلون الحب ويتقاسمون المسؤولية، وتقوم بتربية الأطفال وتوجيههم وضبطهم ليصبحوا أشخاصاً يتصرفون بطريقة إجتماعية سليمة.
- تعريف ديفز: الأسرة هي جماعة من الأشخاص الذين تقوم العلاقات بين كل منهم والآخرين على اساس قرابة الدم، ويكون كل منهم بناءً على ذلك كأنه جزء من الآخر.
- تعريف رينيه كوينج: الأسرة هي جماعة من نوع خاص، يرتبط أفرادها بعلاقة الشعور الواحد المترابط والتعاون والمساعدة المتبادلة، ويسهم أفراد واعون أصحاء في بنائها وتطويرها وإخراجها للمجتمع.
- تعريف أرنست بيرجس: الأسرة هي مجموعة من الأشخاص ارتبطوا بروابط الزواج أو الدم أو التبني مكونين حياة اجتماعية مع بعضهم البعض، ولكل من أفرادها أدوار اجتماعية خاصة به، ولهم ثقافة مشتركة ومميزة.
- تعريف اوجبرن ونيكوف: الأسرة هي رابطة اجتماعية صغيرة، تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما أو بدون أطفال، أو زوج بمفرده مع اطفاله أو زوجة بمفردها مع أطفالها.

الوظائف الاجتماعية للأسرة

تعد الأسرة البيئة (المؤسسة) التربوية الأولى التي ينشأ فيها الفرد، حيث تتشكل فيها شخصيته الفردية والاجتماعية، فمنها يكتسب الفرد لغته، وعاداته وتقاليده، وقيمه، وعقيدته، وأساليب ومهارات التعامل مع الآخرين. وظلت الأسرة لفترة ليست بعيدة المسؤول الأول والأخير عن رعاية نمو الفرد من جميع النواحي، قبل أن تشاركها مؤسسات اجتماعية أخرى - كالمدرسة - هذه المسؤولية في الوقت الحاضر. وحتى بعد أن أصبحت المدرسة ركناً مهماً في النظام التربوي الحديث، فإنها لم تقلل من دور الأسرة في العملية التربوية، بل على العكس من ذلك تتأكد يوماً بعد يوم أهمية دور الأسرة الذي يبدأ مع الأيام الأولى لولادة الطفل وحتى انفراده بنفسه وتكوين أسرة جديدة ويؤكد هذا ما يراه بعض المتخصصين في التربية وعلم النفس من أن أنماط السلوك التي يكتسبها الفرد من عضويته في جماعة الأسرة تمتد معه في سلوكه مع جماعات اللعب وجماعات المدرسة وجماعات العمل في المجتمع العام.

وتتأثر التربية البيتية للفرد بمجموعة من العوامل، أهمها النظام الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للأسرة. ويقصد بالنظام الثقافي الأسري مجموعة الأوضاع الثقافية والتعليمية والدينية والفكرية والترويحية للأسرة، ويعني النظام الاجتماعي الأسري مكانة الأسرة الاجتماعية، والحي الذي تعيش فيه، وعدد أفرادها وترتيب الطفل بينهم، ونوعية العلاقات السائدة بين أفرادها وأجوائها وظروفها العامة. فلا شك في أن الأسرة التي تشيع في أرجائها علاقات الود

والتفاهم والمحبة والمساواة والثقافة الفكرية والاحترام المتبادل، بالإضافة إلى توافر جميع متطلبات النمو السوي للطفل، سيكون لها دورها في تنشئة شخصية متكاملة وسوية للطفل، على عكس الأسر التي تسودها أجواء المشاحنات والنزاعات وعدم التفاهم والتسلط. ويقصد بالنظام الاقتصادي للأسرة، مستواها الاقتصادي، ومستوى دخلها ويعد مستوى الأسرة الاقتصادي ومستوى دخلها الشهري أو السنوي عاملين حاسمين في التربية البيتية، وكثيرا ما يعزى تسرب الطلاب من المدارس إليهما. ولهذا يمكن القول إن التربية البيتية تختلف من بيت إلى آخر، ومن أب إلى آخر، ومن أم إلى أخرى نتيجة للعوامل المذكورة جميعها.

وجدير بالذكر أن دور الأسرة في العملية التربوية قد بدأ يتقلص في الآونة الاخيرة نظراً لتعقد الحياة، وتشعب شؤونها وازدياد متطلباتها وبخاصة الاقتصادية منها. فقد فرضت الظروف الاقتصادية على كثير من الأسرة ضرورة عمل الأم خارج المنزل، وقد نتج عن غياب الوالدين ساعات طويلة عن المنزل في العمل ضعف دورهما في تربية الأطفال، وأفقد الاطفال جزءا مهما من الرعاية الأسرية اللازمة، وقد أدى هذا مع الوقت إلى تخلي الأسرة عن بعض مهماتها إلى مؤسسات اجتماعية أخرى كدور الحضانة ورياض الاطفال ودور رعاية المسنين. وعلى الرغم من هذا، فإننا نؤكد أن الأسرة ما زالت تحتفظ بوظيفتين مهمتين، وهما: الوظيفة البيولوجية، والوظيفة الثقافية (التربوية).

هناك مجموعة من الوظائف التربوية للأسرة، وهي:

1- التربية الجسدية: وتتمثل هذه الوظيفة في سعي الأسرة نحو بناء أجسام قوؤة وسليمة لأبنائها، معافاة من الأمراض والعلل التي تمنع نموهم القويم

أو السوي. وتبدأ هذه التربية بالأم الحامل، وتستمر حتى يصبح الطفل شابا ويكون أسرة خاصة به، حيث يعمل الآباء على تعليم الاطفال الانتقال من حليب الرضع إلى الأطعمة الصلبة، ومهارات المشي والحركة الصحيحة، والنظافة الجسدية والبيتية، والسلامة من الأخطار والبرد والحرارة...الخ، بغرض خلق جيل قوي في جسمه وعقله، قادر على العطاء والتكيف مع بيئته ومجتمعه، انطلاقا من المقولة 'الجسم السليم في العقل السليم'.

2- التربية العقلية: وتتمثل هذه الوظيفة في سعي الأسرة إلى توجيه القدرات العقلية للطفل وشحذها ورعايتها وضبط العوامل المؤثرة عليها، ومحاولة التحكم فيها وحل المشكلات التي تعترض الطفل في هذا المجال. إن عدم اهتمام الأسرة بالتربية العقلية للطفل، وبخاصة في السنوات الأولى من عمره، سيؤدي به إلى التأخر العقلي، وانخفاض مستوى الذكاء لديه، وعدم استغلاله لقدراته المختلفة بفاعلية. وبذلك تقع على عاتق الأسرة مراقبة أطفالها منذ الولادة – وحتى قبلها – من حيث سويتهم العقلية، وإعطاؤهم الفرصة اللازمة ليتعلموا بالتقليد والمحاكاة، والإجابة عن أسئلتهم على نحو صحيح، وإثارة فضولهم نحو الأشياء ليسألوا عنها، وتوفير أدوات اللعب المناسبة لعملية تعلمهم، واصطحابهم إلى الأماكن العامة وحدائق الأطفال، وغيرها، مما يساعد في نموهم العقلي والمعرفي.

3- التربية النفسية: وتتمثل هذه الوظيفة في سعي الأسرة إلى إيجاد التوازن النفسي لدى الأطفال، وإيجاد البيئة المناسبة التي تشجع ذلك. وبذلك تقع

على عـاتق الأسـرة مراقبـة سـلوكهم وانفعـالاتهم وضـبطها وتوجيههـا، وتوفير الطمأنينة والاستقرار لهم، وإبعادهم عن الصدمات النفسية، وكـل ما يؤثر سلبا على نفسياتهم، مما يساعدهم على التكيف السريع مع أفـراد أسرتهم وأقرانهم ومجتمعهم.

4- التربية الاجتماعية والخلقية: وتتمثـل هـذه الوظيفـة في سـعي الأسـرة إلى تكوين الطفل السوي اجتماعيا، القادر على الاندماج الفاعـل في مجتمعـه. وبذلك يقع على عاتق الأسرة تربية أبنائها تربية اجتماعية وخلقية سليمة، تعلمهم من خلالها سلوكات التعامل الإيجابي مع الآخرين وبناء العلاقات الطيبة معهم، والموازنة بين الحقوق والواجبات، والأخـذ بـالرأي والـرأي الآخـر، والابتعـاد عـن الأنانيـة وحـب الـذات، والأمانـة والاسـتقامة والـصدق، وغيرهـا مـن الأخلاقيـات الـتي تتماشـى مـع قـيم مجـتمعهم وأخلاقياته.

5- التربية الدينية: وتتمثل هذه الوظيفة في سعي الأسرة إلى تعريـف الأطفـال بأمور دينهم وعقيدتهم وتعليمهم مبادئها وأساسياتها ، وبذلك يقـع علـى عـاتق الأسـرة تعلـيم أطفالهـا كيفيـة التقـرب إلى الله مـن خـلال القيـام بالعبادات، والابتعاد عن عمل الخطايا والسيئات، والعمل بما أمـر بـه الله، كما يقع على عاتقها ايـضا تعلـيم الاطفـال احـترام الـديانات والمـذاهب الأخرى في مجتمعهم. وتبقى الأسرة باتجاهاتها الدينية ونمط سلوكها الديني قدوة لأبنائها طوال حياتهم.

6- التربية الترويحية أو الاستجمامية: وتتمثل هذه الوظيفة في سعي الأسرة إلى تعريف أبنائها بأهمية الراحة والاستجمام في حياتهم، ودورهما في تنشيط الجسم والذاكرة والعقل. وبذلك يقع على عاتق الأسرة تعويض أطفالها التمتع بأوقات فراغهم، وجعل الاستجمام المنظم جزءا من حياتهم اليومية.

وكما ذكرنا سابقا، فإن للظروف الاقتصادية التي تمر بها الأسرة في الوقت الحاضر، واضطرار الأبوين للعمل والخروج من المنزل نتيجة لذلك في كثير من الأحيان، تأثيرها الكبير على عدم قدرة الأسرة على القيام بوظائفها على النحو المطلوب. ولذلك، يعد التعاون بين دور الحضانة ورياض الاطفال والمدرسة وبين الأسرة مهما لتحاشي قصور الأسرة في القيام بوظائفها المذكورة على أكمل وجه.

اشكال الأسرة

الأسرة النواة

هي الأسرة المكونة من الزوجين وأطفالهما، وتتسم بسمات الجماعة الأولية، وهي النمط الشائع في معظم الدول الأجنبية وأقل شيوعاً في أغلب الدول العربية. وتتسم الوحدة الأسرية بقوة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة بسبب صغر حجمها، كما تتسم بالاستقلالية في المسكن والدخل عن باقي الأهل، وهي تعتبر وحدة اجتماعية مستمرة لفترة مؤقتة كجماعة اجتماعية، حيث تتكون من جيلين فقط وتنتهي بانفصال الأبناء عنها ووفاة الوالدين، ويغلب عليها الطابع الفردي في الحياة الاجتماعية.

الأسرة الممتدة

هي الأسرة التي تقوم على عدة وحدات أسرية تجمعها الإقامة المشتركة وقرابة الدم، وهي النمط الشائع قديما في المجتمع وهي منتشرة في المجتمع الريفي، وقد تضاءلت أهميتها في المجتمع نتيجة تحوله من الزراعة إلى الصناعة. وتتنوع إلى أسرة ممتدة بسيطة تضم الأجداد والزوجين والأبناء وزوجاتهم، وأسرة ممتدة مركبة تضم الاجداد والزوجين والأبناء وزوجاتهم والأحفاد والأصهار والأعمام وهي تعتبر وحدة اجتماعية مستمرة، حيث تتكون من 3 أجيال وأكثر، وتتسم بمراقبة أنماط سلوك أفراد الأسرة والتزامهم بالقيم الثقافية للمجتمع، وتعد وحدة اقتصادية متعاونة يرأسها مؤسس الأسرة، ويكتسب أفرادها الشعور بالأمن بسبب زيادة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة.

الأسرة المشتركة

هي الأسرة التي تقوم على عدة وحدات أسرية ترتبط من خلال خط الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت، وتجمع أفرادها الإقامة المشتركة والالتزامات الاجتماعية والاقتصادية المشتركة.

الأسرة الاستبدادية والأسرة الديمقراطية

ينتشر نمط الأسرة الديمقراطية في المجتمعات المتقدمة والصناعية، وهي أسرة تقوم على أساس المساواة والتفاهم بين الزوجين، فلا يتمتع أحدهما بسلطة خاصة

على الآخر. أما الأسرة الاستبدادية فتقوم على سيطرة الأب على الأسرة واعتباره صاحب السلطة المطلقة داخل الأسرة، ولا تمتلك الزوجة فيها شخصيتها الاجتماعية أو القانونية.

العائلة

العائلة هي الأسرة التي تقوم على عدة وحدات أسرية لا تجمعها الإقامة المشتركة ولكن تجمعها رابطة الدم والمصالح المشتركة والزيارات المستمرة في المناسبات وغيرها.

مكانة الأسرة ودورها في مستهل الألفية الثالثة

تعد الأسرة الخلية الأساسية في المجتمع، لذا فهي المسؤولة في أغلب الأحيان عن القوة والضعف في البنية المجتمعية العامة، مثلما هي مسؤولة بصورة أساسية عن التنشئة والتكوين. وليس المجال هنا الحديث عن دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية للشباب وبيان آليات هذا الإعداد والتكوين مما لا يتسع له المجال هنا، وإنما نود فقط التساؤل عن مدى تحقيق الدور التربوي الذي تقوم به الأسرة في العالم العربي لمتطلبات المجتمع الجديد وضغوطه المتعددة. فإلى أي حد يمكن أعتبار الأسرة في بنيتها وتكوينها، كما نراها اليوم في مجتمعاتنا العربية، مهيأة لإعداد جيل الشباب بما يجعلهم عناصر فعالة في مجتمعهم في مستهل الألفية الثالثة؟

إن معالجة إشكالية الأسرة في علاقاتها بوظيفتها التنشئوية يطرح تساؤلاً أساسياً آخر يتعلق قبل كل شيء بالوضع المستقبلي لهذه الخلية المجتمعية، في ظل التغيرات والتحولات الراهنة والقادمة، التي ما فتئت تعيشها مختلف مجتمعات العالم، التي عمل التقدم العلمي على تضييق المسافة بين شعوبها.

إن الملاحظين يرون أن التغيرات التي سوف تطال المجتمع في السنوات القادمة سوف لا تقتصر على الجامعات ومراكز البحث العلمي والمصانع والأسواق ووسائل الاتصال وإنما ستمتد لتصل إلى العلاقات الاجتماعية، بدءاً من المجتمع وامتداداً إلى الأسرة، حيث تصيبها بتوترات واضطرابات لم تعرفها من قبل. ومن هنا يحق لنا التساؤل عما إذا كانت الأسرة ستظل كما قيل عنها 'العملاق الممتص للصدمات' في المجتمع. فالأسرة كثيراً ما اعتبرت واحة الأمن والأمان وبمثابة الرحم الاجتماعي الذي يعود إليه الأفراد عادة لتضميد جراحهم والتداوي من جراء آلام ومعاناة وضغوط العالم وصدماته ليجدوا تحت سقفها مناخاً عاطفياً دافئاً ومتميزاً. فكيف يمكن لهذه الخلية الاجتماعية الأولية أن تقوم بمهامها التربوية في ظل التحول وهي الخلية التي تقترب من نقطة الانقراض في نظر بعض الباحثين إن لم تكن قد ماتت بالفعل في نظر الآخرين، أو على الأقل لم يبق لها سوى وظيفة التنشئة في السنوات الأولى من حياة الطفل؟ ولنا حق التساؤل كذلك عن إمكانية استمرار متانة الرابطة الدموية الأساسية التي كانت تربط إلى وقت قريب أفراد الأسرة فيما بينهم، وخاصة علاقة الأبناء بآبائهم، فتوجد نوعاً من الالتحام الذي يربط بين أفراد الأسرة تحت سقف واحد. فهل ستظل تلك الرابطة بنفس المتانة والقوة والقدسية والاحترام مع بزوغ تكنولوجيا الإنجاب وقدرة التحكم في جنس المولود، وتصميم درجة ذكائه وتحديد ملامح شخصيته بكيفية مسبقة، بل وظهور

أسواق أو معارض مفتوحة لعرض الأجنة واختيار المناسب منها؟ لقد أصبح بوسعك الآن تحديد مواصفات معينة لطفلك المقبل، وبوسعك إذا وجدت فيه مواصفات مرغوبة أن تحتفظ لك منه بنسخ عديدة. إن هذا الوضع يفرض التساؤل عن مآل الأمومة والأبوة وأدوارها البيولوجية والإنسانية بعد انتشار أطفال الأنابيب في المعامل وماذا سيحدث لولاء الاحترام الذي يوليه عادة الأبناء للآباء، خاصة بعد إدراك الأسرية سوف تتغير بدون شك في ظل هذه التغيرات المذهلة التي قادت إليها الاكتشافات العلمية في ميدان الهندسة الوراثية وعلم الأجنة.

وإذا سلمنا بتعرض السلطة الوالدية للاهتزاز أمام التطور الحاصل في البيولوجيا، وبخاصة في الهندسة الوراثية وعلم الأجنة، فإن ما نلاحظه كذلك هو بداية انفلات السلطة العلمية والثقافية من يد الأسرة أمام الانفجار المعرفي الذي أوجدته تكنولوجيا المعلومات ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي تقوم بتعميد الأطفال والشباب عن طريق بث قيمها المختلفة عبر وسائلها وميكانيزماتها المحكمة. وهي بالطبع قيم جد مختلفة عن قيم الأسرة.

إن كل هذه المعطيات لا بد أن نأخذها بعين الاعتبار ونحن نتساءل عن وضعية الشباب في مستهل الألفية الثالثة. إن هذا الوضع الجديد الذي يهدد الأسرة في الدول الصناعية وإن كان وضعاً لا يمس حالياً الأسرة العربية كثيراً باعتباره أمراً بعيداً عنها، فإن علينا أن نتهيأ له ونعد أنفسنا لعلاقات وروابط جديدة، خاصة ونحن لا نزال في سعة من أمرنا، بحيث نهتم بوجه خاص بأهمية الخلية الأسرية وتلاحم أعضائها والحفاظ على القيم الإنسانية والفكرية والدينية

لمجتمعنا ولهويتنا، وسط هذه الأمواج الصاخبة التي تموج بها الحياة المعاصرة وهي تندفع نحو المستقبل اندفاع العواصف التي تقتلع الجذور.

وضعية الأسرة في المجتمعات العربية المعاصرة: إن المتفحص في الوقت الراهن لوضعية الأسر في العالم العربي، وهي تستقبل القرن الحادي والعشرين، تخجله نتائج الإحصائيات التي يراها؛ إذ إن الأمية بمختلف أشكالها لا تزال متفشية فيها بشكل كبير. فالأمية الأبجدية تبلغ 41% في صفوف الرجال و 65% في صفوف النساء. أما الأمية الثقافية فهي أكبر من ذلك بكثير؛ فهي تشمل 80% من الجنسين معاً. في حين نجد الأمية التكنولوجية تكاد تغطي جميع السكان، فهي تقارب 99%.

إن مناسبة ذكر هذا الأمر أن علماء النفس لا يفصلون عادة بين نمو الشخصية ومجتمعها المحلي الذي تكونت فيه، كما لا يفصلون الأزمات المتعلقة بالهوية في حياة الفرد والأزمات المعاصرة في التطور التاريخي، فكل منهما يساعد في تعريف الآخر وينتمي إليه. وتشكل الأسرة الوحدة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الشخص، مما يجعل الطريقة التي يتفاعل بها أعضاؤها معه ونوع العلاقات التي يجدها في حضنها تمثل النماذج التي ستشكل وفقا لها تفاعلاته وعلاقاته الاجتماعية، وهي أيضا أساسية في تشكيل أفكاره. إن العديد من أساليب التنشئة في الأسرة العربية تنقصها آليات التعامل مع حاجات العصر ومتطلباته بسبب نقص التوعية في صفوف الآباء والأمهات. ونتيجة ذلك ما نراه من مواقف واتجاهات لدى العديد من الشباب، كالتمسك بالقيم المادية والتواكل ونقص روح المبادرة لديهم، كما تؤكد بعض الأبحاث. ففي دراسة ميدانية تمت على عينة من

الخريجين من الجامعات المغربية اتضح لدى معظمهم الرغبة في الحصول على وظائف حكومية عوض تفضيل الأعمال الخاصة التي تقتضي الاعتماد على النفس وروح المبادرة. وفي سؤال إذاعي طرح على المستمعين من الشباب الخليجي حول ما يفضلون أخذه معهم لو اتيح لهم القيام برحلة إلى أحد الكواكب، لم يكن من بين المستمعين المتصلين بمنسق البرنامج لمدة ساعة ونصف من أجاب بأنه سيأخذ معه أدوات علمية أو القيام بالتأكد من أحد الفروض العلمية، وإنما كان معظم الشباب يجيب بأنه سيأخذ معه دعاء والدته في مسجل أو صورة حبيبته... الخ، مما يعكس لنا مشاغلهم واهتماماتهم.

وكانت النتائج مماثلة عندما طرح على مجموعة من المراهقين سؤال عما يمكن ان يفعلوه بمقدار مالي كبير رجوه. فقد كانت إجابات العديد من الشباب شراء سيارة وبناء منزل فخم وفتح حساب في البنك... الخ، فلم تذهب بعينة البحث طموحاتهم بعيداً عن تحقيق الرغبات المادية؛ إذ لم يتم التفكير مثلا في القيام برحلات مغامرة في القطب الشمالي أو على سفوح جبال الهملايا أو إلى أحد الكواكب... الخ.

إننا في مستهل الألفية الثالثة نلحظ معايشة أنظمة أسرية متنوعة ومختلفة في بنيتها وتكوينها، مما يؤثر إيجاباً أو سلباً على تنشئة أجيال مختلفة في قيمها ومبادئها وتكوينها. والسؤال الأساسي الذي يفرض نفسه هو التساؤل عن تأثير التغيرات التي ستحدثها العولمة الزاحفة على شباب المجتمعات العربية وهي تنوء تحت ثقل العديد من المشكلات الاجتماعية والثقافية والتعليمية التي تعوق تطورها وتقدمها، وفي الوقت نفسه تجرفها التغيرات السريعة التي لا تهضمها ولا تستوعبها بالكيفية

المطلوبة. وهنا نتساءل عن الدور الذي يمكن ان تلعبه المؤسسات التربوية والتعليمية – والأسرة أهمها – ما دامت قد أسست لغرض إعداد الشباب وإدماجهم في المجتمع الذي يهيئون له.

الهوية الثقافية

الهوية الثقافية تعبير عن الحاجة إلى الاعتراف والقبول والتقدير للإنسان كما هو في تفرده وتميزه. ففي الهوية الثقافية تشتغل جدلية الذات والآخر وتعيد كل جماعة بشرية تأويل ثقافتها من خلال اتصالاتها الثقافية، أو قد تنزع نحو المثاقفة او التثاقف Acculturation وما شابه ذلك. وهي كذلك كائن اجتماعي حي يتحول ويتغير من الداخل في ضوء تغير المصادر القيمية والسلوكيات، ومن الخارج بفعل أشكال التأثير الخارجي الناتج عن علاقة الفرد بالبيئة. وهي كذلك كيان ينشأ ويتطور، وليست معطى جاهزاً ونهائياً. إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها سلباًوإيجاباً مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما.

لا تكتمل الهوية الثقافية، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن والأمة والدولة.

الهوية الثقافية العربية: مبادئ أولية حول ترسيخ الانتماء ودعم مقومات الهوية العربية.

إن الثقافة العربية هي المتبقي الوحيد الآن كجامع مشترك بين العرب، والخطر عليها كوجود ليس فقط حصيلة ما يحدث الآن في بعض الأقطار العربية، كما أن هذا الخطر لم يبدأ فقط مع وجود الاحتلال الأوروبي للمنطقة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بل هو بدأ مع سقوط الريادة العربية للعالم الأسلامي، وتسلم السلطة العثمانية لدور كان أولى بالعرب الحفاظ عليه فأخذه منهم الجيش الانكشاري.

الشبـاب

مفهوم الشباب من اكثر المفاهيم عمومية وانتشاراً في الاستعمال اللغوي، وهو لا يدل على مرحلة معينة من العمر فحسب، وإنما يحمل معه أيضاً معاني إيجابية؛ فهو يوحي إلى جانب ما يوحي به من معنى العمر، بمعنى القوة والفتوة والشجاعة والأمل وحب الجديد. ويرادف مفهوم 'الشباب' مفاهيم أخرى مثل مفهوم 'المراهقة' ومفهوم 'البلوغ'؛ غير أن لكل من هذه المفاهيم مجال استخدامه الخاص. تشكل فئة الشباب نسبة كبيرة في المجتمعات المعاصرة؛ فهم يكوّنون نسبة عالية في التعداد العام للسكان، باعتبارهم يشكلون فئة عمرية اجتماعية محددة. ولعل الزيادة في نسبتهم العامة إلى عدة عوامل منها:

1- الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية التي أصبحت متوفرة للفرد سواء قبل ولادته أو بعدها.

2- فض العديد من المنازعات والصراعات بين الشعوب بالطرق السلمية، مما قلل من هول الحروب وويلاتها التي كانت سبباً يودي بحياة العديد من الشباب.

3- تقدير المجتمع وتثمينه للثروة البشرية المتجسدة في الشباب بوجه خاص، لما يمثلونه من مورد هام في النهوض بالمجتمع وتطوره.

لأجل هذا نجد أن نسبة الشباب ضمن التعداد العام للسكان ما فتئت تزداد وتنمو بسبب الانفجار الديموغرافي وبسبب الرعاية الصحية المتوفرة. فحسب إحصائيات اليونسكو هناك ما يربو على 50% من سكان المجتمعات السائرة في طريق النمو دون سن العشرين، في حين لا تزيد هذه النسبة على الثلث في المجتمعات الصناعية.

كما يؤكد بعض الاحصائيات أن هناك 1.2 بليون شخص تتراوح أعمارهم بين 10سنوات و24سنة؛ أي ما يقارب خمس سكان العالم، حوالي 80% منهم في دول العالم النامي.

إذا كانت نسبة الشباب بهذا الحجم الكبير، فكيف يتم تكوينها وإعدادها في المؤسسات التربوية في الدول العربية، لكي تستطيع مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين؛ هذا القرن الذي يتميز بخصائص ومميزات جديدة لم تعرفها الإنسانية من قبل؟

يتسع مفهوم الشباب للعديد من الاتجاهات التي أبرزها:

- الاتجاه البيولوجي: وهذا الاتجاه يقوم على أساس الحتمية البيولوجية باعتبارها مرحلة الشباب مرحلة عمرية او طوراً من أطوار نمو الإنسان فيه يكتمل نضجه العضوي وكذلك نضجه العقلي والنفسي. وتبدأ هذه المرحلة من سن 15-25سنة، وهناك من يحددها من سن 13-30.

- الاتجاه السيكولوجي: يرى هذا الاتجاه أن الشباب حالة عمرية تخضع لنمو بيولوجي من جهة ولثقافة المجتمع من جهة أخرى. وتبدأ هذه المرحلة من سن البلوغ، وتنتهي بدخول الفرد إلى عالم الراشدين الكبار، حيث تكون قد اكتملت عمليات التطبيع الاجتماعي. وهذا التعريف يحاول الدمج بين الاشتراطات العمرية والثقافة المكتسبة من المجتمع.
- الاتجاه الاجتماعي: ينظر هذا الاتجاه للشباب باعتباره حقيقة اجتماعية وليس مجرد ظاهرة بيولوجية؛ بمعنى أن هناك مجموعة من السمات والخصائص التي إن توافرت في فئة من السكان عُدّت هذه الفئة من الشباب.

وتعتبر مرحلة الشباب من اهم المراحل التي يمر فيها الفرد، حيث تبدأ شخصيته بالتبلور. وتتضح معالم هذه الشخصية من خلال ما يكتسبه الفرد من مهارت ومعارف، ومن خلال النضوج الجسماني والعقلي، والعلاقات الاجتماعية التي يستطيع الفرد صياغتها ضمن اختياره الحر. وإذا كان معنى الشباب أول الشيء، فإن مرحلة الشباب تتلخص في أنها مرحلة التطلع إلى المستقبل بطموحات عريضة وكبيرة.

أما سمات الشباب وخصائصهم في هذه المرحلة، فهي عديدة وإن كانت هناك خاصتان أساسيتان للشباب بشكل عام، وهما:

1. أن الفرد اجتماعي بطبعه، وهذا يعني الميل الطبيعي للانتماء لمجموعة اجتماعية يعطيها وتعطيه.

2. أن الفرد طاقة للتغيير والتشكيل.

أما الخصائص والمميزات الأخرى للشباب فهي:

1. طاقة إنسانية تتميز بالحماسة والحساسية والجرأة والاستقلالية وازدياد مشاعر القلق والمثالية المنزهة عن المصالح والروابط.

2. فضول وحب استطلاع؛ فالفرد في هذه المرحلة يبدو دائم السؤال والاستفسار في محاولة منه لإدراك ما يدور من حوله والإلمام بأكبر قدر من المعرفة المكتسبة مجتمعيا.

3. بروز معالم استقلالية الشخصية، والنزوع نحو تأكيد الذات.

4. الفرد في مرحلة الشباب دائما ناقد، لأنه ينطلق من مثاليات أقرب إلى الطوباوية، ونقده يقوم على أساس أن الواقع يجب أن يتطابق مع تفكيره المثالي.

5. عدم القبول بالضغط والقهر مهما كانت الجهة التي تمارس هذا الضغط سواء كانت سلطة أو أسرة وهذا السلوك جزء من العنفوان الداخلي للشباب والاعتداد بالنفس وعدم الامتثال للسلطة كتوجه تقدمي.

6. درجة عالية من الديناميكية والحيوية والمرونة والمتسمة بالاندفاع والانطلاق والتحرر والتضحية.

7. بدء التفكير في خيارات الحياة والمستقبل مثل الزواج، والتعليم، والعمل، والثروة.

8. اضطراب اتزان الشخصية وارتفاع مستوى توترها، حيث يصبح الشباب معرّضين لانفجارات انفعالية متتالية واختلال علاقاتهم الاجتماعية مع الأسرة والأصدقاء وغيرهم.

9. القدرة على الاستجابة للمتغيرات المحيطة، وسرعة الاستيعاب، وتقبل الجديد المستحدث وتبنيه والدفاع عنه، الأمر الذي يعكس قناعة الشباب ورغبتهم في تغيير الواقع الذي يعيشونه وإن لم يشاركوا في صنعه.

ويمكن تقسيم الشباب اعتمادا على ثلاثة أسس على النحو التالي:

1. فئة الشباب المتعلم والمثقف ذي الخبرة، وهذه الفئة تصنف على أنها فئة قيادية.

2. فئة الشباب الواعي، وهي تلك الفئة التي تلم بقدر من الثقافة والتعليم وتمتلك بعض الخبرات، لكنها من ناحية النشاط والفعل المباشر تبدو خاملة بحيث لا يتوازى نشاطها مع إمكاناتها. وجزء من هذه الفئة فاعل ونشط ويمكن أن يتقاطع مع الفئة الأولى.

3. فئة الشباب التابع، وهي فئة واسعة وعريضة ولكنها تتصف بتدني الوعي والتعليم وانعدام المبادرة؛ فأفراد هذه الفئة يشاركون في النشاط، ولكنهم لا يبادرون إلى فعله بل ينتظرون من يقودهم ويوجههم إليه.

مشكلات الشباب

يواجه الشباب أنماطاً متعددة من المشكلات؛ أبرزها المشكلات الأسرية والاجتماعية وقد تكون هذه المشكلات فوق طاقة الشباب وتحملهم فتترتب عليها اضطرابات نفسية حادة أو تمزق في الروابط الأسرية والاجتماعية.

وترجع هذه المشكلات إلى أسباب عديدة منها:

- ضعف الروابط الأسرية نتيجة التفكك الأسري الناجم عن الهجر بين الزوجين أو الطلاق أو تعدد الزوجات أو إيثار بعض الأبناء على الآخرين أو الخلافات المستمرة بين الوالدين.
- التسلط الأبوي أو ضعف التنشئة الاجتماعية.
- ضعف الرقابة على الأبناء من قبل الوالدين او اللامبالاة من جانبهم في التوجيه والإرشاد والنصح وانعدام المسؤولية لإرشاد الشباب إلى السلوك السويّ وتوضيح الخير والشر لهم.
- البعد الاجتماعي والنفسي بين الوالدين والابناء، وعدم احترام الحرية الشخصية للشباب، وعدم ترك المجال للشباب للتعبير عن آرائهم، والسخرية والازدراء أمام الإخوة الصغار أو الكبار مما يتبعه نفور الابناء.
- الإغداق على الأبناء والمسارعة إلى تلبية طلباتهم في شراء الحاجيات مثل السيارات أو السفر بمفردهم إلى خارج البلاد. وكثيرا ما يتم ذلك تعويضاً عن الإهمال الناجم عن انشغال الوالدين عن الأسرة.

- ترك مهمة التربية والتوجيه للخدم والمربيات.

والجدير بالذكر أن المشكلات آنفة الذكر ينجم عنها التمرد على الأسرة، والرغبة في التحرر من التبعية، والرغبة في تحقيق الذات، والميل إلى تحقيق الاستقلال العاطفي وخاصة عند الاقتراب من النضج واكتمال النمو، حيث يدل ذلك على تأكيد الذات ومقاومة السلطة في إصدار الأوامر والنواهي.

ومن صور التمرد على الأسرة الرفض الدائم لتوجيهات الآباء والإصرار على العصيان ومخالفة رأي الآباء.

وقد يكون في الصمت ما يفيد التمرد السلبي.

ومن أمثلة التمرد على سلطة الوالدين:

- رفض مواصلة التعليم، أو عدم طاعة الوالدين عن اختيارهما توجُّها تعليماً معيناً أو تخصصاً دراسياً معيناً عند اتمام المرحلة المتوسطة أو الثانوية حتى لو كان التخصص في مصلحة الابن او كان معدله يؤهله لذلك وقد يحدث تمرد الابن في مثل هذه الحالة رغبة منه في تأكيد ذاته وإثباتها.
- الرفض لنوع معين من الطعام أو عدم الرغبة في مشاركة الأسرة تناول الطعام أو الاحتجاج على موعد تناول الطعام. والأبن إنّما يفعل ذلك كله لكي يؤكد ذاته وأهميته بين أفراد الأسرة.
- الهرب من الأسرة، تعبيراً عن الضيق والضجر من رقابة الوالدين، والرغبة في التطلع إلى التمرد والاستقلال.

ومن المشكلات الاجتماعية التي تواجه الشباب:

- الانضمام إلى رفاق السوء ومحاولة تقليدهم.
- غياب القيم الأخلاقية.
- عدم توافر القدوة الحسنة.
- كثرة أوقات الفراغ.
- انفصال الوالدين.

القيـــم

مفهوم القيم

يواجه الباحثون عددا من الاسئلة الفكرية والمنهجية عنـد دراسـة المفـاهيم النفسية والتربوية، ومنها مفهوم القـيم. ومـن أبـرز الأسـئلة: مـاذا نعـني بمـصطلح القيم، وهل القيم نسبية أم مطلقة، ثابتة أم متغيرة، وهل القيمة مفهـوم فلـسفي أم خاضع للملاحظة والقياس، وما قياسه...؟

وتتجسد إشكالية مفهوم القيم في وجود تعريفات متعددة متباينـة إلى الحـد الذي زاد من غموض هذا المفهوم أكثر مما زاد من فهمنا له.

فهناك التعريفات النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتـصادية والتربويـة، مما أدى إلى تشعب معاني القيم واتساعها إلى درجة أطلق معها توفلر Tofler علـى هذا المفهوم وصف الطفل غير السعيد الذي يعاني من بؤس وشقاء عدم علمنا بـه (حسين، 1981م).

ولعل الغموض الذي يكتنف هذا المفهوم يعود إلى مجموعـة مـن العوامـل منها ما يلي:

- تناول هذا المفهوم لفترة طويلة في إطار غير منهجي، واسـتتبع ذلـك إثـارة العديد من وجهات النظر التأملية الفلسفية التي تأثر بها عدد من المفكـرين الذين تطرقوا لهذا المفهوم فيما بعد.

- تعدد العلوم التي تناولت هذا المفهوم واختلافها؛ فهناك علم النفس وعلم الاجتماع والتربية والسياسة والاقتصاد وغيرها، التي عرفت هذا المفهوم في أطر فكرية متباينة تعكس اختلافاً واضحاً في تعريفه.
- الاتجاه الفكري الذي ينتمي إليه الباحث داخل كل علم؛ فهناك نظريات في علم الاجتماع وفي علم النفس (التحليلية والسلوكية والمعرفية) تناولت القيم من منظورها الفكري الخاص بها.
- التداخل والتفاعل بين مفهوم القيم من ناحية ومفاهيم أخرى مثل مفاهيم الاهتمام والميول والاتجاه من ناحية أخرى.

المعنى اللغوي للقيم

القيمة لغةً واحدة القيم، واستخدمت لمعرفة قيمة الشيء. فقيمة الشيء قدره، وقيمة المتاع ثمنه، والقيمة ثمن الشيء بالتقييم. وفي 'القاموس المحيط' قيمت السلعة أي ثمنتها، وفي 'المعجم الوسيط' قيّم الشيء تقييما أي قدره.

وقد استخدمت القيمة – أيضا – بمعنى التعديل والاستقامة والاعتدال؛ فقد قيل: قام الأمر أي اعتدل واستقام، وقام الحق أي ظهر واستقر، وقوّم المعوج أي عدله وأزال عوجه، والملة القيمة أي المعتدلة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (التوبة: 36)؛ أي المستقيم والمقوم لأمور الناس.

وقال تعالى: ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ ﴾ (البينة:2-3)؛ أي ذات قيمة رفيعة. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (الانعام: 161)؛ أي مستقيما لا عوج فيه.

وقد استخدمت بمعنى العدل حيث يقال: القوام (بفتح القاف) العدل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: 67).

المعنى الاصطلاحي للقيم

إن نظرة فاحصة على ما قدم من تعريفات للقيم توضح أنّ الباحث يجد نفسه أمام رؤى مختلفة لمفهوم القيمة تختلف تبعا للمجال المعرفي الذي يتناول هذا المصطلح. ويمكن تصنيف هذه التعريفات في فئات هي:

أولاً: تعريفات تتعامل مع القيم من خلال مؤشر الفعل والأنشطة السلوكية.

تقوم هذه التعريفات على فكرة أن المؤشر الرئيس للقيم هو السلوك؛ فالقيم التي يتبناها الأفراد عوامل محدّدة لسلوكهم. فعندما يؤدي أو يختار المرء سلوكاً معيناً مفضلاً إياه على سلوك آخر، فإنه يفعل ذلك وفي ذهنه أن السلوك الأول إنما يساعده في تحقيق بعض قيمه افضل من السلوك الآخر. فعلى سبيل المثال فإن من يتبنى قيمة 'الإيثار' يسلك سلوكاً واضحاً باتجاه مساعدة الناس وتقديم العون لهم ولا يحجم عن مساعدتهم، واختيار السلوك الأول 'مساعدة

الآخرين وتفضيله على الثاني وهو الإحجام عن مساعدتهم إنما يعكس قيمة موجودة في البناء المعرفي للفرد. وفي ضوء هذا الاتجاه يعرف زيرتشر (Zurcher, 1965) القيم بأنها: التزام عميق من شأنه أن يؤثر على الاختيارات بين بدائل للفعل؛ فاحتضان قيم معينة من جانب الأفراد إنما يعني بالنسبة لهم أو بالنسبة للآخرين (توقعاً) ممارسة لأنشطة سلوكية معينة تتسق مع ما لديهم من قيم.

ويقترب كيرت ليفين Kurt Levin من هذا التوجه؛ فالقيمة عنده – ولتكن قيمة العدالة مثلا – ليس لها وجود عياني يتجه صوبه الفرد لكي يحصل عليها، ولكن العدالة كقيمة تقف عنصر توجيه لسلوك من يتمثلها كقيمة نظراً لتحديدها لنوع الأنشطة السلوكية ذات الخصائص الإيجابية وتلك ذات الخصائص السلبية لفرد ما في موقف معين (حسين، 1981م).

وعلى الرغم من كفاءة المنظور الذي يرى في الأنشطة السلوكية مؤشراً للقيم، فقد تعرض هذا المنظور لانتقادات منها: أنّ السلوك الصادر عن الفرد في المواقف الاجتماعية لا يعبر بالضرورة عن قيم يتمثلها الفرد، بقدر ما يكون دالة لما حددته الثقافة على أنه سلوك مرغوب فيه، أضف إلى ذلك أن السلوك البشري تحدده متغيرات اجتماعية ونفسية كثيرة – إضافة إلى القيم – مما يتعذر معه تعميم أنّ هذا السلوك دالة للقيم التي يتبناها الفرد (بغاغو، 1996م).

ثانياً: تعريفات تتعامل مع القيم من خلال مؤشر الاهتمامات والاتجاهات

تقوم هذه التعريفات على فكرة أن المؤشر الرئيس للقيم هو الاهتمامات والاتجاهات؛ فالقيم عند الأفراد إنما هي اهتمامات أو اتجاهات حيال أشياء أو

مواقف أو أشخاص. والفرد بحكم وجهة النظر هذه إنما يعايش قيمة من القيم من خلال علاقته بشيء أو اشياء تثير اهتمامه أو رغبته أو من خلال خبرة وجدانية. والقيم التي يتبناها الفرد تملي عليه مجموعة من الأحكام القيمية Valuc Judgements يستند إليها هذا الفرد في اختياراته من خلال منطق ما ينبغي أن يكون، وهي تصورات من شأنها أن تؤدي إلى سلوك تفضيلي.

وفي ضوء هذا المنظور، يرى براي بروك (Bray Brok, 1969) أن القيم عند بعض الأفراد تعني أن لديهم اتجاهات إيجابية حيال بعض جوانب الحياة، وأخرى سلبية تجاه بعضها الآخر؛ بمعنى أن الأفراد بحكم ما لديهم من قيم مهيأون لاختيارات معينة دون غيرها من البدائل؛ إذ تكشف القيم هُنا عن نفسها من خلال اختيار بديل من بين بدائل يترجم هذه القيمة المحتضنة.

أما كريستش وكريتشفيلد (Kretch and Kretchfield, 1962) فهما يريان أن القيمة معتقد يتعلق بما هو جدير بالرغبة؛ ذلك المعتقد الذي يملي على الفرد مجموعة من الاتجاهات المعبرة عن هذه القيمة.

فالفرد الذي يتبنى قيمة (العين بالعين والسن بالسن) إنما يكشف عنها من خلال بعض الاتجاهات المعينة مثل الاتجاه نحو عقوبة الإعدام. ويعرف هاتشنسون Hutchinson القيمة من منظور الاهتمام بأنها شيء أو موضوع يسعى إليه الفرد بجدية نظرا لما يمثله هذا الشيء أو هذا الموضوع من قيمة أو أهمية بالنسبة له، وهي تتصف بخاصيتين هما:

1- انتظامها في بناء الشخص نفسه بحيث تحتل الصدارة فهي:

- توجه اهتمام الشخص وشواغله الأخرى.
- تمثل الإطار المرجعي لتقييمات الشخص المختلفة.
- توجه الفرد في تعامله مع جوانب الحياة المختلفة.
- تحتل جزءاً مهماً في البناء المعرفي للفرد؛ فلا شيء يفعله الفرد إلاّ وهو متصل بها.

2- اصطباغها بصبغة وجدانية تنتهي بالفرد إلى تقديس كل ما هو موضع قيمة (حسين، 1981م).

ولا يخلو هذا المنظور من بعض الانتقادات؛ فالاتجاه المعبر عنه لفظياً لا يعبر بالضرورة عن القيم التي يتبناها الفرد بقدر ما يعكس القيم السائدة المرغوبة في البيئة أضف إلى ذلك أن اتجاهات الفرد والجماعة تتأثر بالمتغيرات الثقافية مما يجعل الاتجاهات لا تعبّر بالضرورة عن القيم (بغاغو، 1996م: 82).

ثالثاً: تعريفات تتعامل مع القيم من خلال مؤشري الاتجاهات والأنشطة السلوكية.

تقوم هذه التعريفات على فكرة الجمع بين الاتجاهات والسلوك كمؤشرات للقيم. ويُعتبر رايش (Reich, 1976) أحد ممثلي هذا الاتجاه؛ فهو يرى أن الاتجاهات والفعل هي نتاج توجهات القيم. فالفرد الذي يتبنى قيمة المساواة بين الناس مثلاً إنما يعني ضمنياً:

- اتجاهاً إيجابياً حيال الزنوج والسلوك بشكل يتسق مع هذا الاتجاه.
- اتجاهاً إيجابياً حيال المرأة والسلوك بشكل لا يتعارض مع ذلك.

وفي إطار هذا المفهوم، يندرج تعريف ريشر للقيم؛ ففي رأيه تكشف القيم عن نفسها إما من خلال التعبير اللفظي عن وجهات نظر مختلفة أو من خلال ما يصدر عن الفرد من سلوك في المواقف المختلفة.

ويرى جيلفورد (Guilford, 1971) أن القيمة تظهر من خلال السلوك وما ينطوي عليه من إقدام أو إحجام عن أنشطة معينة أو من خلال ما يعبر عنه الفرد من تفضيل لجوانب معينة من الحياة (حسين 1981).

ومن الباحثين العرب من أخذ بهذا الاتجاه، حيث يعرف عبد العال (1976م) في رسالته للدكتوراه القيم بأنها "مفهوم يدل على مجموعة من الاتجاهات المعيارية "المركزية" التي تتكون لدى الأفراد في المواقف الاجتماعية، فتحدد له أهدافه في الحياة التي تتضح من خلال سلوكه العملي أو اللفظي.

ويعرف كاظم القيم بأنها "أهداف يسعى إليها الفرد بغية تحقيقها، وهي في وقوفها كأهداف تمثل مرجعاً للأفراد للحكم على أنماط سلوكهم وتحدد من خلالها أهدافهم في ميادين كثيرة من الحياة، ويعبر عنها صراحة من خلال الألفاظ والعبارات أو بشكل ضمني من خلال ما يصدر عن الفرد من سلوك.

ومهما يكن من أمر هذه التعريفات، فإن هناك قدراً من الاتفاق على أن:

1- القيم تمثل أحكاماً معيارية يتم بمقتضاها تقييم سلوك الأفراد والجماعات وتحديد ما هو مرغوب أو غير مرغوب.

2- القيم تمثل توجهاً إيجابياً أو سلبياً حيال بعض الأشياء أو المواقف، وهذا يعني أن مفهوم القيمة يحمل خصيصة الانتقائية، حيث تكشف هذه الخصيصة عن نفسها من خلال الاختيار بين بدائل أو تفضيل سلوك على آخر.

3- القيم تمثل أهدافاً معينة في الحياة يسعى الفرد إلى تحقيقها، وهي في وقوفها كأهداف تمثل إطاراً مرجعياً يحدد سلوكيات الفرد لتحقيق هذه الأهداف.

4- وزن القيمة وأهميتها يختلفان من فرد لآخر، وفي ضوء ذلك تمثل القيم المهمة وزناً نسبياً أكبر في نسق القيم، في حين تمثل القيم الأقل أهمية وزناً نسبياً أقل في هذا النسق؛ بمعنى أن ترتيب القيم يختلف حسب أهميتها من فرد إلى آخر ومن مرحلة عمرية إلى أخرى.

5- القيم التي يتبناها الفرد تنتظم مع بعضها لتشكل منظومة قيمية أو نسقاً قيمياً، وهذا النسق ليس نسقاً ستاتيكياً جامداً بل نسق يتسم بالديناميكية. وخصيصة الديناميكية هذه تكشف عن نفسها في إمكانية تغير القيم أو توزيعها أو ترتيبها حسب أهميتها وفقاً لمتغيرات متعددة.

6- القيم التي يتبناها الفرد تكشف عن نفسها إما من خلال التعبير اللفظي الصريح أو من خلال الأنشطة السلوكية التي تصدر عن الفرد في المواقف المختلفة.

اهمية القيم

قد يتساءل بعضهم: لماذا الاهتمام بالقيم؟

إن للقيم دوراً أساسياً في حياة الأفراد والجماعـات والمجتمعـات إلى درجـة أصبحت معها القيم قضية التربية؛ ذلك أن التربية في حد ذاتها عملية قيمية. فالقيم هي التي تحدد الفلسفات والأهداف والعمليات التعليمية، وتحكم مؤسسات التربية ومناهجها؛ إذ هي موجودة في كل خطوة وكل مرحلة وكل عملية تربوية، وبدونها تتحول التربية إلى فوضى عارمة.

ويرى كثير من الباحثين أن مظاهر الاضطراب في المجتمعات المعاصرة يمكن ان تعزى إلى غياب الالتزام بنسق قيمي متسق يحـدد سـلوك الأفـراد وتوجهـاتهم. ويصدق هذا على كل المجتمعـات متقدمـة كانـت او ناميـة شـرقية أو غربيـة. فقـد وصف ماسلو Maslow أحد علماء النفس الأمريكيين العـصر الحـالي بأنـه عـصر انعـدام المعـايير، وعـصر الفـراغ، وعـصر بـلا جـذور، يفتقـد فيـه النـاس الأمـل، ويعـوزهم وجـود مـا يؤمنـون بـه ويـضحّون مـن أجلـه (عبـد الحلـيم، 1999م:10).

ومن أهم دواعي الاهتمام بالقيم ما يتعرض له المجتمـع العربـي مـن غـزو وتذويب قيمي وثقافي مقـصود أو غـير مقـصود أفقـدنا القـدرة علـى المقاومـة أو المسايرة الهادفة، فاهتز كياننا، واضطرب سلوكنا، واختلـت معاييرنـا (القـيم) الـتي كانت توجه سلوكنا وأفكارنا وأقوالنا في الاتجاه الصحيح، الأمر الذي يفرض علينا

العودة إلى الاهتمام بالقيم وصولاً إلى بناء نسق قيمي يجسد هويتنا القومية ويحفظ لنا ذواتنا ويحقق لنا وجوداً متميزاً فاعلاً كما كان الأمر في السابق.

إن دراسة القيم بشكل منهجي موضوعي هادف والانتقال من مستوى التنظيم إلى مستوى التطبيق وتعليمها للناشئة أصبح أمراً ملحاً وهو فريضة على كل المعنيين المهتمين بالتنشئة الاجتماعية، وذلك لما للقيم من أهمية في حياة الأفراد والشعوب.

أهمية القيم بالنسبة للفرد

تتحدد شخصية الفرد وسلوكه تبعاً لمحددات بيولوجية ونفسية واجتماعية، ولا شك في أن القيم أهم المكونات الاجتماعية للشخصية؛ فهي:

1- تساعد في بناء حياة الفرد وتشكيل شخصيته وتحديد غاياته وأهدافه ووسائل تحقيق هذه الغايات والأهداف.

2- معيار تفضيلي يمثل إطاراً مرجعياً يحكم تصرفات الإنسان في حياته العامة والخاصة (حنورة وآخرون: 194)، ومن ثم فهي تعمل على ضبط سلوكه وتوجيهه. فالأمانة قيمة إذا تبناها الفرد وجهت سلوكه ضد الغش، والصبر قيمة توجه السلوك نحو تحمل الشدائد ومقاومة الضعف البشري. ومما يدل على أن للقيم أثراً في السلوك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن

الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كـذاباً.
فالحديث الشريف يشير بوضوح إلى ان الصدق كقيمة إيجابية يقود إلى البر، وأن الكذب كقيمة سلبية يقود إلى الفجور الذي يفضي بالإنسان إلى النار.

3- تمثل القيم أحكاماً معيارية Normative Standards ؛ فهي معـايير يعتمـدها الفرد في تقييم سلوكياته وسلوكيات الآخـرين، وفي الحكـم علـى الأفكـار والأشخاص والأعمال والمواقف من حيث كونها مرغوبـة إيجابيـة أو غـير مرغوبة سلبية.

4- تعمل القيم على وقاية الفرد من الانحـراف؛ فـالقيم الدينيـة والاجتماعيـة التي يتبناها الفرد تحميه من الانزلاق في الخطأ لأنها تعمـل كعامـل وقـائي. وهي إلى جانب ذلك تعمل كعامل إنمائي لشخصية الفرد، حيث تمكنه مـن التكيف مع ضغوط الحياة ومصاعبها وتقيه من ثم من الإصابة بـالأمراض السيكوسوماتية وتمكنه من مواجهة الأزمات وتخفـف مـن وطأتهـا؛ فقيمـة الإيمان بالله والصبر على الشدائد مكنت بلال بن رباح وغيره من الصحابة من تحمل عذاب الكفار وقسوتهم.

5- تعمل القيم كموجهات لخيارات الأفراد أكثر ميلا أو تفضيلا لأيديولوجيـة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو حتى مهنية معينة.

6- تلعب القيم دوراً رئيساً في حل الصراعات واتخاذ القـرارات عنـد الأفـراد على اعتبار أن النظام القيمي مجموعة من المبادئ المتعلمة تـساعد الفـرد في اتخاذ قراراته وإنهاء صراعاته بما يحقق بعض قيمه.

أهمية القيم بالنسبة للجماعة والمجتمع

1- تحفظ للمجتمع تماسكه، وتحدد له أهدافه ومثله العليا ومبادئه الثابتة التي توفر له هذا التماسك ليتمكن من ممارسة حياة اجتماعية سليمة. لذلك حرص الإسلام على بناء مجتمع إسلامي تسوده القيم الفاضلة من تضحية وإيثار وتكافل وحب وتعاون قال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

2- تعمل القيم على ربط أجزاء الثقافة بعضها ببعض لكي تبدو متناسقة وتخدم هدفاً محدداً، كما تعمل على توجيه الفكر نحو غايات محددة؛ فأي فكر مهما كان علمياً وتقدمياً، لا يستطيع الارتقاء بالأمة إنْ لم يكن مرتبطاً بمنظومة القيم؛ إذ إن القيم تقوم في نفس الإنسان بالدور الذي يقوم به الربان في قيادة السفينة إلى هدف معلوم، وتلعب دوراً في اتخاذ القرار الصحيح (Reicher, 1969: 29).

3- تعمل القيم كموجهات لسلوك الأفراد والجماعات، وتقي المجتمع من الانحرافات الاجتماعية فلا يستقيم مجتمع بدونها، لأنه لو فقدها فقد أمنه وتماسكه وانتظام حياته على طريق العدل والخير. كما يتحقق بها انضباط الفرد والجماعة وتنظيم العلاقات في ضوء الأحكام القيمية المرعية؛ فإذا اختفت هذه القيم أو اختلت حلت الفوضى محل النظام والظلم محل

العدل والباطل محل الحق والكذب محل الصدق والخيانة محل الإخلاص (الشبلي 1999).

4- تؤلف القيم الإطار الأخلاقي لكل نشاط إنساني؛ فالقيم توجه هذه النشاطات نحو أهداف سامية. فقد أوضح 'غاندي' أن غياب القيم كعنصر توجيه للنشاط الإنساني ينتج عنه الدمار، وأن أي نشاط لا بد أن تغلفه القيم. فقد قال: 'معرفة بلا أخلاق، ولذة بلا ضمير، وسياسة بلا مبادئ، وتجارة بلا فضيلة، وثروة بلا عمل، وعلم بلا روح إنسانية تمثل تدميراً للنشاطات الإنسانية السابقة (الشبلي، 1999م).

5- تلعب القيم دوراً كبيراً في تنمية المجتمع؛ فالتنمية عمادها العقل والتخطيط والإبداع. والقيم العلمية المتمثلة في التفكير والتخطيط والطموح والاجتهاد وغيرها هي السبيل إلى تنمية المجتمع وازدهاره والارتقاء به إلى مصاف المجتمعات المتقدمة.

6- تلعب القيم دوراً مهماً على مستوى الإنسانية؛ فالقيم الإيجابية تدعو إلى تعاون المجتمعات ونبذ العنف والصراعات والتمييز العنصري. فالتعصب بأنواعه: السياسي والديني والطائفي مدخل لثورات سياسية واجتماعية وسبب لفتن وصراعات تفضي إلى دمار اقتصادي اجتماعي شامل.

معيار القيمة:

إن مصطلح 'القيمة' أتى إلى المجال الأخلاقي عن طريق الاقتصاد.

يرى الاقتصاديون الأوائل مثل آدم سميث Adam Smith ودافيد ركاردو David Richardo أن قيمة سلعة أو خدمة ما تعتمد على كمية العمل الذي تحتاجه السلعة لإنتاجها أو الخدمة لتقديمها، ثم جاء بعد ذلك من الاقتصاديين من يرى أنّ قيمة الشيء تتحدد بناءً على المنفعة التي يجنيها المستهلك من السلعة أو المستخدم من الخدمة، إلا أنّ الاقتصاديين الحاليين يحددون قيمة الشيء بناءً على العرض والطلب.

ويعني ذلك أن القيمة هي قدرة الشيء على تحقيق نفع لمن يستخدمه، أو قابلية الشيء للتبادل بشيء آخر على أساس معدل معين أو نسبة محددة بينهما.

والمعنى الأول إنما ينصرف إلى قيمة الاستعمال، أما الثاني فالمقصود به المبادلة.

ويعرّف ريبو القيمة بأنها قدرة الشيء على إثارة الرغبة، ويرى أن القيمة تتناسب مع قوة الرغبة التي تثيرها. وهذا في الحقيقة تعريف اقتصادي.

ويمكن أن نقول إن للقيمة اتجاهين هما:

1- القيمة المادية، وهي التي تسير على قواعد الاقتصاد، وهي بمعنى السلعة والتبادل والسعر المقدر.

2- القيمة المعنوية، ويراد بها السير نحو الاتجاهات العقلية أو المفاهيم العامة أو تلك المتعلقة بالأمور الجمالية أو بالخير.

أهمية القيم في حياة الإنسان

يشهد العالم ثلاث ثورات لم يعشها من قبل، وهي ثورة المعلومات وثورة الاتصالات، وثورة نظم علاقات الانتاج والجديد في هذه الثورات عالميتها؛ فلا يمكن إسناد أي منها لمجتمع بعينه أو لأمة دون اخرى، فهي نتاج تراكم خبرات البشر وعلمهم في مجالات متنوعة وفي مناطق مختلفة.

كما تتميز تلك الثورات بعالميتها في التأثير، سواء المقصود أو غير المقصود؛ فلا يمكن لأمة ما أو لدولة ما أن تكتفي منها بقدر أو أن تحجم عن إرادة وقصد عن تناول بعض تأثيرها دون البعض الآخر؛ الأمر الذي وضع العديد من الأفكار والمعتقدات في الكثير من المجتمعات في حالة دفاع عن النفس أمام زحف مفرط الغزارة من المعتقدات والمعلومات التي هبت فجأة على مختلف المجتمعات وباغتت الكثير منها وهي تغطّ في سبات اليقين المطلق أو الأفكار المسبقة أو الايديولوجيات الجامدة.

وقد أحدث ذلك نوعا من الوهن الثقافي والفكري الذي اصاب الكثير من المجتمعات والأفراد وأحدث موجة من التشكك والاضطراب في الكثير من العلاقات الاجتماعية نتجت عنها مشكلات من بينها تفكك الأسرة وزيادة معدلات الجريمة بأشكالها المختلفة في المجتمعات. كما أثر ذلك على مدى إحساس

الفرد بالانتماء والولاء لقيم معينة. وزاد الأمر سوءا أن هذا كله بدأ ينعكس على حيوية المجتمع ويهدد بقاءه.

إنّ الانسان أصبح أكثر قدرة لكنه أقل سعادة، وأكثر تقدماً لكنه أقل أملا، وأكثر حرية لكنه أقل أخلاقاً، إذن فالأزمة تكمن في خلل النسق القيمي الذي لم يستطع مجاراة ما حققته تلك الثورات.

والمنطقة العربية تعيش الأزمة نفسها، وتعاني مجتمعاتها الكثير منها، وإن اختلفت المظاهر في الكم والنوع عن تلك التي تعيشها مجتمعات أخرى.

فلقد مهدت الثروة التي توفرت للجميع من دول نفطية استفادت مباشرة من عائدات النفط وأخرى قدمت الخبرات لجملة تغيرات كبرى عاشها الجميع فكانت الفوائد مشتركة، لكن الاختلاف هو في مقدار المكسب والخسارة لدى كل منا ونوع كل ذلك المكسب أو تلك الخسارة. لقد كسبنا تقنيات تم شراؤها، ولكننا خسرنا معتقدات تم تبديلها وتغييرها مرة بوعي ومرات عديدة دون وعي، وكانت النتائج في غير صالح أي منا.

إن القيم تعد ضرورة هامة لاستمرار المجتمع وبقائه بوصفه كياناً ثقافياً اجتماعياً يحمل هوية وطابعا مميزاً للبشر الذين يعيشون فيه وينتمون إليه.

وهنا تبرز أهمية القيم في مجالي: الأمن القومي National Security، والتنشئة الاجتماعية Socialization .

ثقافة السلام الاجتماعي

يمكن القول إن الثقافة بشكل عام هـي نمـط الـتفكير أو طريقـة العمـل أو أسلوب المعيشة بالنسبة للجماعة وكيفية مشاركة الأفراد في الفكر والعمل.

وتعرف الثقافة أيضا بأنها عبارة عن مجموع الطرق التقليدية المتبعة في حـل المشكلات أو الحلول المتعلمة والموجودة بطريقة مسبقة.

والثقافة هي ذلك الكل الذي يتضمن المعرفة والعقيـدة والفـن والأخـلاق والقانون والعادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع.

أما من الناحية السيكولوجية فالثقافـة مجموعـة مـن أسـاليب ردود الفعـل وأنماط السلوك البشري وطرق النزوع أو النشاط الإنساني وما تخلفه جميعا من آثار أو إضافات من نتاج الإنسان بصفته عضوا في جماعة.

والثقافة الاجتماعية تتعلق بدراسة كـل أشـكال الثقافـة اللامادية كـألوان الفن والمعرفة وضروب الفلسفات والقيم والمعتقـدات وكـل مـا يتـصل بالجوانـب الروحية في المجتمع.

وبذلك يتبين لنا أن الثقافة وسيلة وقائية أو غطاء متوارث يتقي به الإنسان غوائل البيئة وقسوة الظروف.

مفهوم ثقافة السلام الاجتماعي

من الأهمية بمكان أن نؤكد أن صياغة مفهوم واضح للسلام لا تتناقض بالضرورة مع الرؤى والنماذج السائدة في الفكر العالمي حول السلام.

لقد مرّت صياغة مفهوم السلام كما يرى بعض الباحثين بعدد من المراحل.

المرحلة الأولى هي التي تناولت مفهوم السلام باعتباره غياباً للحرب كممارسة وسلوك، وهذا يطبق على الصراع العنيف سواء بين الدول أو داخل الدول ذاتها في صورة الحروب الأهلية. وهذه الفكرة عن السلام ذائعة لدى الجماهير العادية ولدى السياسيين في الوقت نفسه.

أما **المرحلة الثانية** فقد ركزت على السلام باعتباره توازناً للقوى في إطار النظام الدولي.

وكانت **المرحلة الثالثة** هي التأكيد على السلام السلبي (أي منع نشوب الحرب) والسلام الإيجابي (منع العنف البنيوي في المجتمع).

والمرحلة الرابعة هي تلك التي ساد فيها مفهوم نسوي للسلام حاول أو يربط بين المستوى الكلي للسلام والمستوى الجزئي له، لذلك فهو لا يفرق بين الحرب والعدوان على الأفراد مثل ممارسة العنف غير المنظم ضد النساء في الحروب كالاغتصاب وإساءة المعاملة وكل صور العنف ضد الأشخاص. ولو انتقلنا إلى

المرحلة الخامسة لوجدنا تركيزا على فكرة السلام مع البيئة باعتبار أن الممارسات الرأسمالية قد اعتدت بوحشية على البيئة الإنسانية.

ونصل أخيرا إلى المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة التركيز على السلام الداخلي للإنسان باعتباره يرتبط بالضرورة بالسلام على المستوى الكلي.

ومع ذلك، فإن مراحل تطور صياغة مفهوم السلام – لو أردنا اختزالها في عبارة واحدة – لقلنا إنها تتمثل في الانتقال من المفاهيم ذات البعد الواحد إلى المفاهيم متعددة الأبعاد، ومن المفاهيم السلبية إلى المفاهيم الإيجابية، ومن السلام الخارجي إلى كل من السلام الداخلي والسلام الخارجي معا.

ويمكن للباحث أن يحدد ثقافة السلام الاجتماعي بأنها 'مجموعة الأنماط السلوكية التي لها تأثير على جماعة البرلمان الشبابي في حياتهم اليومية من حيث توجيه سلوكياتهم وصقل اتجاهاتهم وتصرفاتهم تجاه المواقف المختلفة وتهذيبها بحيث تحدد القيم السلوكية المرغوب فيها وغير المرغوب فيها.

مفهوم الأمن الاجتماعي

تعددت الآراء حول مفهوم الأمن الاجتماعي في واقعنا المعاصر تبعاً لمجالات الحياة التي يرتبط بها هذا المفهوم، وتبعاً لاختلاف اهتمامات المفكرين والعلماء، وتبعاً لاختلاف المتغيرات والعوامل التي تحيط بهم واختلاف أهداف الدراسات التي يقومون بها. وقد كان من أبرز ما ورد حول مفهوم الأمن الاجتماعي ما يلي:

- من الباحثين من اهتم في تعريف الأمن الاجتماعي بالجانب التنظيمي، وعناية النظام الدولي بالبعد الجنائي، وحماية الأفراد من أي اعتداء يحتمل وقوعه عليهم، ملقياً بكامل الحمل والمسؤولية على كاهل الجماعة الدولية.

- ومنهم من ينطلق في تعريفه للأمن الاجتماعي من جانب نفسي.

- ومنهم من انتهج النظرة التكاملية في تعريفه للأمن الاجتماعي.

- ومنهم من يرى الأمن الاجتماعي من منظور تربوي إسلامي.

ويمكن القول إن الأمن الاجتماعي هو حالة الاطمئنان التي يشعر بها أفراد المجتمع، الناتجة عن مساهمة مؤسسات التنشئة الاجتماعية في تفعيل جميع الاستراتيجيات والإمكانات والممارسات التي تحقق للفرد الشعور بعدم الخوف في حاضره ومستقبله، وتسعى إلى حماية دينه ونفسه وعقله وماله وعرضه وتؤكد له الاعتراف بوجوده ومكانته في المجتمع، وتتيح له المشاركة الإيجابية المجتمعية.

ويتضح مما سبق أن مفهوم الأمن الاجتماعي مفهوم شامل جامع يهتم بجميع مجالات الحياة.

المراجـــع

المراجع العربية :

1- إجلال إسماعيل حلمي، العنف الأسري، القاهرة، مكتبة غريب، 1999.

2- أحمد زكي بدوى، معجم مصطلح العلوم الاجتماعية، القاهرة، مكتبة لبنان.

3- أحمد النكلاوي، التغير والبناء الاجتماعي، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1968.

4- اسحق محمد رباح، قضايا معاصرة، دار الكنوز المعرفية، عمان، 2009.

5- جمال ماضي أبو العزايم، الإدمان أسبابه وأثاره والتخطيط والوقاية والعلاج، القاهرة، وكالة فناس، 1999.

6- حسنين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في مصر، القاهرة، مركز البحوث والدراسات النفسية، 1978.

7- دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر، عمان، 2004.

8- كمال دسوقي، الاجتماع ودراسة المجتمع، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1971.

9- سامي عبد القوى، منى أبو طيرة، عمل الأطفال- دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، مجلة دراسات نفسية، م9 ، ع1 ، رابطة الاخصائيين النفسيين، يناير، 1999.

10- سعد المغربي، في سيكولوجية العدوان والعنف، الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1993.

11- سوزان أحمد أبو ريه، الإنسان والبيئة والمجتمع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1999 .

12- صالح حزين، إساءة معاملة الأطفال- دراسة إكلينيكية، القاهرة، مجلة دراسات نفسية، رابطة اخصائيين النفسيين.

13- عادل دمرداش، الإدمان- مظاهره وعلاجه، الكويت، عالم المعرفة، العدد256، 1986.

14- عادل صادق، الإدمان له علاج، القاهرة، دار النشر للطباعة، 1999.

15- عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، مكتبة وهبه، القاهرة، 1965.

16- عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1963.

17- عبد الستار إبراهيم، الاكتئاب: اضطراب العصر الحديث، فهمه وأساليب علاجه، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد239، 1998.

18- عبد الوهاب كامل، مؤتمر النيل في عيون مصر، طنطا، مجلة جامعة طنطا للبيئة، العدد الأول، 1995.

19- عزة عبد الغني حجازي، العنف الجماعي (ملاحظات أولية) في الكتاب السوي في علم النفس، الجمعية النفسية للدراسات النفسية، م5، القاهرة، الأنجلو، 1986.

20- فاروق عبد السلام، سيكولوجية الإدمان، القاهرة، عالم الكتب، 1984.

21- فاروق عبد السلام، ظاهرة العدوان عند الأطفال، السعودية، مجلة الفيصل، العدد156، يناير، 1990 .

22- فيولا الببلاوي، محاضرات في التربية البيئية، جامعة بنها، كلية التربية، 1992.

23- قدرى حفنى، حول العنف السياسي، رؤية نفسية، الندوة المصرية الفرنسية الخامسة حول ظاهرة العنف السياسي، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، 1995.

24- لويس مليكه، سيكولوجية الجماعة والقيادة، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، الجزء الثاني، 1989.

25- محمد إبراهيم الدسوقى، سيكولوجية التمرد- دراسة نفسية مقارنة بين التمرد على السلطة والسيكوباتى، القاهرة، ماجستير غير منشور، آداب عين شمس، 1989.

26- محمد حسن علهاوى، سيكولوجية العدوان والعنف في الرياضة، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، 1998.

27- محمد حسن غانم، مشكلات نفسية اجتماعية، 2002 .

28- محمد خضر، الاغتراب والتطرف، دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

29- محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

30- محمود السيد أبو النبيل، سيكولوجية أحداث الشغب في مصر في كتاب علم النفس الاجتماعي، القاهرة، الجهاز المركزي للكتب، 1984.

31- مدحت أبو زيد، ديناميات أنثى مدنة بانجو- دراسة حالة مدمنة باستخدام اختبار تفهم الموضوع، مجلة علم النفس، العدد 49، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982.

32- مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1977.

33- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، 1993.

34- مصطفى سويف، المخدرات والمجتمع- نظرية تكاملية، الكويت، عالم المعرفة، العدد 205، 1977.

35- معن خليل العمر، علم المشكلات الاجتماعية، دار الشروق للنشر، عمان، 2008.

36- ممدوحة سلامة، الإساءة للأطفال وعواقبها: في كتاب قراءات مختارة في علم النفس، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1993.

37- موسى أبو حوسه، التغير الاجتماعي في الريف الأردني، جامعة الاسكندرية، الاسكندرية، 1981.

38- نجوى القوال، نجوى خليل، اتجاهات الصحف المصرية نحو أحداث جنود الأمن المركزي، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 1986.

المراجع الانجليزية :

1- Bandura, A. (1977). Aggression: asocial learning analysis, Englewood cliffs, New Jersey, Prentices, Hall.

2- Beack, S. (1998). Depression: Theoretical explanations, In F. Magill (Ed.), Psychological basic (Vol. 1, 200-205), Calefania. Salama Press, Inc.

3- Beaurais, A., Jouce, P., Mulder, R. (1996). Risk factors for serious suicide attempts among yotu agea 13 through 24 years. Journal of the American Academy of Child and Adolscent psychiatry, 35, 1174-1182.

4- Bonner, R., & Rich, A. (1987). Taward a predictive model of suicidal ideation and behavior: Some preliminary data in colleve students, Suicide & Life Threatening Behavior, Vol. 17, 50-63.

5- Cole, D. (1989). Psychopathology of adolescent suicide: Hoplessness, coping belifs, and depression. Journal of Abnormal Psychology, Vol.98, No. 3, 348-355.

6- Dear, G. (2000). Funcional and dysfunctional impulsivity, depression and suicidal ideation in a prison population. The Journal of Psychology, Vol. 134, No. 1, 77-80.

7- De Man, A. (1999). Correlates of suicide ideation in high school students: The importante of depression, The Jornal of Genetic Psychology, 160, 105-114.

8- Dollard, J & Miller, E (1995). Frustration and aggression, Yale university press.

9- Dori, G. & Overholster, J. (1999). Depression, hopelessness, and self esteem: A ccounting for suicideality in adolescent psychiatry inpatients. Suicide & Life- Therattening behavior, 29, 309-318.

10- Dyck, M. (1991). Postive and negative attitudes mediating suicide ideation. Suicide & Life- Threating Behavoir, 4, 336-373.

11- Farrington, D. (1987). The familic behavior, a book supplement to the journal of child psychology and psychiatric, no.1, pergmon press, n.y.

12- Gould, M., & Karner, R. (2001). Youth suicide prevention Suicide & Life- Threatening Behavior, 31, 6-31.

13- Hawton, K., Simkin, S., Deek, J., O'connar, S., Keen, A., Altman, D., Philo, G., & Bulsirade, C. (1999). Effects of a drug overdos in televison drama on presentation to hospital for self poisoning: Time series and questionnaire study. British Medical Journal, 318, 972-977.

14- Leenaars, A. (1997). Rick: A suicid of a young adult. Suicide & Life Threatening Behavior, 27, 645-658 .

15- Leenars, A. (1996). Suicide: A multidimensional malaise. Suicide & Life- Threatening Behavior, 26, 15-27.

16- Lester, D., & Abdel – Khalc, A. (1998). Suicidality and personality in American and Kuwatit students. International Journal of Social Psychiatry, 44, 280-283.

17- Lewinsohn, P., Rohade, P., & Salley, J. (1996). Adolescent suicide ideation and attempts: Prevalence, risk factor, and clinical implication. Clinical Psychology: scince and Practice, 3, 25-46.

18- Maltsberge, J., (1997). Culture and egaoidial in suicide: An adult case. Suicde & Life- Threatening Behavior, 27, 28-33.

19- Matet, D. (1996). Suicide, In R. Corsini & A. Auerbeach (Eds.), Concise encyclopedia of psychology (885-886), NewYork: Awiley- Interscience Puplication.

20- Pettrie, K., & Brook, R. (1992). Sense of coherence, Self ecteem, depression and hopelessness as correlates of re-attempting suicide. Britesh Journal of Clinical Psychology, 31, 293-300.

21- Pfeffer, C., Mc Bride, A., Anderson, G., & Hait, V. (1998). Peripheral serotonin measures in prepubertal psychiatric inpatients and normal children: Associations sith suicidal behavior and its risk factors. Biological Psychiatry, 44, 568-577.

22- Rich, A. et al., (1992). Gender differences in the psychosocial corrlaer of suicide ideation among adolescents. Suicide & Life-Threatening Behavior, 22, 364-373.

23- Robert Merton, (1976). The Sociology of Social Problems, in R. Merton & R. Nisbet ed., Contemporary Social Problems, Harcourt Prace Jovanovich, Inc. N.Y.

24- Rodney Stark, (1975). Social Problems, CRM. Random House, Inc., N.Y.

25- Shreve, B., & Kandel, M. (1991). Self- psychology shame and adolescents suicide: Thearetical and pracitical canlderations. Journal of counseling & Development, 69, 305-311.

26- Stewart, S. Lang. T., Betson, L., & Chang, S. (1999). Suicide ideation and its relationship to depressed mode in a community

sample of adolescents in hong kang. Suicide & Life- Threating Behavior, 29, 227-240.

27- Wierzbicki, M. (1998). Suicide, In F. Magill (Ed.), Psychologybasiccs (vol. 2, 610-614) Califarnia, Salem Press.

28- Yong, B., & Clumm, G. (1994). Life stress, social support, and problem solving skills of depressive symptoms, hoblessness, and suicid ideation in an asian students population: A test of model. Suicide & Life Threating Behavior, 24, 127-139.

29- Zhang, J. (1996). Suicide in beijing, china, 1992-1993. Suicide & Life- Threa